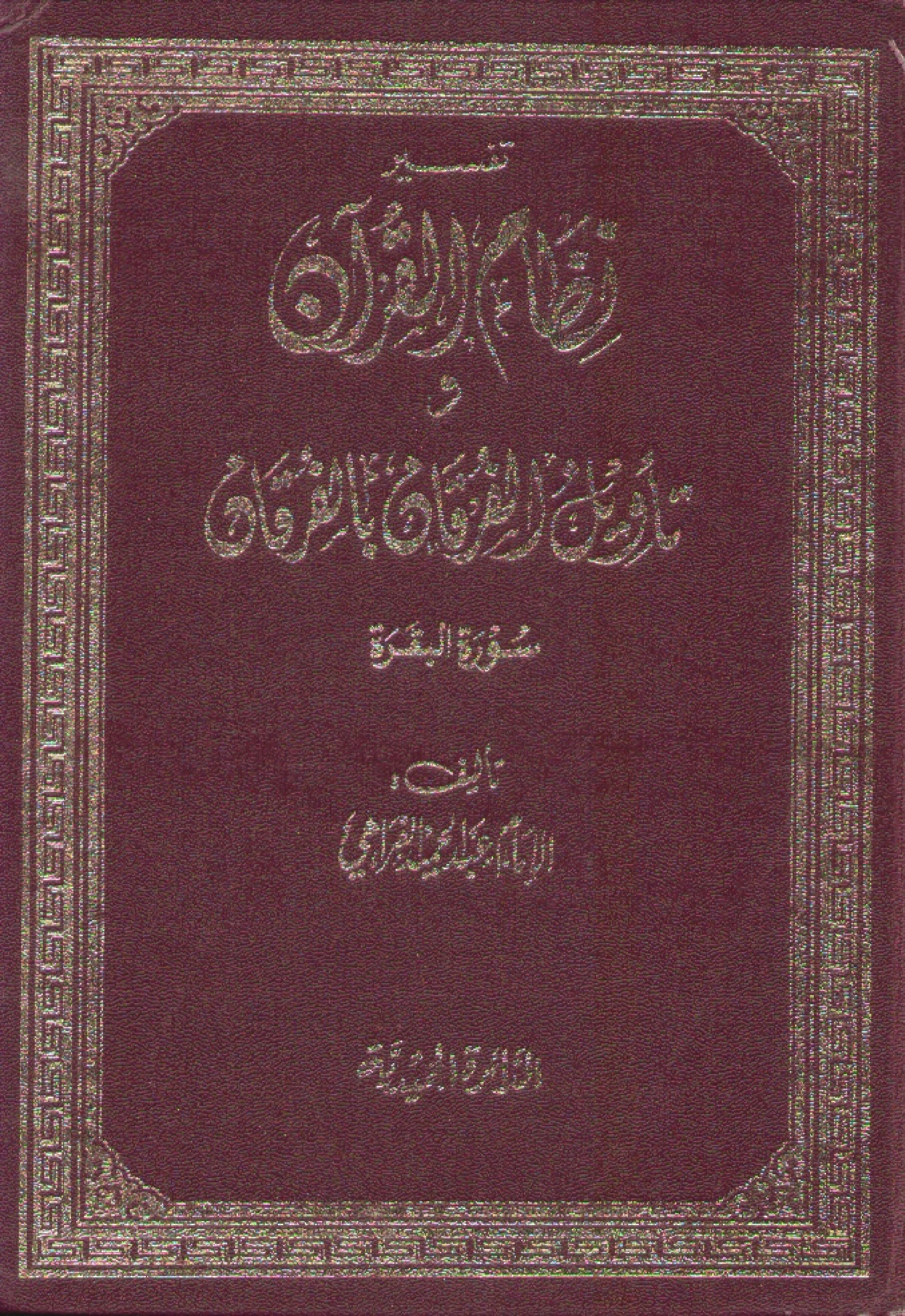

تفسير
نظام القرآن
و
تأويل الفرقان بالفرقان
سورة البقرة
تأليف :
الإمام عبد الحميد الفراهي
الدائرة الحميدية

تفسير

نظام القرآن

و

تأويل الفرقان بالفرقان

سورة البقرة

تأليف:
الإمام عبد الحميد الفراهي

الدائرة الحميدية

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الدائرة الحميدية مدرسة الإصلاح، سرائي مير، اعظم كره (الهند)

مطبوعہ: دعوت آفسٹ پرنٹرز، نئی دہلی-۲

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد ! فإن هذه قطعة من تفسير " نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" للإمام عبدالحميد الفراهي رحمه الله تعالى ، تصدرها الدائرة الحميدية لأول مرة ، بعد ما مضى عليها نحو سبعين سنة منذ وفاته .

وقد صدر قديماً أجزاء من هذا التفسير في حياة المؤلف رحمه الله ، وكان كل جزء مفرداً لتفسير سورة من السور الآتية : الذاريات ، والتحريم، والقيامة، والمرسلات ، وعبس، والشمس، والتين، والعصر، والكوثر، والكافرون، واللهب. ثم نشر بعد وفاته جزءان : جزء في تفسير سورة الفيل ، وآخر فيه مقدمة التفسير (فاتحة نظام القرآن) مع تفسير سورة الفاتحة والبسملة.

و لم يكن بدء المؤلف رحمه الله بتفسير تلك السور لسهولتها وقصرها_كما يبدو لأول وهلة - بل لما أشكل من نظامها أو أساليبها على كثير من المفسرين، وليتبين أن قصار السور ليست بأقل من طوالها في سعة مضامينها، ودقة نظامها، وكمال بلاغتها.

ولعل تفسير سورة البقرة من آخر ما كتبه المؤلف ، فوافاه الأجل ، وهو في تفسير جملة آيات من أوائلها إلى (٤٧-٦٢). وقد بقيت في المسودة فصول لم تكتب، وفقرات كتبت ثم ضرب عليها لإعادة كتابتها ، وكتب فصل ثم رآه المؤلف بحاجة إلى فضل بيان ، فقال في الحاشية :" أبهم هذا البيان فيكتب مرة أخرى". وعلى الرغم من هذه الثغرات القليلة كان هذا الجزء _ بما يحتوى عليه من

مباحث مهمة ، ومطالب جليلة ، ونظرات جديدة، خليقاً بأن يهدى إلى أهل القرآن الذين سماهم النبى صلى الله عليه وسلم " أهل الله وخاصته ".

وكان للإمام الفراهي منهج فريد في التفسير ، اشتهر به في شبه القارة الهندية، وقد أفاض القول في بيان أصوله في مقدمة تفسيره (فاتحة نظام القرآن)، وأبانت عنه أجزاء التفسير التي صدرت في حياته. ولكن لم يقف عليها العلماء والباحثون في البلاد العربية إلا قليلٌ، ومنهم السيد رشيد رضا رحمه الله، الذي بعث إليه الفراهي بنسخ منها، فكتب كلمة في مجلة المنار (صفر ١٣٢٧هـ) أثنى فيها على منهجه، ومما قال: "وقد ألقينا على بعض هذه الرسائل لمحة من النظر، فإذا طريق جديد في أسلوب جديد من التفسير ، يشترك مع طريقنا في القصد إلى المعانى من حيث هي هداية إلهية، دون المباحث الفنية العربية ... وإن للمولف لفهماً ثاقباً في القرآن، وإن له فيه مذاهب في البيان ... وإنه لكثير الرجوع باللغة إلى مواردها والصدور عنها ريان من شواهدها ".

و لم تطبع تلك الأجزاء مرة أخرى بعدما ترجمت إلى اللغة الأردية ، وصار التعويل في بلاد الهند أيضاً على الترجمة دون الأصل . أما المؤلفات الأخرى التي طبعت بعد وفاة الإمام نحو مقدمة التفسير ، و دلائل النظام ، والتكميل في أصول التأويل ، فهي أيضاً ظلت بعيدة بصورة عامة عن متناول الباحثين في البلاد العربية. فلا يستغرب إذن أن لا نجد ذكراً للإمام الفراهي و منهجه في معظم الدراسات القرآنية التي صدرت فيها خلال سبعين عاماً خلت.

ومن ثم رأينا أن نشير هنا إشارة خاطفة إلى بعض أصول هذا المنهج من خلال مقتطفات من كلام الإمام نفسه . وأهمها أصلان يدل عليها عنوان التفسير نفسه : الأول نظام القرآن ، والآخر تأويل الفرقان بالفرقان .

أما تأويل الفرقان بالفرقان فهو أصل معروف مجمع عليه و لا يحتاج إلى

بيان ، غير أن منهج الفراهي يتميز بالتمسك الشديد بهذا الأصل والاستفادة منه على أنحاء غفل عنها كثير من المفسرين .

أما " النظام " فالمقصود به ما يسميه الكتاب المعاصرون بالوحدة الموضوعية ، فكل سورة لها موضوع معين_ يسميه الفراهي عمود السورة_ تدور عليه بأجزائها المترابطة فيما بينها ترابطاً معنوياً محكماً . ويختلف النظام عن التناسب الذي عنى به جماعة من علمائنا القدامى ، وعدّوه علماً شريفاً ، والفرق بينهما " أن التناسب جزء من النظام ، فإن التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئاً واحداً مستقلاً بنفسه ، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما ، فربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام ، فيصير شيئاً واحداً. وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها ، فإن الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها . فإن عدم الاتصال بين آيات متجاورة يوجد كثيراً . ومنها ما ترى فيه اقتضاباً بيّناً ، وذلك إذا كانت الآية أو جملة من الآيات متصلة بالتي على بعد منها ... و بالجملة فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كلاماً واحداً، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة ، أو بالتي قبلها أو بعدها على بعد ما، فكما أن الآيات ربما تكون معترضة ، فكذلك ربما تكون السور معترضة. وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر .... فالنظام هو الذي يعطى السورة وحدانيتها التي بها صارت سورة كاملة مستقلة بنفسها ذات عمود تجرى إليه أجزاؤها ... ولا بد لحسن النظام من أن يكون الكلام حسن الترتيب، حسن التناسب ، قوى الوحدانية "

والنظام عند الفراهي ليس أمراً مقصوداً لذاته ، وإنما هو المنهاج الصحيح لتدبر القرآن ، وهو الحكم عند تضارب الأقوال ، وهو المرجح عند تعدد الاحتمالات ، وهو الإقليد الذي تفتح به كنوز حكمة القرآن .

ويظهر من كلام بعض المتقدمين أنهم قد توصلوا إلى فكرة النظام ، نحو قول القاضي أبي بكر ابن العربي رحمه الله:" ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم .." ولكن لم يبلغ أحدهم في تأصيله وتفريعه واستيعاب وجوه القول فيه ما بلغه الإمام الفراهي، فالحق أنه هو الذي نزل هذا العلم منزلته الصحيحة ، وأسسه على أصول راسخة، ثم أنهج سبيله ، ورسم حدوده ، ونصب أعلامه ، و وضع فيه كتاباً مفرداً باسم دلائل النظام.

وفي الكشف عن نظام القرآن لا يلجأ الإمام الفراهي إلى مناهج أهل الفلسفة والمنطق أو المتصوفة ، وإنما يعتمد على القرآن نفسه . وفي ذلك يقول رحمه الله:"أجمع أهل التأويل من السلف إلى الخلف أن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وأنه هو أوثق تعويلاً وأحسن تأويلاً ، فنقول : كما أن القرآن يفسر مطالب آياته بعضها ببعض ، فكذلك يدلك على نظام مطالبها ومناسبتها، بما يأتيك بنظائره ، فتكثر الشواهد على رباط أمر مع أمر ، وبذلك يحثك على التأمل في جامع وصلة بينها، ثم يأتي عليه بأمثلة كثيرة بعضها أوضح من بعض ، حتى يتدرج بك على ما كان أدق وأغمض ".

وتبين من ذلك أن هذا الأصل _ أي النظام _ أيضاً راجع في حقيقة الأمر إلى الأصل السابق ، وهو تفسير القرآن بالقرآن . وليس عطف النظام عليه في اسم الكتاب إلا من باب عطف العام على الخاص ، وإنما قدّمه تنويهاً بشأنه ، وتنبيهاً على إغفال الناس إياه ، مع أهميته البالغة في فهم القرآن . فالحق أن تفسير القرآن بالقرآن هو الأصل الأصيل عند الفراهي.

أما الأحاديث، فكان له منهج خاص في نقلها في تفسيره ، بيّنه في فاتحة نظام القرآن قائلا:" ولعمري أحب التفسير عندي ما جاء من النبي صلى الله عليه وسلم

وأصحابه رضى الله عنهم .. وإني مع اليقين بأن الصحاح لا تخالف القرآن، لا آتي بها إلا كالتبع بعد ما فسرت الآيات بأمثالها، لكيلا يفتح باب المعارضة للمارقين الذين نبذوا القرآن وراء ظهورهم ، والملحدين الذين يلزموننا ما ليس له في القرآن أصل ، ولكي يكون هذا الكتاب حجة بين فرق المسلمين وقبلة سواء بيننا. فإني ما أردت أن أجمع كل ما يتعلق بالقرآن ، فإنه كنز لاينفد على كثرة المجتهدين. والكتب في التفسير كثيرة، فمن يسرح فيها نظر التحقيق يؤت من العلم ما شاء الله، ولكني أردت ما يكون كالأساس والأم والوسط والحكم. ولهذا اقتصرت على ما في القرآن، غير جاحد لما تركته ، كما جمع الإمام البخاري رحمه الله في كتابه كل ما ثبت عنده من الحديث متفقاً عليه مع ما ترك كثيراً من الصحاح ".

أما تحقيق ألفاظ القرآن وأساليبه ، فإن الإمام الفراهي _ وقد انتهى إليه علم العربية بكل فنونها _ يعتمد على القرآن الكريم نفسه ثم كلام العرب الأقحاح، مع استفادته من كتب اللغة مراعياً حدودها وقصورها ،" فإنها كثيراً ما لا تأتي بحد تام ، ولا تميز بين العربي القح و المولد ،ولا تهديك إلى جرثومة المعنى فلا يدري ما الأصل وما الفرع ، وما الحقيقة وما المجاز ، فمن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض المعاني من كتاب الله..." وذلك ـ بطبيعة الحال ـ في غير المصطلحات الشرعية التي لا يؤخذ تفسيرها إلا من السنة النبوية.

ولا يعرج الفراهي على الإسرائيليات المنقولة في كتب التفسير ، بل يرجع إلى الصحف الموجودة بأيدى اليهود والنصارى ـ وقد درسها دراسة نقدية مع معرفته باللغة العبرانية واطلاعه على الدراسات التي قامت حولها في الغرب ـ فإن "من نظر في الكتب السابقة استبان له فضل تعليم القرآن عليها ، وإعادة بعض ما نسوه من كتبهم ، وكشف ما بدّلوه "، ولتقوم الحجة على الأمتين من كتبهم.

وهذا الغرض النبيل لا يخص عصراً دون عصر ، ولكن لعل اهتمام المؤلف بذلك_ بصورة خاصة_ مردّه إلى تولي المستشرقين_ في عهده_ أعلى المناصب في الجامعات والمعاهد الهندية ، وانتشار المنصرين في كل أرجاء الهند يوزعون صحائفهم المحرفة، ويناظرون علماء المسلمين، ويخادعون دهماءهم .

نقتصر هنا على هذه اللمحة الدالة التي قصدنا منها إلى إفادة القراء والباحثين الذين لم يطلعوا من قبل على مؤلفات الإمام الفراهي في التفسير وعلوم القرآن . ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتبه: فاتحة نظام القرآن ، ودلائل النظام، والتكميل في أصول التأويل.

وهذه القطعة التي بين أيديكم من تفسير سورة البقرة لها مزية على الأجزاء التفسيرية الأخرى التي صدرت من قبل ، فهي_ بالإضافة إلى كونها من آخر ما كتبه المؤلف في التفسير_ تمثل آخر نموذج اختاره الفراهي لترتيب الفصول في تفسير كل سورة . فقد صرح في تذكرة له كتبها على ظهر الورقة الأولى من المسودة بأنه سيتكلم في تفسير كل سورة على سبعة عناوين:

١- المقدمة (لبيان عمود السورة، ونظامها ، ومواقع نزولها ، ووجوه خطابها، وغير ذلك من الأمور الكلية).

٢- الكلم (تفسير المفردات).

٣- النحو (بيان تأليف الكلم).

٤- البلاغة (دلالة الأساليب على معان تناسب المحل).

٥- التأويل (حمل الكلام على مراده حسب المحل).

٦- التدبر (ذكر المبادئ والنتائج أي اقتضاء النص وإشارته).

٧- النظم (بيان موقع جملة من الكلام ورباط بعضها ببعض).

وقد أشار في هذه التذكرة أيضاً إلى ما يستدل به في الكلام على العناوين المذكورة.

وإذا كان تفسير سورة البقرة لم يكتمل ، فإن مقدمته تامة ، وتشتمل على عشرة فصول . وقد وجدنا في مسودات المؤلف مقدمة أخرى ناقصة كتبت فيما يبدو قبل السابقة ، وفيها تحليل مفصل لأجزاء السورة ومطالبها، فألحقناها بهذا السفر تكملة للفائدة.

وكان المؤلف رحمه الله قد أنشأ خطبة بليغة ليستهل بها تفسيره العظيم الذي لم يقدر له إتمامه، "وذلك ما خسرت به الأمة المحمدية " كما يقول صديقه وتلميذه العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله. وقد أجاد في تحبير هذه الخطبة ما شاء الله أن يجيد، فجاءت مشتملة على مائة وسبعين فقرة، مثل "وشي اليَمْنة الحبرة". وهي التي سمعها العالم الأديب السلفي الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي رحمه الله من لسان المؤلف حينما زاره في رحلته الأولى إلى الهند سنة ١٣٤٢هـ ، فقال في مذكّراته: "سمعت منه خطبة تفسيره للقرآن اغرورقت منها عيناي لفصاحتها وحقيتها"، ثم وصف الإمام الفراهي رحمه الله بأنه "نادر في علماء العرب فضلاً عن علماء الهند"، ولما كانت هذه الخطبة البديعة غير مطبوعة ، وضعناها في أول هذا السفر.

نسأل الله سبحانه أن ينفع بهذا الكتاب، ويجعله معيناً على فهم كتابه العزيز وتدبره والعمل به، ويجزي مؤلفه خير ما يجزي به عباده الصالحين من أهله وخاصته.

الدائرة الحميدية

ترجمة المؤلف (١)

بقلم : العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله

الدنيا دار العجائب، ومن أعجب عجائبها وقوع ما كنت تحذر منه، وحدوث ما لم يخطر ببالك. بعثنا هذه الرسالة (٢) للطبع ، وصاحبها حيّ يُرزق، فلم يمض شهر حتى فوجئنا بموته، وفجعنا بانخرام حياته. وكان رحمه الله آية من آيات الله في حدّة الذهن، وكثرة الفضل ، وسعة العلم ،ودماثة الخلق ، وسداد الرأي، والزهد في الدنيا، والرغبة في طلب مرضاة الله.

هو حميد الدين أبو أحمد عبدالحميد الأنصاري الفراهي . ولد رحمه الله سنة ١٢٨٠هـ في قرية " فريها " من قرى مديرية " أعظم كره " في الولايات المتحدة(٣) بالهند. وكان ابن خال علامة الشرق ومؤرخ الإسلام الشيخ شبلي النعماني(٤) تغمده الله برحمته.

واشتغل بعدما ترعرع في طلب العلم ، فحفظ القرآن ، وقرأ ـ كدأب أبناء العائلات الشريفة في الهند – اللغة الفارسية، وبرع فيها، فنسج [وهو ابن ستة عشر

---

(١) كتبت هذه الترجمة بعد وفاة المؤلف رحمه الله بشهرين، ونشرت في آخر كتابه " إمعان في أقسام القرآن" (الطبعة السلفية) وقد أثبتناها هنا بتلخيص يسير ، وعلقنا عليها بما يوضح بعض الأمور . أما زياداتنا ـ وهي قليلة ـ فجعلناها بين حاصرتين [ ]. الناشر

(٢) يعني كتاب الإمعان

(٣) ولاية اترابراديش (U.P.) الحالية

(٤) مؤلف " الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان " بالعربية ، والسيرة النبوية الشهيرة ، والفاروق ، والمأمون ، وشعر العجم ، والجزية، وغير ذلك بالأردية. توفى رحمه الله سنة ١٩١٤م.

ترجمة المؤلف (١)

بقلم : العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله

الدنيا دار العجائب، ومن أعجب عجائبها وقوع ما كنت تحذر منه، وحدوث ما لم يخطر ببالك. بعثنا هذه الرسالة (٢) للطبع ، وصاحبها حيّ يُرزق، فلم يمض شهر حتى فوجئنا بموته، وفجعنا بانخرام حياته. وكان رحمه الله آية من آيات الله في حدّة الذهن، وكثرة الفضل ، وسعة العلم ،ودماثة الخلق ، وسداد الرأي، والزهد في الدنيا، والرغبة في طلب مرضاة الله.

هو حميد الدين أبو أحمد عبدالحميد الأنصاري الفراهي . ولد رحمه الله سنة ١٢٨٠ هـ في قرية " فريها " من قرى مديرية " أعظم كره " في الولايات المتحدة(٣) بالهند. وكان ابن خال علامة الشرق ومؤرخ الإسلام الشيخ شبلي النعماني(٤) تغمده الله برحمته.

واشتغل بعدما ترعرع في طلب العلم ، فحفظ القرآن ، وقرأ ـ كدأب أبناء العائلات الشريفة في الهند – اللغة الفارسية، وبرع فيها، فنسج [وهو ابن ستة عشر

---

(١) كتبت هذه الترجمة بعد وفاة المؤلف رحمه الله بشهرين، ونشرت في آخر كتابه " إمعان في أقسام القرآن" (الطبعة السلفية) وقد أثبتناها هنا بتلخيص يسير ، وعلقنا عليها بما يوضح بعض الأمور . أما زياداتنا ـ وهي قليلة ـ فجعلناها بين حاصرتين [ ]. الناشر

(٢) يعني كتاب الإمعان

(٣) ولاية اترابراديش (U.P.) الحالية

(٤) مؤلف " الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان " بالعربية ، والسيرة النبوية الشهيرة ، والفاروق ، والمأمون ، وشعر العجم ، والجزية، وغير ذلك بالأردية. توفى رحمه الله سنة ١٩١٤م.

عاماً] قصيدة فارسية صعبة الرديف ، بارى فيها شاعر الفارسية الطائر الصيت خاقاني الشرواني [ت ٥٩٥هـ] فأتى فيها بما أعجب الشعراء.

واشتغل بعد ذلك بطلب العربية، فاستظل بعطف أخيه الشيخ شبلي النعماني، وهو كان أكبر منه بست سنين، فأخذ منه العلوم العربية كلها من صرفها ونحوها ، ولغتها وأدبها ، ومنطقها وفلسفتها . ثم سافر إلى (لكناؤ) مدينة علم الولايات المتحدة ، وجلس في حلقة الفقيه المحدث الإمام الشيخ أبي الحسنات عبدالحي اللكنوي [ت ١٣٠٤هـ] صاحب التعاليق المشهورة . ثم ارتحل إلى (لاهور)، وأخذ الأدب العربي من إمام اللغة العربية وشاعرها المفلق في ذلك العصر الشيخ الأديب فيض الحسن السهارنفوري [ت ١٣٠٤هـ] شارح الحماسة، [والمعلقات شرحاً ثلاثي اللغات] ، وأستاذ اللغة العربية في كلية العلوم الشرقية بلاهور . فبرع في الآداب العربية ، وفاق أقرانه في الشعر والإنشاء . قرأ دواوين الجاهلية كلها، وحلّ عقد معضلاتها ، وقنص شواردَها . فكان يقرض القصائد على منوال الجاهليين ، ويكتب الرسائل على سبك بلغاء العرب وفصحائهم .

ثم عرّج على اللغة الإنكليزية ، وهو ابن عشرين سنة ، ودخل في كلية عليكره الإسلامية(١)، ونال بعد سنين شهادة ب _ أ (٢)من جامعة "الله آباد" وامتاز في الفلسفة الحديثة . فصار مجمع البحرين و﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾. كان عالماً بالعلوم العربية والدينية ، وفاضلاً في العلوم العصرية والإنكليزية . فاجتمعت فيه خصال الجنسين : المتقين من العلماء الراسخين ، والمتنورين من الفضلاء الكاملين .

وبعد ما قضى وطره من طلب العلم ، واستقى من حياضه ، وترتع من

(١) التي أصبحت فيما بعد(جامعة عليكره الإسلامية)

(٢) B.A. (الليسانس)

رياضه ، نُصب معلماً للعلوم العربية بمدرسة الإسلام بكراتشي (١) عاصمة السند، فدرّس فيها سنين ، وكتب وألف ، وقرض وأنشد.

ثم انقطع إلى تدبّر القرآن ودرسه ، والنظر فيه من كل جهة ، وجمع علومه من كل مكان ، فقضى فيه أكثر عمره . ومات، وهو مكبّ على أخذ ما فات من العلماء ، ولفّ ما نشروه، ولَـمّ ما شتّتوه، وتحقيق ما لم يحققوه . فكان لسانه ينبع علماً بالقرآن، وصدرُه يتدفق بحثاً عن مشكلاته ، وقلمه يجرى كشفاً عن معضلاته. وهو كان يعتقد أن القرآن مرتب بيانُه، ومنسقة النظام آياته، وكل ما تقدم وتأخر من سوره وآيه بُنى على الحكمة والبلاغة ورعاية مقتضى الكلام. فلو قدم ما أُخّر، وأُخّر ما قدّم لبطل النظام ، وفسدت بلاغة الكلام .

وكان يرى أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، فأعرض عن القصص وما أتى به المفسرون من الزخارف والعجائب . هذا كان دأبه في تفسيره الذي سماه (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان). وكان حسن النظر في كتب اليهود والنصارى، فاستمتع بها في مباحثه.

وانتخب [سنة ١٩٠٧م] معلماً للغة العربية بكلية عليكره الإسلامية، وكان يومئذ أستاذ اللغة العربية بها المستشرق الألماني الشهير يوسف هارويز (٢). فالمستشرق استكمل منه العربية ، وهو قرأ عليه العبرانية . وبعد سنين نُصب أستاذاً للغة العربية [بجامعة الله آباد]، وبقى هناك أعواماً ، حتى انتقل منها إلى حيدرآباد الدكن رئيساً لمدرسة دار العلوم العربية الأميرية النظامية التي كانت تخرج قضاة البلاد ووُلاتها.

وهو الذي ارتأى تأسيس جامعة أردوية تدرس العلوم الدينية بالعربية.

(١) مدينة كراتشي Karachi

(٢) J.Horovits جوزيف هوروفتس (ت ١٩٣١م).

والعلوم العصرية بالأردية، وبذل جهده في تحقيق هذا الأمل وإنجاز هذا العمل، ونال القبول من مالكي أزمة الأمور والجمهور ، وصادق عليه دولة الأمير الأعظم نظام الملك آصف جاه السابع عثمان على خان(١)، وسميت بالجامعة العثمانية، وهي يومئذ من أحدث جامعات العالم سناً ، ولكن أعجبها نظاماً.

ثم استقال من خدمته ، ولزم بيته ، وانقطع إلى العلم، وكان قد أسس في قرب من قريته مدرسة عربية دينية سميت(مدرسة الإصلاح)، فكان ينظر في شؤونها، و يجريها على أمثل طريق اخترعه ، و أحسن أسلوب أبدعه . ومن أجل مقاصدها تحسين طريقة تعليم العربية ، وإيجاز قائمة دروسها المتعبة العقيمة، وإلغاء العلوم البالية القديمة ، والعكوف على طلب علوم القرآن ، والبحث عن معانيه ونظمه وأحكامه وحكمه [وتدريس الحديث النبوي والفقه الإسلامي بعيداً من التعصب المذهبي].

وكان رئيساً للجنة المديرين لـ (دار المصنفين) التي أسست تذكاراً لأخيه الشيخ شبلي النعماني . فكان هو أحد مؤسسيها، وكان يبذل أوقات فراغه في التأليف ، والتدوين ، والنظر في القرآن ومعانيه ، وإلقاء دروسه على تلامذته الملتفين حوله. فسمح خاطره المتدفق بما بخل به القدماء من علومه ، وفرق على العُفاة ما لم يجمعه الأوائل في صحفهم .

كان رحمه الله منقطعاً إلى هذا البر من العمل ، حتى أتاه الأجل في التاسع عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٤٩(الحادي عشر من نوفمبر سنة ١٩٣٠م)، مات غريباً في مدينة (متهورا) (٢) كعبة الوثنيين في الهند .كان رحل إليها عليلاً يستشير طبيباً نطاسياً من أبناء بلدته موظفاً فيها . فلم ينجعه الدواء ، ولم يُرزق

(١) آخر أمراء دولة حيدرآباد . وفي مطبوعة الإمعان:" الثامن" ، وهو سهو

(٢) MATHURA

الشفاء ، وأنهكته العلّة التي سدكتْ به ، و خابت العملية التي قام بها الطبيب، وهو محتسب صبراً ، مطمئن شكراً ، يجود بنفسه وهو يتلو القرآن ، ويشكر الرحمن، حتى أسكت الحِمام ناظم الكلام إلى يوم القيام، و﴿ وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾، صدق قول القائل: عاش حميداً، ومات شهيداً.

خلف من آثار خاطره ذخيرة لا تفنى ، وعلوماً لا تبلى ، وأكثرها بالعربية.

فمما طبع من كتبه:

١- أسباق النحو، جزآن بالأردية(١).

٢- وديوانه الفارسي(٢)

٣- وخردنامه، كتاب نظم فيها حكمة سيدنا سليمان عليه السلام بالفارسية القُحة لا تشوبها كلمة عربية.

٤- مقالة في الشفاعة والكفارة بالإنكليزية ، رد بها على بعض علماء النصارى.

والبقية الآتية كلها بالعربية:

٥- الرأي الصحيح في من هو الذبيح.

٦- وتفسير سور من القرآن، وهو جزء من أجزاء تفسيره نظام القرآن(٣)

(١) لتعليم النحو والصرف بطريقة جديدة سهلة عجيبة ، وقد أثبتت تجربة أكثر من خمسين عاماً هذين الكتيبين أحسن وأنفع للناطقين بالأردية من الكتب التقليدية الرائجة في المدارس الهندية.

(٢) صدرت طبعته الثانية بعنوان (نواي فهلوي)

(٣) نشر منه الأجزاء الآتية:

١. فاتحة نظام القرآن ، وهي مقدمة تفسيره.

٢. تفسير البسملة وسورة الفاتحة

٣. تفسير كل من السور الآتية في جزء مستقل: الذاريات، والتحريم، والقيامة، والمرسلات، وعبس، والشمس، والتين، والعصر، والفيل، والكوثر، والكافرون، واللهب، والإخلاص.

٧ـ وإمعان في أقسام القرآن(١).

ومما لم يطبع من كتبه:(٢)

٨ـ بقية تفسير سور من القرآن (ولم يكمله، وذلك ما خسرت به الأمة المحمدية).

*٩ـ جمهرة البلاغة: (أصل فيها الأصول ليهدي الناس إلى فهم إعجاز القرآن، ورد فيها على أصول (بوطيقا)(٣) لأرسطو الذي أضل المتأخرين من مصنفي كتب البلاغة، حتى الشيخ عبد القاهر الجرجاني رحمه الله)

١٠ـ فلسفة البلاغة

١١ـ سليقة العروض

١٢ـ دلائل إلى النحو الجديد والمعاني والعروض والبلاغة

*١٣ـ ملكوت الله، (وهو تحقيق نواميس الله وسنتة في خلقه وتدبيره ومُجازاته)

١٤ـ الرائع في أصول الشرائع.

*١٥ـ أساليب القرآن .

١٦ـ إحكام الأصول بأحكام الرسول (وهو تتبع طرق الاجتهاد النبوي).

*١٧ـ القائد إلى عيون العقائد(وهو ما جاء به القرآن من الدين لا يشوبه بدعة المبتدعين وفتنة المتكلمين).

١٨ـ كتاب العقل وما فوق العقل(تحقيق العلوم التي تدركها العقول والتي فوق إدراكها).

---

(١) صدرت طبعة محققة له من دارالقلم والدار الشامية عام ١٤١٥هـ.

(٢) الكتب التي طبعت فيما بعد أشرنا إليها بنجمة قبلها.

(٣) وهو كتاب الشعر ، وفي المطبوعة :(ريطوريقا) يعنى كتاب الخطابة ، والصواب ما أثبتنا.

١٩ـ الإكليل في شرح الإنجيل (تصحيح ما نطق به الرسول المسيح ، وتفسير ما أوله المبطلون من أهل الصليب).

٢٠ـ أسباب النزول (نزول القرآن).

٢١ـ تاريخ القرآن (تاريخ جمعه وتأليفه ، وهو كان يعتقد بالأدلة القرآنية الصحيحة أن القرآن كان مؤلفاً علىعهد النبى صلى الله عليه وسلم).

٢٢ـ أوصاف القرآن (شرح ما وصف به القرآن نفسه من الحكمة والنور والإبانة وغيرها من النعوت).

٢٣ـ فقه القرآن.

٢٤ـ حجج القرآن .

٢٥ـ كتاب الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ.

٢٦ـ رسالة في إصلاح الناس.

*٢٧ـ كتاب أصول التأويل.

*٢٨ـ مفردات القرآن.

*٢٩ـ دلائل النظام (هو إيضاح ما أراد به من نظام القرآن واستدل بالآثار صحة ما أراد ، وأقام عليه الحجج).

٣٠ـ الأزمان والأديان.

٣١ـ كتاب الحكمة (شرح معنى الحكمة التي في القرآن ، والتي أوتى النبيون، وما يعلمون الناس منها).

٣٢ـ القسطاس (رسالة في علم جديد وهو منطق العمل وميزان الإرادات وأساس الحكمة العملية).

*٣٣ـ ديوانه العربي.

*[٣٤ـ تحفة الإعراب (منظومة في النحو بالأردية بأسلوب سهل).

*٣٥- ترجمة جزء من طبقات ابن سعد بالفارسية.

*٣٦- ترجمة رسالة (بدء الإسلام) بالفارسية ، والأصل من تأليف العلامة شبلي النعماني بالعربية.

*٣٧- الإشراق في الحكمة الأولى من حقائق الأمور ومكارم الأخلاق.

٣٨- الدمدمة والشمقمة.

٣٩- المنطق الجديد.

٤٠- النظر الفكري حسب الطريق الفطري.

٤١- الدر النضيد في النحو الجديد.

٤٢- الطارق والبارق.

٤٣- قيد الأوابد.

٤٤- لوامع الأفكار].

من يقرأ أسماء هذه الكتب ، يقضى منها العجب ويؤمن بما أوتي صاحبها من سعة العلم ، وصحة النظر ، وكثرة الفضل ، وسلامة الذوق ، وتوقد الذهن، والتأمل في القرآن ،وفهم أصوله ومعانيه ، وتناول أقاصيه وأدانيه.

رحمه الله وأكرمه ، ونفعنا بعلومه وكتبه ، وييسر لنا طبعها ونشرها وعمّم المستفيدين خيرها وبرها.

دار المصنفين — العبد الكئيب المحزون

بمدينة أعظم كره بالهند. — سليمان الندوي

٢٧ شعبان سنة ١٣٤٩هـ

خطبة

نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ظلّل علينا سرادقاً من السماء الزرقاء وعلّق فيها المصابيح زهراً -[٢]و زيّنها بالشمس والقمر يقلبه هلالاً وبدراً -[٣]وجعل له منازل شفعاً و وتراً -[٤] حُسباناً، ولتعد أيام السنين شهراً فشهراً -[٥]وجعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكراً -[٦]و وسم آناء هما مواقيت الصلاة عشائين وفجراً -[٧]وعشياً وظهراً -[٨]لنحمد فيها ربنا ولاننسى له ذُكراً.

[٩]والحمد لله الذي وطأنا من الأرض نمارق خُضراً -[١٠]و رقّش أزهارها نقطاً وسطراً -[١١]ولونها حُمراً وشُقراً -[١٢]وبيضاً وصُفراً -[١٣]لنعمل في بدائع صنع ربنا فكراً -[١٤]وجعل عليها من الجبال وقراً -[١٥]التي خلق فيها مما يوقدون عليه وبه فحماً وحديداً وفضة وذهباً ونُحاساً وقطراً -[١٦]منافع للناس، وأحجاراً يغلون لها سعراً -[١٧]ويتخذون منها حُلى مرصّعة وشذراً.

[١٨]والحمد لله الذي بثّ في الأرض من السائمة والنعم دثراً -[١٩]وكساها شعراً وصوفاً ووبراً -[٢٠]لنتخذ منها أثاثاً ولباساً وطعاماً ومتاعاً وفراً -[٢١]ومن وحش البهائم ذوات حافر وظلفٍ وقرنٍ تحفر الأرض حفراً -[٢٢]بقراً عيناً وظباء عُفراً -[٢٣]ووعولاً تُناطح صخراً -[٢٤]ومن الأحناش مايؤويه جُحْراً -[٢٥]وما يدب وما يمشي على بطنه وما يقفز طمراً -[٢٦]ومن السباع ما أعد لها ناباً وظفراً -[٢٧]ذئاباً غبساً وضباعاً غُثراً -[٢٨]ونمراً نمراً -[٢٩]وضراغم غُلبا تُسمعك من الغيل والأجزاع زأراً -[٣٠]وخلقا لا يُحصى، أحصاهم الرب ويُطعم كلهم فيتضرعون إليه جأراً.

[٣١]والحمد لله الذي خلق من ذوات الأجنحة ما عوج مناقيرها وحدّد مخالبها

أشرا ـ [٣٢] صقراً و أجدل ونسرا ـ [٣٣] وعُقاباً تأخذ في شماريخ الجبال وكرا ـ [٣٤] ومن رواقصها وسواجعها ومكللة الرؤس ومزينة الريش كأنها كسيت يواقيت وتبرا ـ [٣٥] هدهداً وطواويس وقُمراً ـ [٣٦] وصلصلا وحماما خُضرا ـ [٣٧] فكل يحمد الرب وكلّ قد علم صلاته وتسبيحه ذبرا.

[٣٨] والحمد لله الذي حسر الماء عن وجه الأرض فجمعه بحرا [٣٩] وخلق فيه سمكاً ذوات زعانف وجُردا وما ألبسها عظماً وما ألبسها قشرا ـ [٤٠] سلاحف وتماسيح تشمس على الرمال إذا أحست قرا [٤١] وما يمج مرجاناً وما تجن في بطونها درا ـ [٤٢] وما تخرج عنبراً فيدسره البحر دسرا ـ [٤٣] وكثيرا مما يسكن من اليم قعراً ـ [٤٤] فلا ينسى الرب هؤلاء فيدرّ رزقه على جميعهم درّا.

[٤٥] والحمد لله الذي أجرى في البحر فلكا تشق لججه مخرا ـ [٤٦] تحمل الناس ليروا من آيات الله ويربحوا تجرا.

[٤٧] والحمد لله الذي أرسل الرياح لواقح بين يدى رحمته بشرا ـ [٤٨] فأنشأ بها سحاباً متراكماً مُكفهرا ـ [٤٩] يريكم البرق فيه خوفاً وطمعاً ويسمعكم الرعد منه يسبح بحمده زمرا ـ [٥٠] نزل أمر الرب فعصر السحب عصرا ـ [٥١] فأرسلت ودقها قطرا ـ [٥٢] وسكبت مطراً ثرا ـ [٥٣] فأجراه على الأرض نهرا ـ [٥٤] وسلكه في بطونها ينابيع غزرا ـ [٥٥] فأحيى به بلداً قفرا ـ [٥٦] وأنبت به الزرع والخضر والنجم والشجر رزّا وشعيراً وبُرا ـ [٥٧] وقضباً وعنباً وتيناً وزيتوناً ونخلاً تحمل تمرا ـ [٥٨] رزقاً لعباده ودلالة على سعة رحمته وحكمته التي تدهش العقول بهرا.

[٥٩] فسبحان من نظّم الخلق من السماء إلى الأرض بنظام متقن لا ترى فيه تفاوتاً ولا فطرا ـ [٦٠] نفذت كلماته في السموات فخضعت لها الملائكة الصافين الزاجرين زجرا ـ [٦١] المسبحين التالين ذكرا [٦٢] الطائعين لما يأمرهم به فلا يعصون له أمرا ـ [٦٣] خاشعين لربهم فلا يسبقونه بالقول فزعاً وذُعرا ـ [٦٤] من مثل ربنا أو من يخلق كخلقه ـ

كلا لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له بل لن يخلقوا ذرا [٦٥] فمن يستطيع أن يُحصي عجائب حكمته حصرا ـ [٦٦] كلا لن تحصى ولو جُعل الأشجار أقلاماً وحُوّل اللوح لوحاً و بدّل البحر حِبرا.

[٦٧] فتبارك ربنا رحمة وبرّا [٦٨] كما تعالى وتقدس عزة وكبرا ـ [٦٩] له الخلق والأمر فيحكم ما يريد نهياً وأمرا ـ [٧٠] له الملك والقدرة فلا يملك أحد دونه نفعاً ولا ضرا ـ [٧١] أحاط بكل خلق علماً وخُبرا ـ وأحصى كل شيئ عدداً و قدرا.

[٧٢] هو الرحيم الكريم خلق الإنسان في أحسن تقويم فأعطاه سمعاً وبصراً وحجرا ـ [٧٣] وعرّف له عرفا ونكرا ـ [٧٤] ونفخ فيه من روحه فأعظم له شبرا ـ [٧٥] وجعله خليفة في الأرض فسوّاه بشرا حُرا ـ [٧٦] ليعبده اختياراً لا إكراهاً وجبرا ـ [٧٧] ميسراً له ما آثر لنفسه يسراً أوعسرا [٧٨] يزيد هدى من اتقى وأخذ حذرا ـ [٧٩] ومتاعاً من الدنيا لمن أخلد إليها وجحد بالآخرة عتواً وكفرا ـ [٨٠] كلا يمد هؤلاء وهؤلاء فلم يجعل لعطائه حظرا.

[٨١] هو الغفور الشكور فوسع لهم عفوا وغفرا ـ [٨٢] وذكرهم بآياته عذراً أو نذرا ـ [٨٣] ومتعهم نعمة منه وأمهلهم عمرا ـ [٨٤] ليتوبوا إليه فيعظم لهم أجرا ـ [٨٥] ويبدل سيآتهم حسنات ويجازى على الواحدة منها عشرا ـ [٨٦] بل أضعافاً لا تستطيع لها حزرا.

[٨٧] قائم بالقسط فيجمعهم نشراً وحشرا ـ [٨٨] ليريهم ما قدموا لأنفسهم خيراً أو شرا ـ [٨٩] يثبت لهم ما زرعوه بذرا ـ [٩٠] فيحصدون بما عملوا فوزا أو خسرا.

[٩١] هو الغنى الحميد غير ظلام للعبيد فهو أكبر وأجل قدرا ـ [٩٢] من أن يضلهم من قبلُ ثم يُولّيهم إثما أو يحملهم وزرا ـ [٩٣] كلا بل خلقهم على الإسلام فطرا [٩٤] وأخذ منهم على التوحيد إصرا.

[٩٥] فهذا ثنائي لربي وهذا ما أدين به وادعو إليه جهرا ـ [٩٦] فإنه كما أثنى على نفسه فلا تتبع فيه الظنون والآراء قفرا ـ [٩٧] بل كتابه الحكيم الذي أنزله إلينا هدى وبصيرة وذكرا ـ

[98] ورسوله سيدنا محمد النبي العربي صلى الله عليه وآله صلاة تدوم وسلم
تسليماً مستمرا - [99] إلى آخر الأمد ومدى العدد دهراً فدهرا - [100] الذي أرسله رحمة
للعالمين طرا - [101] سراجاً منيراً فأشرقت بنوره الأرض بحراً وبرا - [102] مباركاً مطيباً فنشر
منه في الآفاق نشرا - [103] عطوفاً رؤفاً فقوى به الضعفاء جبرا - [104] غيوراً صبوراً فقمع به
الجبابرة كسرا - [105] بعثه بحنيفية سمحاء فأعطاه ديناً يسرا - [106] ووضع به ما كان أغلالاً
وإصرا - [107] وجعل له أمة مسلمة يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم حكمة وبرّا - أزاح
عنهم نخوة الجاهلية فلم يترك لبعضهم على بعض بَطَراً ولا فخرا - [108] إخوة أخلاء لا
يحمل بعضهم لبعض حقداً ولا وترا - [109] واختار له منهم صحباً كراماً لهاميم غرا -
[110] أشد لله حباً و أوفى ذمة وأكمل صبرا - [111] فأخلصوا لربهم منهم سرا - [112] وشدوا لنبيه
أزرا - [113] وأعزوا لدينه نصرا - [114] فأقر الله بهم الصالحين عيناً وأضحك لهم ثغرا - [115] وأهان
بهم الظالمين وملأ صدورهم وغرا - [116] واستخلفهم متمسكين بكتاب الله وسنة رسوله
فرضى الله عنهم ونضر وجوههم نضرا -

[117] ثم تلاهم قرن يأثرون العلم عن أولئك أثرا - [118] وهلم جرا - [119] إلى أن خلف من
بعدهم خلف لم يحملوا من حكمة القرآن ومعجز بيانه إلا نزرا - [120] فلا تجد في أيديهم
من الصحابة ولا التابعين إلا تفسير الكلمات أشتاتاً لا يأطرون على روابط المعاني
أطرا - [121] فأين العلم الذي كان يفيض به ابن عباس فيزخر به عبابه زخرا - [122] أم أين
الحكمة التي يلقيها الحسن إلى النفوس فيزجرها بها زجرا - [123] هيهات لما فات
واستبدلوا به من الإسرائيليات مالا تجد لها في الصحاح أصلا ولا جذرا - [124] واشتغلوا
من سفاسف الأمور بما صار حجاباً دون تدبر القرآن وحجرا -

[125] ثم تلاهم آخرون قد نفثت اليونان في قلوبهم رقاها فسحرتهم زخارف
أقوالها سحرا - [126] وراقهم ما يتعمق به الفلاسفة سفها وما يتشدق به المناطقة هذرا -
[127] فاختلفت بهم الآراء وعميت عليهم الأنباء ففسروا القرآن بالرأى فسرا - [128] ورفع كل

ذى رأى راية وأخذ كل فريق آية وشجر الأمر بينهم شجرا -

[129] ولن تجد لغفلة هؤلاء أو ضلة هؤلاء سببا إلا أنهم جعلوا القرآن عضين
وجزروا نظمه الحكيم جزرا - [130] وقد أنزله الله متشابهاً مثاني يفسر بعضه بعضاً،
ومحكماً قيما لا عوج فيه ولا بترا - [131] وهل يرشد في مساق تأويله من يجهل اتساق
تنزيله - كلا بل يعثر في كل خطوة عثرا - [132] ولا ينبئك مثل خبير، إني قد
تصفحت كتب التفسير وسبرتها سبرا - [133] فما وجدتها إلا كسراب بقيعة يحسبه
الظمآن ماء فلم تبرد غلتى بل زادت قلبى حرا - [134] وملأت كبدى جمرا.

[135] ففزعت إلى تدبر كتاب الله وسعة معانيه وتركت أقاويل الناس هجرا -
[136] وكان بداية أمرى أنى بينما كنت أجيل الطرف في نجوم الآيات إذ أضاء لى في
أفقها الأعلى سلك نظامها مثل الخيط الأبيض من الصبح فما ازداد إلا سطوعاً
وجهرا - [137] فكشف الحجاب عن فوادي أو طحر قذى عن عينى طحرا - [138] فأبصرت
قصدي وتبينت رشدى وصرت أعمل في أساليب نظامها وأعاجيب رباطها فكرا -

[139] وقضيت على ذلك عصرا - [140] ومن أحسن عمرى شطرا - [141] حتى ولّى الشباب
ظهرا - [142] وأذاقنى المشيب طعماً مرا - [143] وكرت على الأسقام والأوجاع كرّا - [144] ولامنى
الصديق ونظر الحقود إلىّ شزرا - [145] بأنى قد ركبت وعرا - [146] وتوليت أمراً إمرا - [147] ولكنى لم
أزل مشتغلا بخصيصاى لا أقصر عنها قصرا - [148] كأنّ أمرا من السماء يسوقنى إليها
قسرا - [149] لا أدرى لعل الله وجد المسلمين في عمياء مظلمة فأراد أن يرفع عن خرائد
القرآن خدرا - [150] وأراد أن يصلح آخر هذه الأمة بما أصلح به أولها فشرح من بعضهم
لفهم كتابه صدرا - [151] ولولا هذا الرجاء لما اقتحمت من هذا الخضم غمرا - [152] ولولا
حديث الأحلام لما تصديت لأمر لو نزل على الجبال لهبطت لعظمته خرا - [153] فتوكلت
على الله﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل
شئ قدرا﴾.

[١٥٤]فإن شاء ربي سيجلي لنواظرك من نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان سفرا - [١٥٥]بديعاً في خصائصه بكرا - [١٥٦]تجد أسفار القوم عن معظمها صفرا - [١٥٧]كاشفاً لك عن بديع نظام القرآن سترا - [١٥٨]متمسكاً بآياته في التأويل فكأني نذرت نذرا - [١٥٩]أن أتمسك بآيات الله ونظامها فلا أجاوز عنهما شبرا - [١٦٠]ناشراً بين يديك حبراتٍ من معجز بلاغته نشرا - [١٦١]مطلعاً بك على ذروة الحكمة التي تعجز الحكماء دونها بهرا - [١٦٢]معتصماً بأصول راسخة للتأويل يذعن لها أولو النهى إلا غُمرا - [١٦٣]منتحياً لتأويل واحد فتاركاً كل رثّ واهنٍ وآخذاً ما كان محكماً ممرّا - [١٦٤]مجتنباً غلواً في الدين فلم أكن متخذ الباطنية بطانة ولا الظاهرية ظهرا - [١٦٥]مفارقاً من لم يفرق بين سنة الله وسنن المخلوقات فكذّب ببينات القرآن وحرّف آياته زورا ومكرا - [١٦٦]قائلا للمبتدعة كلهم حجرا - [١٦٧]وللملحدين جميعهم بهرا -

[١٦٨]ذلك، وقد تبرأت من حولي وقوتي إلى توفيق ربي فما أشدنا إليه فقرا - [١٦٩]اللّهم ربنا لا تواخذني بما نسيت أو أخطأت فأنت الغني الحميد، وأنا عبدك الحقير الفقير فلا ترهقني من أمري عُسرا - [١٧٠]واجعل اللّهم ربنا عملي خالصاً لوجهك واجعله لي في الآخرة وسيلة وذُخرا.

***

تفسير سورة البقرة



عنوانات التفسير سبعة

(١) المقدمة

(٢) والكلم

(٣) والنحو

(٤) والبلاغة

(٥) والتأويل

(٦) والتدبر

(٧) والنظم

أما المقدمة ففي أمور كلية من عمود السورة ومطالبها، و مواقع نزولها، ووجه خطابها، وترتيب أجزائها.

وأما الكلم ففي معنى الكلمة ومادتها وصورتها. والاستدلال فيه بالقرآن وكلام العرب.

وأما النحو ففي تأليف الكلمة. والاستدلال فيه بالنظائر وحسن التأويل.

وأما البلاغة ففي دلالة الأساليب على معان تناسب المحل.

وأما التأويل ففي حمل الكلام على مراده حسب المحل. و في ذلك معظم الاستدلال بالقرآن وكلام العرب.

وأما التدبر ففي ذكر المبادئ والنتائج، أي اقتضاء النص وإشارته. والاستدلال فيه بصريح العقل وكتاب الله.

وأما النظم ففي بيان موقع جملة من الكلام وربط بعضها ببعض.

المقدمة وفيها عشرة فصول

١ـ حقيقة السورة ونسبتها بالفاتحة وسورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أن سورة البقرة وجه القرآن كما أن الفاتحة غرته، وهذه إكليله كما أن تلك درته . فإن هذه السورة تجلى أسارير هذه البعثة وأسرارها، وقبلة هذه الملة وسرّه دارها . ثم تهدى إلى أس الديانة ومحورها ومخ الشريعة وجوهرها. وبعبارة أخرى هي تمام النبوة وكمالها، كما تمنى إبراهيم عليه السلام حين دعا ربه فقال: ﴿رَبَّنا وابْعَث فِيهِم...﴾ فأجابه حسب هذا الدعاء وبعث رسولاً متصفاً بتلك الصفات الأربع، وجعل هذه السورة مرآة له ولأمة مسلمة دعالها إبراهيم عليه السلام ، وجعل الإيمان به حقيقة الإيمان. فإن المراد بالإيمان هو الإيمان بالنبوة، فإن ذلك هو جماع الإيمان وصحته، كما هو مبسوط في محله. فهي تحقيق الإيمان الذي هو أول فرع الإيمان الفطرى المبنى على الحمد والشكر والإنابة.

وبالجملة فهي تفسير لفاتحة الكتاب، وبيان لكلمة التوحيد، وشرح للصراط المستقيم، و إجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام. وسيأتيك بيانه في الفصل التاسع إن شاء الله تعالى.

ولما كانت سورة الفاتحة جامعة لمطالب القرآن على غاية الإيجاز والإحكام، وتمهيداً للكتاب بتمامه كما سبق، أتبعها سورة تفصل تلك المطالب. فإن التفصيل بعد الإجمال هو الأسلوب الأوفق بالتعليم، وهو المرعي في القرآن، كما قال تعالى: ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه، ثمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خبيرٍ﴾(١) بل هو المرعى في تنزيل الكتب كلها. فإن المتأخر إنما جاء بتفصيل ما تقدم حتى جاء القرآن مفصلاً

(١) سورة هود :١

للكتب السابقة بأسرها.

فأما كون هذه السورة جامعة مفصلة لمطالب الكتاب، فلأنها تشتمل

(١) على حقيقة الإيمان وأصول أدلة التوحيد والنبوة والمعاد.

(٢) وعلى تفاصيل العقائد وهي الإيمان بالله، وملائكته وكتبه و اليوم الآخر، وبصفاته تعالى من العلم والقدرة والعدل والحكمة والرحمة والربوبية.

(٣) وعلى أصول العبادات من الصلاة والزكاة والصوم والحج.

(٤) وعلى أصول السياسة من الخلافة والجهاد والسلم والطاعة وحفظ النفوس والأموال.

(٥) وعلى أصول التمدن من حقوق النساء واليتامى، والبيع والتداين.

(٦) وعلى أصول الآداب من المداراة والفضل والتعفف، واجتناب الأرجاس من الخمر والميسر وغيرهما.

ومما ذكرنا يتبين موقعها في أول الكتاب بعد الفاتحة . وأما موقعها قبل سورة آل عمران، فلكونهما مشابهتين، غير أن فصل في الأولى جانب العلم و في الثانية جانب العمل مع الاتحاد في المطالب، كماسيتضح بعد النظر في تفسير تلك السورة. ولذلك جمعهما النبي صلى الله عليه وسلم في الوصف بأنهما الزهراوان، وأنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان [1]، أي ببركة وسيعة باسطة الظل على المؤمنين، وجمعهما في صلاة. وتارة قرأ آيتين منهما في ركعتى الفجر - آية الكرسي في الأولى، وآية الإسلام في الثانية. فكما أن هذه السورة أولى السور بالفاتحة، فكذلك سورة آل عمران أولاها بهذه السورة. ولتقديم هذه على تلك وجوه:

الأول - أن هذه سورة الإيمان وتلك سورة الإسلام، كما دل عليه النبي

---

(١) الحديث ، أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة. رقم الحديث : ٨٠٤ وانظر تفسير ابن كثير١ :٣٢- ٣٣

صلى الله عليه وسلم بما قرأ آيتين منهما في صلاة الفجر، وبذلك دل على مخهما. وقال عليه السلام لكل شئ سنام ولكل سنام ذروة، وسنام القرآن سورة البقرة، وذروته آية الكرسي[1]. فدل على محل هذه السورة، ومحل الإيمان والتوحيد.

والثاني – أن في هذه معظم الاحتجاج على اليهود، وفي تلك على النصارى. والحجة على اليهود هي مفحمة للنصارى أيضاً، فهي أوسع. وإنما تلك رد، وتفصيل لبعض ما أجمل ههنا.

والثالث - أن هذه سورة بدر، كما أن تلك سورة أحد . وكان يوم بدر فتحاً وفرقاناً، كما قال تعالى: ﴿يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾[2] وكان يوم احد ابتلاء وتطهيرا.

والرابع - أن الغلبة أولى بموسى عليه السلام، والابتلاء بعيسى عليه السلام. فما كان خطاباً باليهود جعله لواقعة بدر، وما كان خطاباً للنصارى جعله لواقعة أحد. فلهذه الوجوه قدم ما هو أقدم وأوسع نزولاً ومنزلة. وسنرجع إلى تفصيل بعض هذه الأمور في مقدمة السورة التالية إن شاء الله تعالى.

٢ـ موضوع السورة وغايتها

اعلم أن هذه السورة جمعت عيون مطالب القرآن، كما قدمنا. فإن شئت

---

(١) كذا في الأصل. وقال المؤلف في الحاشية:" لم أذكر اللفظ فنصححه". ولعله يقصد الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ولكل شئ سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن: آية الكرسي". وفيه حكيم بن جبير وهو ضعيف، وفي مسند أحمد عن معقل بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: البقرة سنام القرآن وذروته... ويس قلب القرآن......، وانظر تفسير ابن كثير١ : ٣١

(٢) سورة الأنفال : ٤١

أن نعبر عن عمودها بكلمة واحدة قلنا إنها إنجاز لعهد الله تعالى بخليله إبراهيم عليه السلام. وهذا العهد هو الجامع لحقيقة هذا الدين، فإن الخليل عليه السلام أقام ذريته في مركز التوحيد ودعا الله أن يبعث فيه نبياً وأمته على أكمل صفات الأنبياء والأمة، ووعده الله أنه يبارك به وبهم جميع الأرض. فأنجزما وعد له ببعثة هذا النبي وأمته، وجعل بناء هذا الأمر على الصبر والصلاة ـ وهما قاعدتان للدين الإلهي، وبهما كمل إبراهيم عليه السلام وصار إماماً.

وعند كمال ظهور هاتين الصفتين نزلت هذه السورة، فكانت هي أكبر مظهراً لحقيقة هذه البعثة. ولذلك سماها النبي صلى الله عليه وسلم سنام القرآن، كما مر. وعند نزولها أظهر الله تعالى إنشاء أمة جديدة، وجعل صرف القبلة آية على ذلك وفرقاناً لهم. ومن أي جهة نظرت إلى هذه البعثة وجدت التوحيد أصلها، ووجدت المسجد الحرام مركزها، ووجدت القرآن مطابقاً بهذا الأصل. ولذلك تجد سورة الحج قد وضعت في وسط القرآن وجمعت فيه أبواب تنظر منها إلى حقيقة هذا الدين.

وإني أتلو الآن منها طرفاً كبيراً ليدل على ما ذكرنا من عمود هذه السورة، وأصول مطالبها وفروعها، وما يجب علينا من بذل النفوس والأموال للمحافظة عليها والذب عنها ـ فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً أحسن تفسير. فقال الله تعالى في سورة الحج: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ. لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ. ثُمَّ لْيَقْضُوا

تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ. ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ. حُنَفَاءَ لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ . ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ. لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ. وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ. الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ. أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ. وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ. وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ. وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ. فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ. أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن

تَعمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ. وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ. وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَ إِلَيَّ الْمَصِيْرُ. قُل يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيْرٌ مُّبِيْنٌ. فَالَّذِيْنَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيْمٌ. وَالَّذِيْنَ سَعَوْاْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِيْنَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيْمِ﴾(١)

ثم جاء بذكر هؤلاء الساعين حتى رجع الكلام إلى عموده، فقال:﴿وَالَّذِيْنَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيْلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُواْ أَو مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِيْنَ. لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيْمٌ حَلِيْمٌ. ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيْعٌ بَصِيْرٌ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُوْنِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيْرُ﴾(٢).

ثم ذكر من صفات الله تعالى حتى رجع الكلام، فقال: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ. وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(٣).

ثم ذكر من صفات الله ما يليق بالمقام من تفرده بالحكم واصطفائه الرسل حتى رجع الكلام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَجَاهِدُواْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ

(١) الآيات : ٢٥-٥١

(٢) الآيات ٥٨- ٦٢

(٣) الآيات : ٦٧- ٦٩

عَلَيْكُمْ فِي الدِّيْنِ مِن حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيْكُمْ إِبْرَاهِيْمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِيْنَ مِن قَبْلُ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيْداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيْمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُواْ بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيْرُ﴾(١).

فاعلم إني ما أوردت هذه الجملة بعينها إلاّ لكى يتبيّن لك حقيقة بعثة نبينا وكنه ملة إبراهيم، وكل ما تراه في سورة البقرة -

١- من ذكر بناء الكعبة

٢- ودعاء إبراهيم أن يجعل مكة بلداً آمناً، ويرزق أهله، ويريهم مناسك العبادة، ويبعث فيهم رسولاً يتلوا عليهم آياته ويُعلّمهمُ الكتابَ والحكمةَ ويزكّيهم .

٣- وما ذكر من إجابة هذا الدعاء في نبيّنا عليه الصلوات.

٤- وما ذكر من فرض الجهاد على من أخرج النبي والعقاب عليهم بمثل ما فعلوا، وإطفاء الفتنة، وإقامة السلطنة لحفظ النفوس والأموال والحرية، ودخول الناس في السِّلم كافة.

٥- وما ذكر من أن دينهم ليس فيه حرج، وهو أصل دينهم ، وهو صبغة الله.

٦- وما ذكر من نصر الله فئته، ودفع الله الناس بعضهم ببعض لحفظ مقامات ذكره وعبادته.

٧- وما ذكر من أن الصّلاة والزكاة والاعتصام بالله والحج لبيته أصل الغاية في الدين ومنبع جميع الخيرات.

٨- وما ذكر من وجوب القيام به والشهادة له والاحتساب عليه وبذل النفوس والأموال فيه.

(١) الآيتان : ٧٧ - ٧٨

٣ـ مطابقة الوقائع بهذه الغاية

وبعد ما تبين لك هذا فانظر كيف كان تدبير الله في هذا الأمر العظيم. فترى أن النبي عليه الصلوات لما بعثه الله تعالى أمره بالصلاة، والتوحيد، والصدقة، والصبر كما قال: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾(١). فجعل الصَّلاة والزكاة والصبر أول الأحكام بعد التوحيد. وهكذا نرى في بعثة موسى عليه الصلوات، حيث قال تعالى في سورة طه: ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى. إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾(٢) وهكذا قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣). فكان النبي عليه الصلوات يفعل ذلك بالصبر والعزم على أذاهم، وصدهم عن الصَّلاة، كما جاء في سورة اقرأ :﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى. عَبْداً إِذَا صَلَّى. أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى. أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى. أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى. أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى. كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ. نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾(٤). فكان عليه الصلوات ينذرهم ويدعوهم باللين وفصل الخطاب إلى ملة إبراهيم، ويذكرهم أن الله تعالى حمى البيت المحرم عن أصحاب الفيل وجعله سبباً لإلافكم ورزقكم وأمنكم، فاعبدوا رب هذا البيت ولا تشركوا به. فلم يطيعوه، و لم يسمعوه، وكفروا بنعمة الله حتى أخرجوا نبيهم عن داره.

---

(١) سورة المدثر: ١-٧

(٢) الآيتان : ١٣-١٤

(٣) الآية : ٨٧

(٤) الآيات : ٩-١٦

فلما هاجر عليه السلام إلى المدينة المكرمة كان أكبر همه استخلاص الكعبة وتطهير البيت المحرم ورد الملة الحنيفية إلى أصل حالها. فأمر الله تعالى بالقتال، كما جاء في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ (أي إكراه الناس على ترك دينهم) أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾(١). فذكر الله تعالى هذه الأمور ليتضح لهم أن الكفر بالله، والصد عن مسجده، وإخراج المؤمنين عنه، وفتنتهم عن دينهم، وإبطال الحرية فيه أكبر عند الله.

ثم كان أكبر همه استخلاص الكعبة لوجه أخص من ذلك . والآن نبينه وقد سبق إليه الإشارة في آخر الفصل الثاني، وكان ذلك أول الأمر وغاية البعثة خاصة ولكن أمر الله بالصبر حتى تتمّ الحجة وفريضة العظة والدعوة .

٤ـ جماع هذه الغاية استخلاص الكعبة

فاعلم أن الله تعالى عهد إلى إبراهيم و إسماعيل تطهير الكعبة، كما قال في سورة البقرة:﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(٢) فلزم هذا العهد على وارث إسماعيل، كما جاء في سورة النمل: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(٣). وهكذا كان العهد بجميع المؤمنين، ولذلك كتب

---

(١) الآيتان : ٢١٦-٢١٧

(٢) الآية : ١٢٥

(٣) الآية : ٩١

عليهم القتال. فإن إبراهيم عليه السلام كما دعا لوارث يعلمهم الكتاب والحكمة، فكذلك دعا لأمة وارثة وسمّاهم جميعا المسلمين، حيث صرح به في سورة البقرة: ﴿رَبَّنا واجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ الآية[1]. ألا ترى كيف أبطل الله تعالى ولاية المشركين وأثبت ولاية المؤمنين، حيث قال في سورة الأنفال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾[2] وقال في سورة التوبة: ﴿يا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا﴾[3] فأمرهم أن لا يدعوا المشركين أن يقربوا بيته المحرم. فلم يذهب النبي عليه الصلوات من الدنيا حتى تم هذا العهد. ففتح الله له مكة وأورثها أمة اجتباها للإسلام، فأنجز ما وعد به إبراهيم عليه السلام. وهذا إيراث حزبه للبقاع المقدسة من سنته تعالى. وتفصيل هذا البحث في تفسير سورة الأنبياء تحت آية: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[4].

والمقصد أن يقيموا الصلاة، كما مر فيما تلونا من قوله تعالى: ﴿الَّذِيْنَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[5] وفي ذلك آى أُخر. وقد صرح إبراهيم عليه السلام بذلك في دعائه،

(١) الآيتان : ١٢٨- ١٢٩

(٢) الآية : ٣٤

(٣) الآية : ٢٨

(٤) الآية :١٠٥

(٥) سورة الحج : ٤١

وفي بيان مقصده من الهجرة إلى هذه البقعة. ففي سورة إبراهيم، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[1]. ثم ذكر شناعة الأصنام حتى قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيْمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيْ إِلَيْهِمْ (هذا دعاؤه للحج) وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُوْنَ﴾[2]. ثم أثنى على الله تعالى وأحسن الطلب حتى قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيْمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾[3].

فلهذا العهد الخاص الواجب كتب الله على المؤمنين استخلاص البلد المحرم الأمين، و دفع الذين صدوا عن سبيل الله والصلاة في مسجده وأخرجوا الركع السّجد عن دارهم، لمحض أن قالوا ربنا الله ونبذوا شركاءه. وليصمموا إليه ولوجوه أُخرجعله قبلتهم ـ وهو القبلة الأولى. وإنما أخر هذا التحويل إلى هذا الزمان لمصلحة ذكرتها، فإنه هو بيته العتيق، فحينئذ جعلهم أمة على حدة، وههنا نشأ حزب خاص لله تعالى، وصار للنبي عليه السلام دار وأتباع ـ وهما من شروط القتال، كما هومبسوط في موضعه. ذلك، وأشار إلى مثل هذا الأمر فيما وقع لبني إسرائيل، ولنذكره مقتصراً على خلاصة الأمر فيه.

٥ ـ مطابقة ذلك بما وقع لبني إسرائيل

فاعلم أن بني إسرائيل لم تكن لهم قبلة إلى عهد داود بل إلى عهد سليمان عليهما السلام غير تابوت السكينة الذي يحملونه ويضعونه في الخيام (انظر تفسير

(١) الآية : ٣٥

(٢) الآية: ٣٧

(٣) الآية : ٤٠

سورة الفيل) وحين أخذ الفسلطينيون التابوت عنهم سألوا نبيهم أن يجعل لهم ملكاً يقاتلون معهم، كما قال في سورة البقرة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾(١) فجعل نبيهم صموعيل طالوت ملكاً عليهم. وقد علمت الصحابة أنهم يوم بدر مثل أصحاب طالوت وأن عددهم كعددهم . فكان هذا مثلا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم حين أخرجوا من مكة، وذكر الله تعالى كيف نصرهم مع قلة عددهم، وأنّ ذلك لدفع الفساد عن الأرض وإقامة السلم والصلاح بالوحدة والعدل والإحسان، كما صرح به حين كتب عليهم القتال بقوله في سورة البقرة:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾(٢)، وهكذا حين ذكر القتال في سورة محمد، قال: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾(٣).

فكان النبي عليه الصلاة يحث المؤمنين على استخلاص الكعبة ويدعوا الناس إلى السلم وحكومة إلهية. ومع ذلك يرشحهم بالحكمة والشرائع ليكونوا مستحقين لوراثة بيت الله وأمانته، ويصيروا كنفس واحدة، ويكونوا شهداء لله على الناس أي خلفاءه، حيث قال في سورة البقرة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (أي كما جعل قبلتكم وسطاً) لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾(٤). وتفصيل هذا العهد على الأمة مذكور في سورة آل عمران، ونورد

(١) الآية : ٢٤٦

(٢) الآية : ٢٠٨

(٣) الآية : ٣٥

(٤) الآية : ١٤٣

ههنا نبذة منها لتعلم ترشيح النبى أمته، ولتعلم التدبير الإلهي في هذا الأمر المهم.

٦ـ نقطة هذه الغاية هي الوحدة القائمة في الله

ذكر الله تعالى في القرآن كثيراً من اختلاف أهل الكتاب واقتنائهم، وحذر المؤمنين عنه تحذيراً شديداً. وذلك لأن مقصد الشريعة بعد التوحيد هو الرحمة والمواساة، والاختلاف أول حبائل الشيطان الذي يقود بها الأمم إلى تيه الضلالات. عقد سورة آل عمران خاصة لهذا التعليم، وجعل استحقاق الخلافة بالاتحاد وهي التزكية التي دعا لها إبراهيم عليه السلام. وأخبر الله عنها كثيراًبأن هذا النبى يعلمهم الكتاب (أي الشرائع) والحكمة(أي أصل المكارم) ويزكيهم (بتطهيرهم عن كل رجس ويجعلهم نفساً واحدة. وسيأتيك بيانه في تفسير هذه السورة). والتزكية هي جماع الشرائع. فأعطانا الله في هذه سورة البقرة من الأحكام السياسية والمدنية ما يرفع الخصام، ويؤتى السلم، ويطهرنا ويزكينا.

ولتعلم ربط هذا بأمر البعثة والبيت المحرم نتلو عليك بعضاً من سورة آل عمران. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ(أي دلائل وإمارات على كونه أول بيت وضع للناس) مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً، وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(١).

ثم ذكر سعي أهل الكتاب في إغوائهم المؤمنين حتى تكونوا مثلهم فحذّرنا. ثم قال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ. وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً

(١) الآيات :٩٥-٩٧

فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ (التي هي أصل العداوة والافتراق، وتبينت العرب أن الحرب نار وأكثروا التعبير عنها بها، فنار العداوة شعبة كبرى من نار جهنم) فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ. وَلْتَكُن مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ. (هذا هو بيان فرائض منصب الشهادة الذي أعطاه الله هذه الأمة) وَلاَ تَكُوْنُوْا كَالَّذِيْنَ تَفَرَّقُوْا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(١). ثم ذكر سوء منقلب أهل الكتاب لما أضاعوا أمر الشهادة وهم كانوا شهداء. ثم رجع إلى وصف منصبهم، فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ﴾(٢).

فهذا بيان معنى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(٣)، وهكذا سُنّة الله تعالى يجتبي قوما من بين الأقوام حسب حكمته وعدله، فينصبهم شهداء على الناس ويحملهم أمانته. فإن أوفوا بالعهد أنعم عليهم بالملك والنصر إلى أن ينكثوه، فإذا يحل بهم الخذلان. وهذا مذكور في أكثر سور القرآن، وصرح به في التوراة. راجع سفر الخروج (١٩: ٥-٦)(٤).

---

(١) الآيات: ١٠٢-١٠٥

(٢) الآية: ١١٠

(٣) الآية: ١٤٣

(٤) وفيه: "فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خالصة من بين جميع الشعوب، فإن لي كل الأرض. ٦وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة. هذه هي الكلمات التي تكلم بها بني إسرائيل"

٧ـ المطابقة بين أحوال النبي وهذه الغاية

فصَرف النبي عليه السلام عليهم برهة من الدهر يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم بما يصلحهم لحمل هذا العبء الثقيل، ويحذرهم عن فتن أهل الكتاب وسيآت أعمالهم. ولما صاروا شهداء لله وأمناء لعهده و أولياء لبيته فتح له مكة، وجعلهم وارثين ومكن لهم في الأرض. فصاروا خير أمة وصدق فيهم مثلهم في التوراة والإنجيل، كما قال تعالى في سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُوْلُ اللهِ وَالَّذِيْنَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُوْنَ فَضْلاً مِنَ اللهِ (أي الملك والخلافة والنصر على الكفار، ليتم أمر محبة الله والخلق معاً، ويكونوا إخواناً في الله) وَرِضْوَاناً، (أي الجنة التي هي تابعة لهذه الحال، وهي عبارة عن ملكوت الله الذي كثر ذكره في الإنجيل. انظر تفسير هذه الآية في سورتها) سِيْمَاهُمْ فِي وُجُوْهِهِمْ مِن أَثَرِ السُّجُودِ. ذَلِكَ مَثَلُهُم فِي التَّوراةِ وَمَثَلُهُم فِي الإِنْجِيْلِ، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾(١). ثم رجع إلى ذكر الوعد وحوّله إلى حسن العمل. فصارت غلبتهم شهادة على كونهم مجتبين من حيث الأمة، فإن الملك والنصر يعطى للمجموع، وأما الأفراد فيجازون حسب أعمالهم. فإن بعضا من الأمة المفضلة آثم، كما أن بعضاً من المخذولين مرحوم، كمؤمن آل فرعون. فقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيْماً﴾(٢).

وهذا الذي قلنا من لزوم النصر والغلبة للمؤمنين، والخذلان واللعن للناكثين مسألة عظيمة، كما بيناها في كتاب ملكوت الله(٣). وخلاصتها أن الأمة المنصوبة

---

(١) الآية: ٢٩

(٢) سورة الفتح: ٢٩

(٣) نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٩١هـ

يحاسبها الله تعالى في الدنيا. والنظر في أحوال اليهود، وشهادات التوراة والقرآن لا يدع شكاً في ذلك.

فلما فتح الله مكة وجاء النصر الموعود وقد أكمل دينهم، أوفى النبي بذمة رسالته وأصاب غرض بعثته، فحان له الرحيل إلى ربه. وهذا كان معلوماً لعلماء الصحابة. ألا ترى حين نزل ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُوْنَ فِي دِيْنِ اللهِ أَفْوَاجاً﴾(١) عرف من عرف أنها تنعى بالنبي، لماأنهم علموا أن لكل شيء أجلاً وغاية، وأن الرسالة قربت من مقصدها، وذلك فتح مكة ورد الحنيفية إلى أصلها.

٨ ـ مطابقة السورة بزمان نزولها

ذلك، وقد مررت عليه كمر الريح السريع،ولكن إن تفكرت في آيات أوردتها وقابلتها بآيات هذه السورة اتضح لك أن استخلاص الكعبة وتطهيرها كان غرض البعثة، وأن الصلاة كانت كالمركز والنقطة في هذا الغرض، وأن ذكر الله وحبه والمواساة بالخلق وإصلاحه كالروح والسر فيه، وأن الحج والمملكة الدينية صورته، وأن الأمة كانت حاملة لعرشها، فاجتباهم الله شهداء، وأوفى الله بهم العهد كما أنهم أوفوا بعهده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِيْنَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوْا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَوةَ وَأَمَرُوْا بِالْمَعْرُوْفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(٢). فصاروا حزب الله المخلصين، كما وصفهم في سورة المجادلة حيث قال: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَآدُّوْنَ مَنْ حَآدَّ اللهَ وَرَسُوْلَهُ وَلَوْ كَانُوْا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيْرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوْبِهِمُ الإِيْمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوْحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ

(١) سورة النصر: ١-٢

(٢) سورة الحج: ٤١

وَرَضُوْا عَنْهُ،أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ﴾(١).

وقد لمحت مخائل هذه الأوصاف بالهجرة، فإنهم لما هاجروا إلى الله صاروا بشهادة ربهم من الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه. فيا لمنصب المهاجرين وحزب الله المفلحين. ثم تبينت هذه الصفات يوم بدر حين قاموا للجهاد عن بيضة الإسلام، وبذلوا مهجهم لربهم بعد ما تركوا الأهل والمال بالهجرة، فصاروا قرابين لله على سنة أبيهم وإمامهم. فجعلهم الله أولياء بيته وورثة عهده، وبارك بهم الأمم، كما وعد خليله. وسنذكره في تفسير هذه السورة.

فهذه السورة وافقت الهجرة وواقعة بدر تنزيلاً كما وافقتهما تأويلاً. فكما كانت الهجرة ظهور طلع الإسلام ومنها فتقت أكمامه، وكما كان يوم بدر غرة هذا الدين وفيه رفعت أعلامه، فهكذا سورة البقرة معظم القرآن وسنامه، كما مر من قول النبي عليه صلاة الله وسلامه .

٩ـ مطابقة السورة بأحوال المخاطبين

مما قدمنا في الفصل السابق يتبين أن زمان نزول هذه السورة قد اشتمل على حالات ومقتضيات خاصة . فإذا نظرنا إليها اتضح لنا وجوه الخطاب فيها، والآن نذكرها بغاية الإيجاز .

فاعلم أن في هذه السورة خطاباً بالرسول، وبالمومنين، وبأهل الكتاب أي اليهود، وبكافة الناس.

١ـ أما إلى النبي، فمن جهة تسليته على ترك من أصر على الإنكار حتى هاجرهم لزمان، ومن جهة إقامته معلماً لمن آمن بالله وكتبه.

٢ـ وأما إلى المسلمين، فمن جهة أن الله تعالى أقامهم أمة جديدة مستقلة

(١) الآية: ٢٢

ليكونوا شهداء لله على الناس، ويحملوا أمانة شريعته ويكملوا فيها حتى يكونوا أسوة لمن يلحق بهم.

٣ـ وأما إلى أهل الكتاب، فمن جهة أنهم لم يبق فيهم مطمع للقيام بعهد الرب، فتركوا وسلبوا أمانة الشريعة. ولكن بقي لهم أن يوفوا بالعهد الثاني وهو الإيمان بهذا النبي حتى يرحمهم الرب مرة أخرى، كما جاء كثيراً في التوراة، وصرح به في سورة الأعراف.

٤ـ وأما إلى كافة الناس، فمن جهة دعوتهم إلى التوحيد الذي هو أصل الديانة، وإلى السلم والتقوى والطاعة لربهم المنعم الرحمن الرحيم، وذلك جماع السعادات. والترتيب في هذه الخطابات حسب مقتضى نظم الكلام، وإنما ذكرنا حسب ترتيب الدرجات.

هذا، وأما بيان نظم الكلام في هذه السورة، فيأتيك في الفصل التالي.

١٠ـ النظر الإجمالي في أجزاء السورة ونظام هذه الأجزاء

اعلم أن هذه السورة جملة واحدة متصلة منظمة بعضها ببعض على غاية حسن النظام، كما سيتضح لك من تفسيرها. ولكنها مع ذلك مرتبة على ستة أجزاء: مقدمة. وأربعة أبواب. وخاتمة.

أما المقدمة، فهي جملة الكلام في إثبات القرآن والنبوة وما يتعلق بها، وذلك حقيقة الإيمان. فالإيمان عبارة عن الإيمان بهذا الكتاب الذي يتضمن الإيمان بسائر الكتب، والنبوات، وبما أمر الله ونهى عنه، وبأصول العقائد وصحاحها.

وأما الأبواب، فجاءت بالترتيب حسبما جاء نعت النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة، كما قال الله تعالى حكاية عن ذلك الدعاء: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١) وقال في إنجازدعائه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾(٢)، وقال في موضع آخر: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(٣). وفي موضع آخر:﴿هُوَ الَّذِيْ بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(٤).

ففي دعا إبراهيم عليه السلام أخر التزكية لكونها غاية، وفي إنجاز ذلك قدّمها، لنعلم أن هذا النبي جعلها أول أمره وأتمها، وإنما تتم بعد العلم والعمل. وفي ذلك إشارة إلى أن هذا النبى هو آخر الأنبياء، فإنه يفعل ما هو كمال سعادة النفس. ثم تقديم التزكية في الإنجاز تشير إلى أن هذا النبي هو النبي الذي دعا له إبراهيم عليه السلام، فإنه جعل غاية ما في دعائه أول أمره وأصل قصده، فبدأ به. ثم جعل يعلّمهم الكتاب والحكمة ليتم التزكية. وسيأتيك مزيد في توضيح ذلك.

وكما أن التزكية لها بداية ونهاية واتصال بتلاوة الآيات، فكذلك الحكمة لها بداية ونهاية تبتدأ ببداءة التزكية وتتم بتمامها.

١ـ فتلاوة الآيات تمهيد لما يتبع من التزكية والتعليم .

٢ـ وتعليم أصول الدين خطوة أولى للتزكية.

٣ـ وتعليم الأحكام هو الخطوة الثانية لها .

---

(١) سورة البقرة :١٢٩

(٢) سورة البقرة: ١٥١

(٣) سورة آل عمران :١٦٤

(٤) سورة الجمعة :٢

٤ـ وتعليم الحكمة هو الخطوة الثالثة لها، وبه تمام التزكية التي تحصل بالعلم والعمل في هذه الحياة.

فبحسب مناسبة هذه الأمور الأربع جعل ترتيب الأبواب الأربع.

فالباب الأول في تلاوة الآيات البينة والدلائل الواضحة على إثبات هذه الرسالة الموعود بها في الكتب السابقة حسب وصفه الأول، وهو قوله تعالى: ﴿رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾.

والباب الثاني في بداية التزكية، وهي الذكر والشكر، والصبر، والتوكل، والتوحيد، والتفكر،والإيمان، والأمانة، والبر، والتقوى. وذلك حسب وصفه الثاني، وهو قوله تعالى:﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

والباب الثالث فيما كتب الله عليهم من السياسة العادلة، والشرائع المطهرة، والآداب النقية التي تعين على الحكمة من جهتيه النظرية والعملية. وذلك حسب وصفه الثالث، وهو قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي الشرائع.

والباب الرابع في تحصيل الحكمة التي تحصل بإكمال الطاعة، وهي الخروج الكلي عن سلطان الشهوات ببذل النفس والمال، ورعاية المواساة، والرفق في المعاملات. وحينئذ تنجلى عن النفس كل غشاوة وتتزكي عن كل رجس، فتدخل حظيرة القدس وتطمئن في حرم الأنس، فتحي حياة عليا . وهل هي إلا الجريان بما يرضى به الرب تعالى حتى تخلص النفس عن أسر الهوى، كما قال تعالى:﴿يَأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اسْتَجِيْبُوْالله وَلِلرَّسُوْلِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيْكُمْ﴾(١).

فالأمة تحي بإسلامها لربها وبذل النفوس والأموال قرابين لله، فيبارك الله لها فيما أسلمت حسب سنة الله. فيعطيها النور البازغ والزكاة التامة والنصر والملك ليبارك بهم الأمم. هذا هوالوصف الرابع أعنى تعليم الحكمة وتحقيق التزكية

(١) سورة الأنفال: ٢٤

الثانية التالية للحكمة التي هي النعمة الكبرى والكنز الذي لا يفنى، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(١). وحينئذ تتم النعمة، ويكمل السلوك في الدنيا حسب استعداد هذه الفطرة. ثم تتم هذه التزكية في الآخرة بنظر الله تعالى إليهم، كما قال تعالى في ذكر الناكثين: ﴿وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَيُزَكِّيهِمْ﴾(٢). فدل على أن عباده المتقين يزكيهم الله يوم القيامة، كما قال تعالى:﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُوْرِهِم مِّنْ غِلٍّ إخواناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِيْنَ﴾(٣).

ومطابقة هذه أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم بنظم هذه السورة تدلك على المطابقة بين النبي ووحيه. وإلى ذلك يشير قول عائشة رضى الله عنها: " فإن خُلق نبى الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن"٤ فإن المعلم يُرى في تعليمه.

فهذه السورة كأنها مرآة صفات النبى صلى الله عليه وسلم ، ومرآة لتمام القرآن، لما جمعت أمور الرسالة كلها، وأولى السور بالفاتحة، كما مر في الفصل الأول. فهذا بيان الأبواب الأربع.

وبالجملة، فتلاوة الآيات أول الأمر. وتعليم الكتابُ والشرائع تابع لها. وأما التزكية والحكمة، فلهما طرفان : طرف قبل تعليم الكتاب، وذلك أصول الحكمة والتزكية من التوحيد والعفاف والكرم، وهي أصول الأخلاق التي هي أساس

(١) سورة البقرة :٢٦٩

(٢) سورة آل عمران:٧٧

(٣) سورة الحجر: ٤٧

(٤) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل... رقم الحديث: ٧٤٦

الشرائع المفصلة. وطرف بعد تعليم الكتاب والشرائع، وذلك نهاية الحكمة والتزكية. فتعليم الكتاب، أعني الشرائع ، محفوف بالحكمة والتزكية.

ولا يخفى أن النسبة بين الكتاب والحكمة كالنسبة بين الإسلام والإيمان، وكالنسبة بين التوراة والإنجيل، كما أشار إليه القرآن، حيث قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾(١). فهذا من أسلوب اللف والنشر.

وأما النسبة بين الحكمة والتزكية، فإن الحكمة تأتي من جهة العقل، و التزكية تأتي من جهة القلب، ولكنهما متصلان فلا تفارق إحداهما الأخرى. فإن تنوير العقل و تطهير القلب متلازمان، وقد هدى إليه بقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ وبسطه تحت هذه الكلمة.

وأما الخاتمة فهي جامعة لماسبق من الاعتقاد وعيون الشرائع والثبات عليها، وبذل النفوس للدفاع عنها. وفيها الدعاء للنصر والمغفرة كالنتيجة لهذا كله.

فالآن تبينت أن نظم هذه المطالب على غاية السداد وصحة الترتيب، فإنك ترى السابق منها وسيلة إلى اللاحق . فإن الأدلة وسيلة إلى الإيمان، والإيمان يؤدى إلى الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة تتم بالحكمة ، وبهما تتم التزكية التي هي كمال النفس وفلاحها بإكمال طرفيها : العلمي والعملي.

فهذا نظام السورة من حيث المجموع. وأما النظم التفصيلي لأجزائها، فسيأتيك عند النظر في جزء جزء من السورة .

❀❀❀

(١) سورة آل عمران : ٤٨

سورة البقرة نزلت بالمدينة في أوائل الهجرة

وهي مئتان وست وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الـم(١) ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَارَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ(٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ(٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥).

١١- تفسير الكلم

﴿الـم﴾ تقرأ اِلفْ لَامْ مِيمْ ساكنة الأواخر، وهكذا تقرأ أمثالها، ولذلك تسمى الحروف المقطعات، ولم تجئ إلا في أوائل السور. وقد دلنا القرآن على أنها أسماء السور بما أشار إليها بـ"ذلك" و "تلك". فإنه يشار بها عموما إلى ماسبق، وسيأتيك بيانه. وهكذا دلت السنة على كونها أسماء للسور. واعلم أنها مع كونها أسماء للسور هي من القرآن لرجع الإشارة إليها، فلا بد أن نقرأها بالقرآن. وأيضا أنها نزلت مع القرآن فلا سبيل إلى تركها، فإن القرآن كله محفوظ، كما هو مبسوط في موضعه، وإنا مأمورون بقراءته.

واعلم أن أسماء حروف الهجاء كانت معلومة للعرب يتكلمون بها. فالمفردات من أسماء السور مثل ص، ق، ن من العربي المبين. وأما المركبات مثل حم، الم، المص، حم عسق، فأيضًا بعد الدلالة على أنها أسماء للسور التي تبتدئ بها صارت من العربي المبين.

فإن قلت إنها كلمات لم تعرفها العرب، قلنا إنهم كانوا يسمّون بالمركبات فيعطونها معنى خاصا لم يفهم من مفرداتها. فكانوا يسمون رجالهم وأولادهم

وأفراسهم وألويتهم وأسيافهم بأسماء خاصة، ولم تكن العرب تعرف هذه الأسماء بهذه المعاني، وإنما تعرفها بالمعاني العامة لتلك الألفاظ. ولكن استعمال الذين جعلوا هذه الأسماء بإزاء المعاني الخاصة كان يدل السامع على وضعها الجديد، وذلك لايسمى خروجا عن الإبانة. فهكذا تسمية السور بهذه الأسماء بعد الدلالة على ما وضعت لها لم تخرجها عن الإبانة.

فإن قيل إن الأسماء التي كانت العرب تضعها بإزاء المعاني الخاصة لم تكن خالية عن مناسبة بين مدلولها العام ومدلولها الخاص، وأما هذه الحروف المقطعة فلا نجد مناسبة بينها وبين هذه السور. قلنا: عدم العلم بمناسبة بين الاسم والمسمى لابأس به بعد الدلالة على ما خص به، فإنّ أكثر الأسماء الجوامد لا نعلم المناسبة بينها وبين مسمياتها، ثم لايلزم من جهل المناسبة نفيها. فإنا نعلم أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا لحكمة ونفع، ولكن المنافع تظهر يوما فيوما بالتأمل وزيادة العلم، فما خفي نفعه نتفكر فيه ولا ننكره لعدم الاطلاع عليه. فكذلك تفكر العلماء في مناسبة هذه الأسماء بمسمياتها، وفي إعمال الفكر ترويضه وإكماله، ومهما غمض الأمر زاد إعمال الفكر وكان أنفع لترويضه، وأردع للنفس عن الغرور بما علمت، وأحث لها إلى التعلم، فإن الإحساس بالجهل اول خطوة التعلم. ومن نعمة الله على العلماء أنهم مهما ازدادوا علما ازدادوا إحساسا بجهلهم وبقلة علمهم في جنب مالم يعلموا.

فغموض مناسبة هذه الأسماء ينطوي على حكمة عظيمة، فإن القارى في أول نظره ينتبه على أن هذا الكتاب بحر عميق وينبغي له أن يستفرغ جهده في تدبره حسبما وجد في نفسه من الأهلية و الاستعداد. فإن كل امرئ مكلف لما في وسعه، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِيْ مَا آتَاكُمْ﴾.[١] وستجد في الفصل الخامس عشر إشارة إلى المناسبة بين هذه الأسماء ومسمياتها.

---

(١) سورة الأنعام: ١٦٥

﴿ذلك﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنه وغيره من السلف أن معناه: "هذا الكتاب" [١]، وعنوا بذلك أن المراد: هو هذا الكتاب، لا غيره. وهو قول صحيح. وليس معناه أن كلمة "ذلك" بمعنى كلمة "هذا". فإن بينهما فرقا عظيما، وتفصيله في كتاب المفردات، ونذكرهنا بقدر الكفاية.

فاعلم أن "هذا" تشير به إلى ما كان بين يديك وتريه المخاطب، ولذلك تصدره بحرف "ها"، فتريه ما بين يدي المخاطب، كما تقول: ها أنا ذا. قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوْا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾[٢]. فلو قال: "رب ذلك البيت" دل على أن البيت قد مر ذكره فأشير إليه. فإذا سبق ذكر شئ وأشير إليه بـ"هذا" كان المقصود إحضار ذلك الشئ بين يدي المخاطب. ونذكر على سبيل التمثيل لا الاستناد من قصيدة الفرزدق أمثلة. قال:

هذا الّذي تَعرِفُ البَطْحاءُ وَطأَتَهُ   وَالبَيتُ يَعْرِفُه وَالحِلُ وَالحَرَمُ[٣]

وقال في هذه القصيدة:

هَذا التَقي النَقي الطّاهِرُ العَلَمُ [٤]

وقال أيضاً:

إلى مَكارِمِ هَذا يَنْتَهي الكَرَمُ [٥]

فإن الإمام زين العابدين رضى الله عنه كان موجودا، وكان الشاعر يريه

---

(١) انظر تفسير الطبري ١: ٢٢٥ (تحقيق محمود شاكر) رقم ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠.
(٢) سورة قريش: ٣
(٣) ديوانه، الجزء الثاني: ٢٣٨.
(٤) صدره:
هذا ابنُ خير عباد الله كلهم
(٥) صدره:
إذا رأته قريشٌ قال قائلها   ٢: ٢٣٩.

المخاطب إرغاما له.

وجاء في القرآن: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾(١)

وجاء أيضاً: ﴿قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا﴾(٢)

أيضا: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(٣)

وضرب مثلا لعيسى عليه السلام ثم قال بعده: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾(٤)

فبالإشارة بكلمة "هذا" مثل بين أيديهم ما سبق ذكره.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيُّ﴾(٥)

فأشار إلى النبي صلى الله عليه وسلم بـ"هذا" وهو بينهم.

أما كلمة "ذلك" و"تلك" و "أولـئك" فتشير بها إلى ما علمه المخاطب وسبق ذكره، أو يكبر من أن تمثله بين يديه. تقول بعد تمام الكلام: "ذلك" أي خذ ما ذكرنا. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾(٦) وقال تعالى: بعد ذكر داؤد عليه السلام: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٧) وهكذا بعد ذكر أحكام المواريث قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾(٨)

---

(١) سورة البقرة:٧٩
(٢) سورة آل عمران: ٣٧
(٣) سورة الزخرف: ٦٤
(٤) سورة آل عمران:٦٢
(٥) سورة آل عمران: ٦٨
(٦) سورة محمد: ٤
(٧) سورة البقرة: ٢٥٢- ٢٥٣
(٨) سورة النساء: ١٣

وقال أمية ين أبي الصلت:

تَرَكْتُ اللاتَ وَالعُزّى جَميعًا   كذلكَ يَفْعَلُ الرَّجُلُ البَصيرُ(١)

وهذا كثير في القرآن وكلام العرب، وهم يفرقون ين استعمالها لفوائد خاصة.

ومن فوائد استعمال كلمة "ذلك" ههنا دلالتها على أن اسم السورة المذكورة قبلها من القرآن، فإنها تشير إليه. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿حم عسق. كذلك يوحى إليك﴾(٢). فأشار بكلمة "كذلك" إلى المذكور آنفا.

وأما قول النحويين أن "هذا" للقريب و"ذلك" للبعيد، فتقريب وليس بيان حقيقة الأمر.

ومما ذكرنا يتبين أن ما زعم ابن جرير رحمه الله وتبعه المفسرون أن ﴿ذلك﴾ ههنا بمعنى "هذا" واستشهد بقول خفاف بن نُدبة:

أقولُ له والرُّمح يأطِرُ مَتْنَهُ   تأمّل خفافًا إنني أنا ذلكا(٣)

فلا يصح لا في البيت ولا في الآية. أما الآية فقد بينا أن "ذلك" ههنا يدل على أمر لا يدل عليه "هذا"، وفي القرآن نظائر كلها تؤيد ما ذكرنا كما سيأتيك. وأما البيت فيقبح فيه لفظ هذا، فإن الشاعر بعد ما ذكر اسمه لعدوه قال له: إنني عدوك الذي سمعته وعلمته من قبل (٤) فلو قال: "إنني أنا هذا" لم يدل على ذلك المعنى. وأيضا سقط لما أن في ذلك دلالة على عظمته، ولا فائدة في "أنا هذا".

﴿الْكِتَابُ﴾ اسم الحدثان من كَتَبَ. ويطلق على خمسة معان:

---

(١) لم نجد البيت فيما جمعوا من شعره.
(٢) سورة الشورى: ١- ٣
(٣) تفسير الطبري ١: ٢٢٧
(٤) وبمثل ذلك فسره الأستاذ محمود شاكر في تعليقه على تفسير الطبري إذ قال: "وأرى أن الإشارة في هذا البيت إلى معنى غائب، كأنه قال: "أنا ذلك الذي سمعت به وبأسه". وهذا المعنى يخرج البيت عن أن يكون شاهدا على ما أراد الطبري". ١: ٢٢٧.

١- ما قدر الله، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

٢- كتاب عند الله يحوي ما قدر الله، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾(٢). أيضا: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ﴾(٣). أيضا: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٤).

٣- الرسالة وما يكتبون، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾(٥). أيضا: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾(٦).

٤- الشرائع والأحكام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾(٧). أيضا: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(٨).

٥- ما أنزل الله. وبهذا المعنى يطلق على كتاب الله تعالى قليله وكثيره. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾(٩) وأيضا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾(١٠).

---

(١) سورة الأنفال: ٦٨
(٢) سورة ق: ٤
(٣) سورة التوبة: ٣٦
(٤) سورة الأنعام: ٥٩
(٥) سورة النمل: ٢٩
(٦) سورة البقرة: ٢٣٥
(٧) سورة المائدة: ١١٠
(٨) سورة البقرة: ١٢٩، سورة آل عمران: ١٦٤، سورة الجمعة: ٢
(٩) سورة الأعراف: ١٧٠
(١٠) سورة آل عمران: ٢٣

وأيضا: ﴿فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾(١). وهذا كثير.

وأصل ذلك اختصاص الكلمة بأكمل أفرادها. وهذا الإطلاق هو المعروف في أهل الكتاب، فإن اليهود كانوا يسمون كل كتاب من صحف الأنبياء سفرا. وهكذا المترجمون من النصارى سموا هذه الكتب المقدسة باسم "بائبل" وهو في اليونانية بمعنى الكتاب، وباسم "اسكر فصر" وهو مثله في اللاطينية. فظهر أن تخصيص اسم الكتاب بكتاب الله أمر معروف من القديم، وبينه القرآن باستعمالاته فتبين معناه للمخاطبين. ثم عرفه بأسماء كثيرة ليدل على التصور الصحيح للمسمى، ونذكرها في الفصل الخامس عشر. والمراد ههنا هو هذا المعنى الخامس.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الريب هو الشك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾(٢). وارتاب: شك. قال تعالى: ﴿إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾(٣). وريب الدهر: حوادثه. ومنه: ريب المنون. كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾(٤). رابني فلان: إذا رأيت منه ماتكرهه، وما هو مظنة لسوء. ومنه: الريبة، للتهمة: وهي ظن السوء، فهي قسم من الشك. قال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾(٥). و راب الرجل: صار ذا ريبة، وأيضا: أورث الريب، كما قال تعالى: ﴿فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾(٦). ومنه الحديث: "دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ"(٧).

---

(١) سورة يونس: ٩٤
(٢) سورة غافر: ٥٩
(٣) سورة العنكبوت: ٤٨
(٤) سورة الطور: ٣٠
(٥) سورة التوبة: ١١٠
(٦) سورة سبإ: ٥٤
(٧) رواه الترمذي في آخر أبواب القيامة. رقم الحديث ٢٥١٨. وأورده البخاري معلقا، انظر فتح الباري٤: ٢٩١

﴿هُدًى﴾ هو اسم الحدثان من هَدَى يَهْدِي. أما وجوه استعمال الفعـل منه، فقد مر في تفسير الفاتحة. وأما هذه الكلمة، فتـأتي حسب أصـل معلوم في إطـلاق أسماء الحدثان على وجوه:

١- فالأول أنه النور والبصيرة في الفؤاد، كما قال قس بن ساعدة:

وَالَّذي قد ذكرت دَلَّ على   الله نفوسًا لها هُدًى واعتبارُ(١)

وكما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(٢) وأيضا: ﴿وَلَـو شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾(٣)

٢- والثاني هو الدليل والبينة وما تهتدي به، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾(٤). أيضا: ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُـدَى وَالْفُرْقَـانِ﴾(٥). أيضـا: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾(٦)

٣- والثالث: الطريق الواضح الموصل. قا ل امرؤ القيس:

ومن الطريقـة جائرٌ وهُـدًى   قصْدُ السَّبيل ومنه ذُو دَخْلِ(٧).

وفي القرآن: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾(٨) ومنه: للسنة والشـريعة، كمـا

(١) شعراء النصرانية: ٢١٢
(٢) سورة محمد: ١٧
(٣) سورة السجدة: ١٣
(٤) سورة طـه: ١٠
(٥) سورة البقرة: ١٨٥
(٦) سورة الحج: ٨
(٧) ديوانه: ٢٣٨ والراجح أنها لامرئ القيس ان عابس الكندي، وهو شاعر صحابي مخضرم.
(٨) سورة الحج: ٦٧

قال تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(١) و﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ﴾(٢).

٤- والرابع: اسم لفعل الهداية، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُـمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾(٣). أيضا: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(٤). أيضا: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾(٥). وهذه الوجوه كلها من جهة العربية.

ثم العرب تسمي الأشياء ببعض وصفها الظاهر. فعلى هـذا الأسلوب سمى الله تعالى كتابه "هدى" من جهة هـذه الوجوه كلها، لكونه جامعا لها. والشئ الواحد يسمى بأسماء عديدة، فالهدى من أسماء كتاب الله، كما قال تعالى ذكرا لقيل مؤمنى الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾(٦). وأيضا: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾(٧). وأيضا: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٨) أي يأتينكم وحي مني. فهذا هو المعنى الخامس للهدى وهو جامع للوجوه السابقة. وسيأتيك بيانه في الفصل الرابع عشر.

﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أما اللام فللنفع، أي ينتفع به المتقون. وسيأتيك بيانه. وأما "المتقين" فلا يخفى أن الاتقاء افتعال من: وقى - يقي، فالمجرد يتعدى إلى

(١) سورة الأنعام: ٩٠
(٢) سورة آل عمران: ٧٣
(٣) سورة النحل: ٣٧
(٤) سورة البقرة: ٢٧٢
(٥) سورة الليل: ١٢
(٦) سورة الجن: ١٣
(٧) سورة الإسراء: ٩٤
(٨) سورة البقرة: ٣٨

مفعـولين، كما قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَـوْمِ﴾(١) أي حفظهـم عنه. وأما الافتعال منه فيتعـدى إلى مفعول واحـد، اتقيت الشر: تحفظت منه. اتقيت السيف بالترس: جعلته حاجزا بينك وبين السيف. قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٢) قال النابغة:

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ ... فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَـدِ(٣)

وفي الحديث: "اِتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"(٤) أي التمسـوا وقاية مـن النار ولو بشق تمرة تعطوها الفقراء (٥).

وربما يراد به على التجريد: محضُ جعل الشيء في القدام كالحـاجز، كما قال امرؤ القيس:

تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِي ... بِنَاظِرَةٍ مِن وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ(٦)

فجرد عن مفهوم الخوف، وهو قليل. فإن الاتقاء في أصل معناه يكون من خوف ضرر. وعلى هذا يأتي على أربعة أوجه:

الأول هو التحفظ عما يخاف الضرر منه، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾(٧). أيضا: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾(٨).

---

(١) سورة الإنسان: ١١

(٢) سورة الزمر: ٢٤

(٣) ديوانه: ٩٣

(٤) متفق عليه وانظر النهاية ٢: ٣٩١.

(٥) "تعطوها" أصله "تعطونها"، وقد حذفت نون الرفع لمجرد التخفيف، انظر شواهد التوضيح لابن مالك: ١٧١.

(٦) البيت من معلقته في ديوانه: ١٦ وانظر شروح المعلقات.

(٧) سورة آل عمران: ٢٨

(٨) سورة المزمل: ١٧

والثاني هو الخوف من شر، كما في قولـه تعـالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾(١). أيضا: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(٢). أيضا: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾(٣).

والثالث هو التخشع بين يدي المنعم القدوس الذي يرحم على الشاكر البار، ولا يرضى بالكفر والإثم، وهو العالم بكل شئ. وبهذا الوجه يشبه "الرهبة"، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾(٤). أيضا: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(٥). أيضا: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾(٦). وهو كثير.

والرابع هو الوجه الجامع للوجوه الثلاثة، ويدل على التحفظ عن الإثم من خوف نتائجه السيئة ومن خوف سخط الرب. وهذا المعنى الجامع يراد منه كثيرا إذا جاء مجردا عن المفعول ويعبر عنه بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾(٧). أيضا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٨). أيضا: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٩). أيضا: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ

---

(١) سورة الأنفال: ٢٥

(٢) سورة آل عمران: ١٣١

(٣) سورة البقرة: ٢٨١

(٤) سورة الأنفال: ٢٩

(٥) سورة التغابن: ١٦

(٦) سورة الزمر: ٧٣

(٧) سورة النحل: ١٢٨

(٨) سورة آل عمران: ١٧٢

(٩) سورة آل عمران: ١٧٩

ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾(١). أيضا: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢)

فالمتقي بهذا المعنى من أشرب قلبه تعظيم الرب وخوف سخطه ونتائج الإثم. ولذلك كثر في القرآن مدح المتقين ومقابلتهم بالمجرمين الطاغين.

والقرآن تارة يكتفي بهذه الكلمة الجامعة، وتارة يفصل معناه، وتارة يريد الوجوه الثلاثة على سواء، وتارة يريد وجها خاصا أولا وبالذات، وباقي الوجوه ثانيا حسبما يناسب المقام، كما هو الأصل في فهم الكلمات الجامعة.

فأما الاكتفاء بهذا الاسم مع إرادة المعنى الجامع فكثير. وذلك حيث مدح الله المتقين و لم ينبه على بعض أوصافهم الخاصة.

وأما الإلماع إلى بعض وجوهه حسب محله فأيضا كثير. ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾(٣) أي الذين يجتنبون الإثم مع الخشية، فإن الفجور هو ارتكاب الإثم مع الجسارة. أيضا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾(٤). الآيتان متقابلتان كما هو ظاهر. وجاءت كلمة "اتقى" في مقابلة "استغنى"، فالمراد به: من تخشّع للرب تعالى خاشيا راجيا، فلم يستغن عنه.

وأما تفصيل المعنى الجامع، فكما ترى في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ﴾ إلى قوله تعالى:﴿أُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(٥). وذكر قبله أبواب الإيمان والأعمال الصالحة،

(١) سورة آل عمرن: ١٨٦
(٢) سورة الأنعام: ١٥٣
(٣) سورة ص: ٢٨
(٤) سورة الليل: ٥- ١٠
(٥) سورة البقرة: ١٧٧

فدل على أن المتقين هم الذين جمعوا هذه الصفات.

واعلم أن جهة الحال والكيفية أظهر في معناها من جهة العمل، وجهة الكف أغلب من جهة الفعل. ولذلك تارة تقترن بالفعل على سبيل التقابل،كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ﴾(١) وتارة تقترن بالكف على سبيل البيان، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾(٢). ومع ذلك لكونها حالة هي منبع الأعمال، فتقترن بالإيمان على سبيل التقابل والتفصيل، كما ترى في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾(٣). وهذا كثير.

ثم هي منبع العلم أيضا لكونها حالة تصلح القلب. وسيأتيك زيادة البيان لصفة التقوى في الفصل الرابع عشر والفصل الخامس عشر.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ الإيمان يطلق على وجوه:

١ـ آمنه: أعطاه الأمن.

٢ـ آمن له: أذ عن له.

٣ـ آمن به: صدق به.

٤ـ وأما تعريف الإيمان المعتبر عند الله تعالى فقد جاء في القرآن كثيرا، وذكرناه في تفسير سورة والعصر. وسيأتيك ذكر الفرق بين الإيمان والإيقان.

﴿بالغيب﴾ الغيب اسم الحدثان من غَابَ غَيْباً وغَيْبَةً وغِيَاباً وغُيُوْباً ومَغِيْباً.

٢ـ وأيضا يطلق على ما غاب عنك. وضده: الشهادة. قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾(٤) أي ما هو غائب عنا وما هو مشهود لنا.

(١) سورة آل عمران: ١٧٢
(٢) سورة آل عمران: ١٨٦
(٣) سورة آل عمران: ١٧٩
(٤) سورة الأنعام: ٧٣، سورة الرعد:٩، سورة المؤمنون: ٩٢، سورة السجدة: ٦، سورة الحشر: ٢٢، سورة التغابن: ١٨

٣ـ وعلى ما لاسبيل إلى علمه، كما حكى الله عن النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَوْكُنتُ أَعْلَمُ الْغَيبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾(١) وكما قال حاتم الطائي:

أَمَا، وَالَّذِي لاَ يَعلمُ الْغَيبَ غَيْرُه ... ويُحيِي العِظامَ البِيضَ وهي رَمِيمُ(٢)

٤ـ وعلى المكان الذي ليس بمشهد منك، والجانب الذي لايتعين، كما قال عبد الشارق الجُهَني:

سَمِعنا دَعْوَةً عن ظَهرِ غَيبٍ ... فَجُلْنا جَولَةً ثُمَّ ارعَوَيْنا(٣)

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ﴾(٤) فبين معنى الغيب: أي لم تكن بمشهد منهم.

٥ـ وعلى السر عموما، كما قال تعالى: ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾(٥). وأيضا: ﴿فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾(٦). فهذه خمسة وجوه معلومة.

﴿يُقِيْمُونَ﴾ أقام الشئ: جعله قائما، مثلا أقام العمود. ومنه إقامة الحدود والسوق إقامة معنوية.

٢ـ وأيضا: جعل الشئ مستقيما لا اعوجاج فيه، وهذا كثير.

٣ـ وأيضا: سكن ولبث، كما تقول أقام ببلدة. ومنه ـ بمعنى: دام وبقى، كما

(١) سورة الأعراف: ١٨٨

(٢) ديوانه: ١٨٤ وصلة البيت بعده:

لقد كنت أطوي البطن والزاد يُشتهى ... مخافةَ ـ يوما ـ أن يقال: لئيم

(٣) من قصيدة له تعد من المنصفات، وهى فى الحماسة. انظر شرح المرزوقى: ٤٤٦

(٤) سورة يوسف: ١٠٢

(٥) سورة النساء: ٣٤

(٦) سورة الجن: ٢٦

في قوله تعالى: ﴿فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾(١).

﴿الصَّلاَةَ﴾ هي في الأصل الإقبال على شئ. ومنه: الركوع. ومنه: التعظيم، والتضرع، والدعاء. وهي كلمة قديمة بمعنى الصلاة والعبادة. جاءت في الكلدانية بمعنى الدعاء والتضرع، وفي العبرانية بمعنى الصلاة والركوع.

ومن هذا الأصل صلى النار: أقبل عليها، ثم بمعنى دخل النار، كما قال تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا﴾(٢). وأيضا: ﴿وَيَصْلَى سَعِيْرًا﴾(٣). ومنه: التصلية، كما قال تعالى: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾(٤). واستعملت العرب كل ذلك.

﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ الرزق: النصيب الذي يأتي أحدا من سيده. والفعل منه كنصر.

﴿يُنْفِقُونَ﴾ نفق، ونفِد، ونفَذ من أصل واحد. والمعنى: ذهب وجرى. يقال نفق البيع: راج، ونفق الزاد: نفد، وأنفق القوم: نفقت سوقهم، وأنفق الرجل: ذهب ماله(٥). ومنه قوله تعالى: ﴿إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ﴾(٦). والنَفَق: سَرَبٌ في الأرض. ومنه النافقاء: لإحدى جحَرَةِ اليربوع النافذة التي يكتمها، والأخرى القاصعاء، وهي التي يظهرها وليست بنافذة إلى مكانه. ومنه سمي المنافق (٧). وأنفق المال: أجراه وأخرجه، ولم يمسكه ولم يحبسه.

﴿الآخِرَةِ﴾ صفة صارت اسما. وتطلق على الدار الآخرة كالدنيا على هذه

(١) سورة التوبة: ٢١

(٢) سورة اللهب: ٣

(٣) سورة الانشقاق: ١٢

(٤) سورة الواقعة: ٩٤

(٥) انظر لسان العرب (نفق)

(٦) سورة الإسراء: ١٠٠

(٧) اللسان (نفق)

الدار. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾(١). ومنه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(٢).

وأيضا تطلق على الحياة الآخرة. قال تعالى: ﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾(٣). ومنه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾(٤). والمآل واحد. فربما تذكر الدار الآخرة و يراد بها حياة الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾(٥). أي حياة الدارالآخرة هي الحياة الكاملة.

﴿يُوْقِنُونَ﴾ أيقن بالشئ: علمه من غير شك، كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ. لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ. ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾(٦).

والفرق بين "الإيمان" و "الإيقان" أن الإيمان تصديق وتسليم، وضده: التكذيب، والجحود، والكفر. و "الإيقان" ضده: الظن والشك. فليس كل من أيقن صدق، بل ربما يكذب المرء عتوا ومكابرة وقد أيقن بالشئ، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(٧).

وكذلك ليس كل من آمن فقد أيقن. فربما يؤمن الرجل بغلبة الظن ثم يوفقه الله فيخرج عن الظن. ولكن لا يكمل الإيمان إلا بالإيقان، فالإيمان جزءان:

(١) سورة غافر: ٣٩

(٢) سورة القصص: ٧٧

(٣) سورة النحل: ١٠٧

(٤) سورة يونس: ٦٤

(٥) سورة العنكبوت: ٦٤

(٦) سورة التكاثر: ٥- ٧

(٧) سورة النمل: ١٣- ١٤

علم وتسليم، وبكمالهما يكمل. وفيمن صلح قلبه يكفيه العلم ويورث التسليم والعمل حسب ذلك العلم.

فالإيقان هو الجزء العلمي من الإيمان مع زيادة في صفة العلم. وإذ جاء ههنا بعد ذكر الإيمان دل على كماله في أمر الآخرة.

﴿عَلَى هُدًى﴾ على بصيرة أو على صراط مستقيم. فحرف "على" تدخل على كلا المعنيين، فأيهما أردت بقي معنى "على" على حاله. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾(١). أيضا: ﴿عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾(٢). وهكذا: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣). أيضا: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٤).

فأما دخولها على الصراط فظاهر. وأما على النور والبينة والبصيرة، فلما أن النور ينبسط فيضئ الطريق للسالك فيمشي عليه، وأما الظلمه فتغشى عليه من الجوانب فهو مغمور بها. ويشير إلى هذا الفرق قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾(٥).

هذا، وقيل إن على تدل على التمكن، وهذا لم يتبين لي. والله أعلم.

﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ أفلح: فاز، ضد خسر وخاب، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾(٦). أيضا: ﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٧).

(١) سورة الأنعام: ٥٧

(٢) سورة الزمر: ٢٢

(٣) سورة الحج: ٦٧

(٤) سورة هود: ٥٦

(٥) سورة سبإ: ٢٤

(٦) سورة الشمس: ٩- ١٠

(٧) سورة المجادلة: ٢٢

أيضا: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾(١). وأيضا: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنْفُسَهُمْ﴾(٢).

٢ـ وفي كلام العرب جاء أيضا بمعنى عاش بالنعمة، وذلك قريب من الفوز.

واعلم أن مفهوم أصل هذه المادة: الانشراح، فانشق منها: الفلج، والفرج، والفرح، والفرق، والفلق، والفلغ. وهي موجودة في العبرانية. ومن ههنا الفَلاَّح: للحارث، لما هو يفرق التراب عند الحرث. وقيل في اسم "فالج" الذي هو في سلسلة النسب بين نوح وإبراهيم عليهما السلام أنه سمي بفالج لأنه كان يحرث الأرض(٣).

٣ـ وأيضا جاء في كلام العرب بمعنى بقى.

فهذه ثلاثة وجوه، و﴿المفلحون﴾ جامع لها. فإن المتقين هم الفائزون وهم المتنعمون الباقون في نعيم مقيم. وكثر في أوائل الوحي هذه الأوصاف للمتقين. ويدل على هذا المعنى الجامع قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٤). فانظر كيف بدأ بـ"أفلح" وتمم بأنهم المنعمون الوارثون الباقون.

١٢ـ تأليف الكلم في هذه الجملة

قوله تعالى: ﴿الـم﴾ جملة مستقلة، أي هذا الـم، كما هو المفهوم في سائر الأسماء التي توضع قبل الكتب والأبواب والفصول وعنوانات أخر. وإذ هي جملة مستقلة يحسن الوقف عليها، وهكذا في سائر الأسماء كما هو ظاهر بيّن في قوله تعالى:

(١) سورة طـه: ٦٤

(٢) سورة الأعراف: ٨- ٩، سورة المؤمنون: ١٠٢- ١٠٣

(٣) وجاء في التكوين ١٠: ٢٥ "ولعابر ولد ابنان، اسم الواحد فالج لأن في أيامه قسمت الأرض".

(٤) سورة المؤمنون: ١- ١١

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(١). أيضا: ﴿ص. وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾(٢). أيضا: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾(٣). أيضا: ﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾(٤). وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ كلمة ﴿الْكِتَابُ﴾ قد وقعت خبرا عن ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك هو الكتاب الإلهي، كما دلت عليه النظائر. فإنه لم يجئ في القرآن نظائر هذا الكلام إلا على هذا التأليف. مثلا قوله تعالى: ﴿طسم ـ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾(٥). فـ "تلك" مبتدأ، وبعدها الخبر عنها. وهكذا قوله تعالى: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٦). وأيضا: ﴿الـم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾(٧). فليس أن المعرفة بعد هذه الأسماء لابد أن تقع بدلا وبيانا بل ربما تقع خبرا، كما رأيت في هذه الأمثلة، وهو شائع في كلام العرب. قال النابغة:

وَيَرْجِعُ إلى غَسَّانَ مُلْكٌ وَسُودُدٌ   وتلكَ المنى، لو أَنَّنا نَستطيعُها(٨)

وقال أمية بن أبي الصلت بعد ذكر مكارم الأخلاق:

تلك المكارم لاقَعْبانِ مِن لَبَنٍ(٩)

(١) سورة القلم:

(٢) سورة ص: ١

(٣) سورة ق: ١

(٤) سورة يس: ١- ٢

(٥) سورة الشعراء: ١- ٢، سورة القصص ١- ٢

(٦) سورة النمل: ١

(٧) سورة لقمان: ١- ٢

(٨) ديوانه: ١٠٧

(٩) عجز البيت:

شيبا بماءٍ فعادا بعد أبوالا   شعراء النصرانية: ٢٣٢.

وسيأتيك مايؤيد هذا الوجه في الفصل الخامس عشر إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لارَيْبَ فِيهِ﴾ الضمير في ﴿فيه﴾ راجع إلى الجملة، أو إلى ﴿ذلك﴾ من جهة كونه كتاباً منزلا من الله تعالى. فإن الريب لا يتعلق بشئ إلا من جهة الإخبار. مثلا قوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾(١). أي لا شك فيها من جهة إتيانها. فهكذا ههنا ـ أى لا ريب في كونه كتابا منزلا من الله تعالى. فإن المفهوم من "الكتاب" ههنا هو كتاب الله كما مر، والجملة تامة مؤكدة لما قبلها. أى ذلك كتاب الله لا شك فيه. فإن شئت جعلتها حالاً ـ والحال تأتى عن أسماء الإشارة ـ كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾(٢)، وإن شئت جعلتها مسقلة معترضة، والمآل واحد. وسيأتيك في فصل(١٤) ما يؤيد كونها مؤكدة.

وأما الظرف فهو متصل بـ"لا ريب"، لا بـ"هدى" على حذف الخبر، كما قيل لبعده لفظا ومعنى. فأما من جهة المعنى فسنرجع إلى بيانه في ذكر الجملة التالية. وأما من جهة اللفظ ـ

١. فلأن الحذف خلاف الأصل
٢. ولأن النظائر كلها جاءت بغير الحذف. فإنه قد جاء في القرآن: ﴿لا ضَيْرَ﴾ و﴿لَامِسَاسَ﴾، ولم يجئ "لا ريب" في سائر القرآن بحذف الخبر
٣. ولأنه لاحاجة إلى تقدير الحذف.
٤. وأقوى الأدلة أن ـ فيه هدى ـ لا يصح تأويلا، كما سنذكر. فلا بد أن يكون ﴿فيه﴾ متصلا بـ ﴿لا ريب﴾.

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ "هدى" في حالة النصب، لوقوعه حالا عن اسم الإشارة. ونظيره قوله تعالى: ﴿الـم ـ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. هُدًى

---

(١) سورة غافر: ٥٩
(٢) سورة الأنعام: ١٢٦

وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أولَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١). وأيضا: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢). وأيضا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾(٣).

واعلم أن الله تعالى كلما ذكر الهدى في وصف القرآن لم يقل إلا أنه هدى، لا أن فيه هدى، وبينهما فرق ظاهر. وترى رعاية هذا الفرق حيث وصف الله تعالى التوراة والإنجيل بكلا الطريقين، فقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾(٤). وأيضا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾(٥). وأيضا: ﴿وَآتَيْنَاهُ (أى عيسى) الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٦). فحين أطلق قال فيه هدى، وحين قيد ـ إما بزمان النزول أو بالمتقين ـ قال هدى. فاعرف هذا الفرق. ومن ههنا تبين أن من قرأ: ﴿لارَيْبَ. فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فقد أبعد من جهة المعنى أيضا، لاختياره ما هو أدون مدحا، ولما جاءت النظائر بخلافه. كما مرّ بك آنفا. ولا نظير لما زعم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ "الذين" في حالة الجر لوقوعه صفة كاشفة عما تضمنت كلمة "المتقين"، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾(٧). وفي مثل

---

(١) سورة لقمان: ١ـ ٥
(٢) سورة الأعراف: ٥٢
(٣) سورة البقرة: ١٨٥
(٤) سورة الأنعام: ٩١
(٥) سورة المائدة: ٤٤
(٦) سورة المائدة: ٤٦
(٧) سورة المومنون: ١ـ ٣

ذلك ربما يكون الرفع على الخبرية بتقدير الضمير، والنصب بتقدير "أعني". وهذه الوجوه متساوية في المعنى. ولا يستقيم جعله في حالة الرفع على الابتداء، وجعل ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ خبرا عنه، لوجوه:

الأول: أن ههنا بيان المتقين، فلا يقطع عنه ما بعده.

والثاني: أن ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ راجع إلى المتقين كما هو راجع إلى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، فكيف يخرج عنه.

والثالث: أنه راجع إلى ما تعلق به الهدى في أول الكلام. فبعدما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بين أوصاف المتقين، فلما فرغ استأنف وقال هؤلاء المتقون هم على هدى من الرب وهم الفلاح. فصار تأكيدا لما سبق ومطابقا به. ولا فائدة في جعل الهدى الأول للمتقين والثاني للمؤمنين بالغيب، فإن ههنا فريقا واحدا.

والرابع: أن هذا القطع والاستيناف حسب زعمهم لا يهتدى إليه إلا بعد أن تبلغ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، فحينئذ ترجع إلى أول الكلام وتترك الوجه المتبادر. وهذا يجعل التأليف فلقا، ويخالف انسجام الكلام.

والخامس: إنا نجد الاستيناف بـ"أولئك" في سلسلة هذا النظم بعد سرد الأوصاف، كما ستراه عن قريب، ولا وجه للفرق بين النظائر. وأما جعله في حالة الرفع على الخبرية بعد تقدير ضمير الجمع، فلا حاجة ولا داعية إليه. وأما جعله منصوبا على المدح بتقدير "أعني" فهو قليل الوقوع، وإنما يسوغ إذا كان ذكرا لما لم يدخل فيما سبق. ولكن المتقين مشتمل على ما بعده – والتفصيل بعد الإجمال هو المعروف في القرآن.

١٣- بلاغة هذه الجملة في أسلوب بيانها

هذه الجملة جمعت أبوابا من البلاغة لاشتمالها على براعة الاستهلال، وعيون الحكم، ونهاية الإيجاز، وسداد التقسيم، وحسن النظام، ولطف التعريض،

وفصل الخطاب، ورعاية التأكيد، واختيار الكلم، كما سيتضح بعد النظر في الفصول التالية. وههنا إنما نكتفي بالإشارات.

وإن في هذه الجملة تعريضات باليهود، ونذكرها في الفصل الثاني. وأما ههنا فننظر من حيث الخطاب العام.

فاعلم أن في قوله تعالى: ﴿الم﴾ إشارة إلى كون هذا الكلام عميقا جدا لاينتهى إلى غوره، وذلك أول تنبيه للقارى على طريق فهمه.

وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ تقديم الأمر الذي هو عمود السورة، وهو إثبات هذه النبوة. فجاء بقول فصل بغاية الإيجاز، وجعل الكتاب نفسه دليلا على كونه من الرب تعالى.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. ثم نبّه على طريق كسب هذا العلم وعلى ما يعوق عنه بقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. فدل على أن العلم البين يبتنى على صلاح القلب، ومن فسد قلبه يبعد عن معرفة الحق. ودل على أن صلاح القلب يحصل من خشية الرب تعالى، كما جاء في أول كتاب الحكمة لسليمان عليه السلام: "رأس الحكمة خشية الله".

واختار التقوى بدل الخشية، فإنها أجمع. لأن الاتقاء ينشأ من المعرفة ومن رغبة النفس إلى الاجتناب عما يدنسها ويضرها، فهي جامعة لبابي العلم والعمل.

واختار التقوى على البر والإحسان، فإن الضرر أكبر حثا من النفع وأشد تنبيها لكون الخوف أكبر تأثيرا من الطمع. ولذلك سمى العقل عقلا وحجرا لأن ظهوره أقرب عند إحساس الضر وكبح النفس عن السيئ.

ثم دل على ما تضمنت التقوى من العلم والعمل، فقدم باب العلم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾. وبذلك دل على حد العقل، وخاصة الإنسانية. فإن العاقل يؤمن بما استدل عليه كأنه قدرآه بعينيه وسمع بأذنيه، بل يؤمن بما لا يدركه البصر والسمع.

ثم دل بقوله: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ على مايتبع الإيمان الصحيح من الحال والأعمال. فإنه ليس مجرد التصور بل التصديق الذي تغلغل في الفؤاد حتى بلغ نقطة الإرادة منه، فهيج فيه النظر والرغبة. وبما اقتصر على الصلاة والإنفاق دل على جماع صلاح القلب الناشي من التقوى والإيمان بالغيب، كما سنذكره في فصل(١٦). و لم يكرر الموصول لكون الصلاة والإنفاق يلزمان الإيمان بالغيب، ليدل على اتصال اللاحق بالسابق.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ يشير:

١- إلى جهة الإنفاق، وهي الاعتراف بكونه من الرب تعالى.

٢- وأيضا إلى دليله، فإن الإنفاق ببعض ما أعطاه الرب يوجبه العقل أداء للشكر واعترافا بالمنة

٣- وأيضا إلى التيسير، فإن الإنفاق بالبعض من الكل لا يتعسر.

٤- وبما أطلق الإنفاق جعله جامعا لوجوه الصدقات كلها. وتقديم الظرف ليس لمحض رعاية الفواصل بل هو من باب تقديم الدليل. ولا دلالة فيه للتخصيص. فإن كل ما للعبد فهو مما رزقه الله، فلا معنى للتخصيص.

وأما القول بأن الحرام ليس مما رزقه الله، فلا يصح. قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا. كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(١). وإنما دعاهم إلى هذا التأويل أن الإنفاق في سبيل الله المراد ههنا لابد أن يكون من الحلال، ولكن سياق الآية ليس لبيان ذلك. وفي تصريح القرآن وصريح العقل كفاية، فلا حاجة إلى استنباطه من ههنا.

(١) سورة الإسراء: ١٨- ٢٠

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ﴾ الآية. علق الإيمان بنوع ما أنزل فصار جامعا لجميع كتب الله، وخاليا عما بدلوا وحرفوا. والعطف بتكرار الموصول لا يدل على تعدد الموصوف، كما ترى في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾(١) وهذا كثير. وإنما يدل على أن المعطوف ليس في نسق واحد مع السابق بل هو مستقل، فإن الإيمان بجميع كتب الله ركن مستقل. وكثير من الفرق الضالة يؤمنون بالغيب ويصلون وينفقون، ومع ذلك لا يؤمنون بالنبوة. فللتنبيه على هذا الأصل كرر الموصول. ثم لما كان المعاد أيضا ركنا مستقلا ولكنه كان داخلا في الإيمان بالكتاب لم يكرر الموصول، ولكن ذكره بفعل مستقل.

وفي تقديم الظرف دلالة على الاهتمام بشأنها، وليس لمحض رعاية الفواصل ولا للحصر كما هو ظاهر.

وفي اختيار "يوقنون" عوض يؤمنون تنبيه على شك الناس فيها وغفلتهم عنها، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾(٢). وأيضا الإيقان أولى بالإخبار، فاختاره.

وفي قوله تعالى: ﴿أولئك على هدى ...﴾ استيناف ليكون تأكيدا لما سبق. وكرر ﴿أولئك﴾ ليكون أوكد وأفخم.

﴿هم﴾ لبيان التخصيص.

وفي هذا الاستيناف والتكرار تنويه لشأنهم، وهكذا في زيادة ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾. ثم في هذه الزيادة – (الاول) ذكر لنعمة الرب، و(الثانى) أن الهدى لا يأتي إلا منه، و(الثالث) أنه من جهة ربوبيته. و ذكر الفلاح بعد الهدى بيان الثمرة، فأعقبه إياه. وفي تنكير ﴿هُدًى﴾ دلالة على النوع، فصار أجمع.

(١) سورة الأعلى: ١- ٤

(٢) سورة النمل: ٦٦

وهذه الآية عود على البدء، فصار الكلام كحلقة مفرغة، كأنه قيل أن هذا الكتاب الإلهي هدى للمتقين، وهم الذين أوصافهم كذا وكذا، و أولئك على هدى من ربهم. فإن انتفاعهم بالهدى الثاني دليل على الهدى الأول. وهذا وجه من التأويل، وسيأتيك بيانه.

واعلم أن هذه الجملة تتضمن من جوامع الكلم و لوامع الحكم ماستطلع على طرف منها عن قريب. وإنما نبهتك ههنا لكي تختار من التأويل ما كان أجمع وأوسع وأحسن وأبين. وبعد استيفائك النظر في الفصول الآتية يتضح لك أبواب من البلاغة فاكتفينا في هذا الفصل ببعض الإشارات.

١٤- تـــذكـــرة

نعقد فصلا مستقلا في تعريضات السورة باليهود. أما قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَرَيْبَ فِيهِ﴾ فاعلم أن الكتب السابقة قد دخل فيها الريب، فكأنه قيل لليهود تعريضا أن الكتاب الذي في أيديكم الآن فقد ارتبتم فيه ولذلك لاتهتدون به وبقيتم حيارى، كما قال يرمياه النبي في ٨: ٨، وكما جاء في القرآن: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾(١)، فالآن عليكم أن تؤمنوا بهذا الكتاب الذي جاء غضا طريا من ربكم مصدقا لما وعدتم، وقد أمرتم بالإيمان به.

واعلم أن شريعتهم بنيت على خشية الرب، ووعدوا بالرحمة مرة أخرى على شرط التقوى، كما قال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، فإنهم كلما غاب عنهم نبيهم

(١) سورة هود: ١١٠

(٢) سورة الأعراف: ١٥٦

تقهقروا، كما دل عليه التوراة والقرآن.

وأما قوله تعالى: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، فقد تركوا الصلاة وغلب عليهم الشح حتى ﴿قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾(١). وأما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، فظاهر تعريضه باليهود.

* * * * * * * *

١٥- تأويل الكلم والجمل

قوله تعالى: ﴿الـــم﴾ قد سبق أن تأويل هذه الكلمة ظاهر لاخفاء عليه، فإنها اسم لهذه السورة. وأما وجه التسمية فليس ذلك في شئ من التأويل، وحالها في ذلك كحال غيرها من الأسماء مما لا نعلم وجه اختصاصها بمسمياتها. ولكن مع ذلك لا شك في أن هذه التسمية لكونه من الله الحكيم لا تخلو عن حكمة، ولا سيما إذ وضعت في اول القرآن. ولذلك تدبر العلماء فيها، ونحن نذكر ما يتعلق بها في فصل (١٦).

أما تأويل اسم الكتاب فاعلم أن الأسماء التي لا تصير أعلاما لمسمياتها تدل عليها كما هي بصفاتها. وعلى هذا فاسم الكتاب يدل على جميع أوصاف مسماه. ولذلك عرف الله تعالى كتبه ولا سيما القرآن بأسماء وأوصاف ليتم لنا تصور المسمى حسب وسعنا. فسماه: الهدى، والبينة، والنور، والبصيرة، والحق، والصدق، والبرهان، والسلطان، وكتاب الله، وكلام الله، والصحف، والزبور، والكتاب، والقرآن، وأحسن الحديث، وفصل الخطاب، والبيان، والموعظة، والذكرى، والتذكرة، والنذير، والبشرى، والشاهد، والمهيمن، والعلي، والحكيم. والقيم، المحكم، والإمام، والصراط المستقيم، والمتشابه، والمثاني، والمبارك، والحكمة، والروح، والأمر، والوحي، والكلمة. والضياء، والشفاء، والرزق، والرحمة. الرسالة،

(١) سورة آل عمران: ١٨١

وهذه الآية عود على البدء، فصار الكلام كحلقة مفرغة، كأنه قيل أن هذا الكتاب الإلهي هدى للمتقين، وهم الذين أوصافهم كذا وكذا، و أولئك على هدى من ربهم. فإن انتفاعهم بالهدى الثاني دليل على الهدى الأول. وهذا وجه من التأويل، وسيأتيك بيانه.

واعلم أن هذه الجملة تتضمن من جوامع الكلم و لوامع الحكم ماستطلع على طرف منها عن قريب. وإنما نبهتك ههنا لكي تختار من التأويل ما كان أجمع وأوسع وأحسن وأبين. وبعد استيفائك النظر في الفصول الآتية يتضح لك أبواب من البلاغة فاكتفينا في هذا الفصل ببعض الإشارات.

١٤- تذكرة

نعقد فصلا مستقلا في تعريضات السورة باليهود. أما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيهِ﴾ فاعلم أن الكتب السابقة قد دخل فيها الريب، فكأنه قيل لليهود تعريضا أن الكتاب الذي في أيديكم الآن فقد ارتبتم فيه ولذلك لاتهتدون به وبقيتم حيارى، كما قال يرمياه النبي في ٨: ٨، وكما جاء في القرآن: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾(١)، فالآن عليكم أن تؤمنوا بهذا الكتاب الذي جاء غضا طريا من ربكم مصدقا لما وعدتم، وقد أمرتم بالإيمان به.

واعلم أن شريعتهم بنيت على خشية الرب، ووعدوا بالرحمة مرة أخرى على شرط التقوى، كما قال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، فإنهم كلما غاب عنهم نبيهم

(١) سورة هود: ١١٠

(٢) سورة الأعراف: ١٥٦

تقهقروا، كما دل عليه التوراة والقرآن.

وأما قوله تعالى: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، فقد تركوا الصلاة وغلب عليهم الشح حتى ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾(١). وأما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، فظاهر تعريضه باليهود.

* * * * * * * *

١٥- تأويل الكلم والجمل

قوله تعالى: ﴿الم﴾ قد سبق أن تأويل هذه الكلمة ظاهر لاخفاء عليه، فإنها اسم لهذه السورة. وأما وجه التسمية فليس ذلك في شيء من التأويل، وحالها في ذلك كحال غيرها من الأسماء مما لا نعلم وجه اختصاصها بتسمياتها. ولكن مع ذلك لا شك في أن هذه التسمية لكونه من الله الحكيم لا تخلو عن حكمة، ولا سيما إذ وضعت في اول القرآن. ولذلك تدبر العلماء فيها، ونحن نذكر ما يتعلق بها في فصل (١٦).

أما تأويل اسم الكتاب فاعلم أن الأسماء التي لا تصير أعلاما لمسمياتها تدل عليها كما هي بصفاتها. وعلى هذا فاسم الكتاب يدل على جميع أوصاف مسماه. ولذلك عرف الله تعالى كتبه ولا سيما القرآن بأسماء وأوصاف ليتم لنا تصور المسمى حسب وسعنا. فسماه: الهدى، والبينة، والنور، والبصيرة، والحق، والصدق، والبرهان، والسلطان، وكتاب الله، وكلام الله، والصحف، والزبور، والكتاب، والقرآن، وأحسن الحديث، وفصل الخطاب، والبيان، والموعظة، والذكرى، والتذكرة، والنذير، والبشرى، والشاهد، والمهيمن، والعلي، والحكيم. والقيم، المحكم، والإمام، والصراط المستقيم، والمتشابه، والمثاني، والمبارك، والحكمة، والروح، والأمر، والوحي، والكلمة. والضياء، والشفاء، والرزق، والرحمة. الرسالة،

(١) سورة آل عمران: ١٨١

والبلاغ، والذكر، والتنزيل. والميزان، والفرقان، والتبيان، والتفصيل، وأسماء أخر.

أما مرادفة لما ذكرنا مثل التوراة، فإنها كالفرقان، والكتاب بمعنى الشريعة؛ ومثل الإنجيل فإنه كالبشرى، أو مركبة منها، كالذكر الحكيم والكتاب المبين.

وربما عرفه بوصف كالعزيز، والمجيد، والكريم. وربما عرفه بفعل دل على وصف كالمحكم، والمفصل وأمثال ذلك. ثم سماه بالحروف المقطعات لحكمة ذكرناها في التدبر. واكتفينا ههنا بمجرد ذكر هذه الأسماء، فإن شرح معانيها يأتيك في مواضعها إن شاء الله تعالى.

هذا، و أما تأويل الجملة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ فقد مر في الفصل التاسع أن معظم الاحتجاج في هذه السورة متوجه إلى اليهود، وقد وعدهم الله تعالى في سفر التثنية أنه يبعث لهم من إخوتهم نبيا، ويضع كلامه في فمه، ويكمل به الشريعة، وينتقم به من أعدائهم، ويعاقب من لا يسمع له. وجعل من علامته الخاصة:

١ـ أن يتكلم باسم الله

٢ـ وأن يصدق ما يخبرهم به

٣ـ وأن يبقى حتى يعلو أمره.

وقد وجدوا هذه العلامات كلها صادقة في هذا النبي بعد ما هاجر إلى المدينة وأذعن له أهلها، و لم يقدر أعداؤه على قتله وإطفاء نوره. والسورة نزلت بعد التمكن في المدينة.

فلما قيل لهم: ﴿ذلك الكتب﴾ فكأنه قيل لهم ذلك هو الكتاب الموعود. وقد كانت اليهود تنتظر هذا النبي وهذا الكتاب، كما جاء في هذه السورة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ (أي حسبما وعدهم الله في كتابهم) وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُوْنَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا (أي القرآن المجيد) كَفَرُوا

بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(١). أي يأتيهم العقاب حسب ذلك الوعد.

وقوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ توكيد لهذا الخبر. أي كون هذا الكتاب منزلا من الله تعالى لا ريب فيه ـ

١ـ لما أنه دليل بنفسه على كونه كتاب الله

٢ـ ولما قد عرفتم من العلامات الصادقة.

و إذ كان الخطاب عاما، وكان تنزيله من الله ظاهرا من نفس الكتاب على اليهود والكافرين معا، لم يصرح بالذي ذكرنا من كونه حسب الوعد الذي في التوراة، ليكون أعم من ذلك الوعد. فإن الله تعالى وعد بذلك في الإنجيل أيضا، وقد وعد به آدم عليه السلام، كما سيأتيك ذكره في تأويل ﴿هُدًى﴾.

وقد مر أن الكتاب يطلق كثيرا على كتاب الله، فذلك هو المراد ههنا. وقد مر أيضا أن نظائر ذلك لم تأت إلا على هذا التأليف. ثم قد فسر الآية أعلم الصحابة بالقرآن ـ عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ـ حسبما ذكرنا. فقد روى أنه قرأ بعدها قوله تعالى: ﴿الـم. تَنْزِيْلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢). وكان من عادته في التفسير أن يقرأ من القرآن بالنظير. وقد أخطأ الرواة كثيرا فيما زعموا ذلك منه قراءة. وهذا يتضح من تتبع ما ذكروا من قراءاته وقراءات الصحابة.

هذا، ثم لهذا التأويل من جهة المعنى نظائر كثيرة في القرآن، فإن كثيرا من أوائل السورة جاء بمثل ذلك مصرحا، والقرآن يفسر بعضه بعضا. مثلا: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَبِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(٣). أيضا: ﴿حـم. تَنْزِيْلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(٤).

---

(١) الآية: ٨٩

(٢) سورة السجدة: ١- ٢.

(٣) سورة الزمر:١، سورة الجاثية: ٢، سورة الأحقاف: ٢

(٤) سورة غافر : ١- ٢

أيضا: ﴿حم. تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾(١). وأيضا: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾(٢). فالمقصود ههنا نفى الريب عنه في كونه منزلا من الله، لا أنه صحيح المعاني.

ثم إن ذلك أحسن تأويلا من جعل الجملة خبرا و﴿ذلك الكتاب﴾ مبتدأ له، بمعنى أن هذا الكتاب لا مظنة فيه للريب. فإن كثيرا من الكتب الهندسية خالية عن الريب ولكنها ليست منزلة من عند الله. وأما الوجه الذي ذهبنا إليه فبالأولى ينتفي الريب عنه، لكونه من عند الله، ثم لكونه كتاب الله وجب التسليم له والانتفاع به. واعلم أن هذا أحسن أيضا من جهة موقع الكلام، لما فيه من التعريض، كما مر في الفصل السابق.

في قوله تعالى: ﴿هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أطلق اسم هدى على هذا الكتاب من جميع وجوه معناه، ولا وجه لتخصيص وجه دون وجه. والآن نبين من صفات القرآن ما يدل على كونه هدى من تلك الوجوه كلها، ولأجل التوضيح ننظر إلى كل صفة من مطلع.

المطلع الأول: كون القرآن نورا وبصيرة وضياء حسب الوجه الأول للهدى، كما مر. وبيان ذلك أن الله تعالى كما نفخ في الإنسان بعد تسوية بنيته من روح القدس فصار ذا عقل وتمييز بين الخير والشر مكلفا بالأمر والنهي، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(٣)، فكذلك أمده بروح منه مرة بعد مرة بواسطة رسله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِيْ مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(٤).

(١) سورة فصلت: ١- ٢

(٢) سورة النجم: ١- ٤

(٣) سورة الشمس: ٧- ٨

(٤) سورة الشورى: ٥٢

فأنزل الوحي على قلوب الأنبياء روحا ونورا، وبه أحيى القلوب وأضاءها، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾(١). ولذلك سمى كتابه هدى، ونورا، وبصائر للناس، وضياء، وحكمة في غيرما آية. وبالجملة فالقرآن ليس مجرد القول بل هو نور و روح يختلط بنور القلب وروحه، فيزيده ضياء وقوة. فهو مدد لما أودع الله فطرة الإنسان من النور والبصيرة.

المطلع الثاني: كون القرآن دليلا يهتدى به حسب الوجه الثاني للهدى، كما مر. وبيان ذلك أن القرآن كما هو دليل على طرق السعادة والفلاح فكذلك هو دليل على نفسه، فلا يحتاج إلى دليل خارج. ويؤيد هذا التأويل وصفه بالبينة، والميزان، والفرقان. وهذا الوصف غير مبائن للوصف الأول بل يلزمه. فإن النور، والبينة، والضياء، يكون دليلا على غيره ولا يحتاج إلى دليل آخر، فهو دليل على نفسه. ويؤيد هذا التأويل إطلاق الآية على كل جملة من القرآن. والآية في كلام العرب معناها: الدليل والعَلَم على شئ، متلوا كان أو مشهودا. قال تعالى بعد ذكر الآيات المشهودة في الخلق: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ. وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ. مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَيُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾(٢). فجعل الدلائل المشهودة والوحي المتلو لغاية المطابقة بينهما شيئا واحدا، وسماهما آية وهدى.

(١) سورة الأنعام: ١٢٢

(٢) سورة الجاثية: ٦- ١١

المطلع الثالث: كون القرآن على غاية الاستقامة في الإيصال إلى رضوان الله تعالى، فصار أحق بأن يسمى ﴿هدى﴾ بمعنى الصراط المستقيم حسب الوجه الثالث للهدى، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا. قَيِّمًا لِّيُنْذِرَ﴾ الآية(١). أي كتابا كصراط مستقيم لا عوج فيه، فهو على غاية الاستقامة لا يضل عليه الساري.

وهكذا قال النابغة الجعدى رضى الله عنه فيما أنشد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم:

أتيتُ رسول الله إذ جاء بالهُدَى ويَتْلُو كتابًا كالمجَرَّةِ نَيِّرَا(٢)

أي طريقا واضحا كالمجرة. والعرب تضرب المجرة مثلا للطريق الواضح الذي لا يضل الساري عليه. قال تأبط شرا:

يرى الوحشةَ الأنسَ الأنيسَ ويهتدي بحيث اهتدت أم النجوم الشوابكِ(٣)

المطلع الرابع: كون القرآن مسمى بالمصدر، وذلك لكمال ظهور فعل الهداية به. فصار جديرا بأن يسميه الله تعالى بالهدى بالمعنى المصدري حسب الوجه الرابع، كما سماه رحمته لظهور فعل رحمته به. و يؤيده قوله تعالى: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾(٤). فأشار بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى فعل ﴿هدَيْناهُمْ﴾ وأخبر عنه بقوله: ﴿هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، أي ذلك فعل هداه هو هدى الله يهدي به من يشاء من عباده. وهكذا قال

(١) سورة الكهف: ١- ٢
(٢) جمهرة أشعار العرب: ٧٧٤
(٣) شرح الحماسة للمرزوقى: ٩٩
(٤) سورة الأنعام: ٨٧- ٨٨

تعالى: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(١). وأيضا: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢). فقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ اللهُ﴾ و﴿نوراً نَّهْدِى بِهِ﴾ يدل على أن القرآن هو مظهر فعل الهداية ومجراه، فأطلق عليه اسم الفعل لغاية الاتحاد بينهما. وهذا يدل على رفيع منزلة حقيقة القرآن من جهة كونه كلمة الله و روحا من أمره، كما مر في المطلع الأول.

المطلع الخامس: كون القرآن مسمى ﴿هُدًى﴾ لوجوه ذكرناها، فهدى اسم لجميع ما أنزل الله. وأطلق الله هذا الاسم على القرآن ههنا بيانا لإنجاز ما وعد الإنسان في الأول. وتفصيل هذا الإجمال أن الرب تعالى لكونه أحسن الخالقين، ومخرج الخبء في السموات والأرضين، ولكونه الرب الأكرم والمتم النعم أراد أن يرفع الإنسان ويقربه منه ويهيأ له أسباب الهداية بعد ما ابتلاه بهذه الدنيا وزخارفها. فقدر أن يرسل إليهم كتابا ويدعوهم به إلى كمال الهدى، كما قال تعالى حين أرسلهم إلى الدنيا: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣). أى إني أبعث فيكم الرسل يتلون عليكم كتاب الله، فمن عمل به أفلح، كما فسره في موضع آخر حيث قال تعالى: ﴿يَبَنِى آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٤). فلما نعت كتابه ههنا بـ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أشار إلى ذلك الوعد. أى ذلك هو الكتاب الموعود الذي يرجعكم إلى رضوان الرب بعد التزكية، فيدوم لكم ماضيعتموه.

(١) سورة الشورى: ٥٢
(٢) سورة المائدة: ١٥- ١٦
(٣) سورة البقرة: ٣٨
(٤) سورة الأعراف: ٣٥

ومما ذكرنا من تأويل ﴿هدىً﴾ حين يراد به كتاب الله يتبين أنه جامع لعدة أسماء ــ وذلك هو البصيرة، والضياء، والنور، والبينة، وشفاء لما في الصدور، والميزان، والفرقان، والقيم، والصراط المستقيم، والروح، والأمر، والكلمة.

وقوله تعالى: ﴿للمتقين﴾ أما اللام فلبيان محل ظهور ذلك الاسم. وقد وصف الله تعالى كتابه بأسماء، فربما ذكرها مطلقا وربما ذكر مواقع ظهورها، لنعلم استحقاقه بهذه الأسماء. وإنما يستحق الشئ اسما بالنظر إلى سلامة الحال أو كثرتها. كما تسمى الشمس ضياء، وإنما هي ضياء لأهل البصر. و كما تسمى المطر بركة، فإنما هو كذلك للأرض الطيبة. فبيّن أن هذه السورة هدى بنفسه، وإنما يحصل الهدى منه للمتقين. وقد كثر في القرآن نظائر ذلك، مثلا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾(١). وقد أشرنا إلى فائدة هذا البيان في باب البلاغة، وسنزيد عليه في باب التدبر.

وإنما نذكر في التأويل ما يزيل شبهة من يتوهم أن القرآن إن كان هدى لمن كان على التقوى من قبل كان تحصيلا للحاصل. فنقول:

أما أولاً، فلا دلالة في هذه الكلمة على أنهم المتقون من قبل. والقرآن دل كثيرا على أن الاتقاء يحصل بوسيلة ذكر الله واتباعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(٢). أيضا: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾(٣). أيضا: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا﴾(٤). قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾(٥). فيكون التأويل: إنه هدى لمن يسمعه ثم يتقي،

(١) سورة آل عمران: ١٣، سورة النور: ٤٤
(٢) سورة الأنعام: ٦٩
(٣) سورة الأنعام: ١٥٥
(٤) سورة الأعراف: ٦٣
(٥) سورة طه: ١١٣

كما قال: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

وأما ثانيا، فلا يلزم من تقدم الاتقاء كماله. فعلى هذا إنما يهتدي بالقرآن من كان له نصيب ما من التقوى. والقرآن دل كثيرا على أن الإنذار لا ينفع الغافلين والمستكبرين.

وأما ثالثا، فإن النبي كان يوقظهم بأوائل الوحي حتى إذا هيج فيهم التقوى واستعدوا لمزيدها أنزل إليهم هذه السورة، فصارت هدى لهؤلاء. والذين لم ينتفعوا بالذكر الأول، فأولئك هم الذين ذكرهم بعد هذه الجملة. فهذه الوجوه مزيلة للشبهة.

وأما توضيح الأمر، فاعلم أن أصل الهدى والتقوى مودع في الفطرة، وأحدهما ينتج الآخر، فهما مستمران ويزيدان. والتقوى الفطرية تابعة الهدى الفطري، ثم بعد استعمال النظر وسمع الذكر يزيد الهدى بمدد التقوى الفطرية. فمن بقي على سلامة الفطرة و لم يفسدها بالسيآت، فهو إذا نظر في آيات الله أو سمع دعوة النبي انبعثت فيه التقوى الكامنة كانبعاث سائر القوى الكامنة عند بواعثها. وقد جاء في القرآن كثيرا أن الاهتداء به مبنى على استعداد له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾(٢)، فنظر في آيات الفطرة فتذكر كما هو حال الطبقة العليا كالأنبياء، وبعد ذلك من هم السابقون إلى دعوتهم كما ذكرهم بعد ذلك بقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٣). أيضا: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(٤).

وجملة الكلام أن للتقوى مراتب: فبعضها شرط للاهتداء بالقرآن، وبعضها

(١) سورة الأعراف: ١٨٨
(٢) سورة ق: ٣٧
(٣) الآية: ٣٧
(٤) سورة الزمر: ١٨

نتيجة له، ثم هذه سبب لمزيد الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(١) أي آتاهم مزيد التقوى، فإن أصل التقوى لا بد من تقدمه على الاهتداء. فالهدى والتقوى يتعاقبان، وكلما زادت التقوى زاد الهدى. ومن كان أشدهم تقاة كان أسبقهم وأشدهم اهتداء بالذكر. هذا، وسيأتيك مزيد البيان لموقع التقوى في باب التدبر والنظم إن شاء الله تعالى.

وأما المتقين، فأراد به الذين آمنوا و يؤمنون، فجعلها كالعلم للمؤمنين بالحق. فبهذه الكلمة ذكر وصفا جامعا للمنتفعين بهداه، كما سيأتيك ذكره في الفصل الخامس عشر. وههنا إنما نذكر كونه جامعا من جهة إطلاقه.

فاعلم أنه لم يذكر ههنا مايتعلق به الاتقاء ليدل على كل ما يتقى. ومع كونه جامعا يظهر من موقع الكلام أن معظمه تقوى الله وخشيته الناشئة من النظر في آياته الدالة على صفاته على حسب مراتب الناظر. وأجمع وأكثر هذه المراتب خشية لزوم العواقب، أي خشية يوم الآخرة. وقد صرح القرآن بذلك في مواضع، ومنها قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ـ سُبْحَانَكَ ـ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(٢). فأدى الفكر أولا إلى ربوبيته، ثم إلى حكمته، ثم إلى تقديسه وكبريائه، ثم إلى خوف العذاب بناء على ما سبق النظر إليه، ثم إلى الفرار إليه والاستعاذة به. وكما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾(٣).

(١) سورة محمد: ١٧
(٢) سورة آل عمران: ١٩١
(٣) سورة يونس: ٥- ٦

وإنما قلنا أن موقع الكلام دل على ذلك، لما جاء بعده من تفصيل أوصاف المتقين. وهذا يتأكد لك بعد النظر في الفصول الآتية.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾. فيه بحسب الظاهر تأويلان:

الأول: أن تأخذ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ مطلقا جامعا لكل ما يتعلق به الإيمان. وعلى ذلك يكون ﴿بالغيب﴾ ظرفا، أي يؤمنون وهم بالغيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾(١). أي قبل مشاهدة الجزاء التي يخشى عندها الكافرون أيضا، فلا اعتبار لتلك الخشية. وأيضا: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾(٢). وأيضا: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾(٣). وإلى هذا التأويل ذهب الربيع بن أنس حيث قال: "يؤمنون: يخشون"(٤) فجعله مستغنيا من أن تكون الباء للصلة، ولذلك قال في تفسير ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: "آمنوا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولقائه، وآمنوا بالحياة بعد الموت"(٥)، فجعله جامعا.

وقول ابن جرير أن كل ذلك من الغيب لايصح، فإن الرسول ليس بغائب. وأرى أن الربيع إنما فسر ﴿يؤمنون﴾ بـ﴿يخشون﴾ لأنه أراد حقيقة الإيمان ونظر إلى نظير هذه الآية ــ وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾(٦). هذا من أحسن

(١) سورة الأنبياء: ٤٨- ٤٩
(٢) سورة فاطر: ١٨
(٣) سورة يوسف: ٥٢
(٤) تفسير الطبرى ١: ٢٣٥ رقم ٢٦٩
(٥) تفسير الطبرى ١: ٢٣٧ رقم ٢٧٦
(٦) سورة الأنفال: ٢- ٤

[illegible]

[illegible]

فإن قيل أن الباء بعد الإيمان لم تأت في غير هذا الموضع إلا للصلة. قلنا إن ﴿بالغيب﴾ لم تأت في غير هذا الموضع إلا ظرفا. فالاستدلال بالنظائر اللفظية سواء على الجانبين، بل كثرة مجيئه ظرفا لخشية الرب يؤيد كونه ظرفا للإيمان، فإنه من خشية الرب، كما فسره الربيع بن أنس.

فتبين أن قوله تعالى: ﴿يؤمنون﴾ على التأويل الصحيح صار لإطلاقه جامعا لكل ما يجب الإيمان به. وقد مر أن الكلم الجامع ربما ينظر إلى بعض الوجوه أولا، وإلى البواقي ثانيا، حسب موقعه، فهكذا ههنا. فالمراد بقوله: ﴿يؤمنون﴾: إيمانهم بالحق إيمانا جامعا. ومعظمه وأوله: الإيمان بالله وآياته الدالة على التوحيد والملك والمعاد، والإيمان بما نزل من هداه، فإن الموقع بيان ما يكون تفصيلا للتقوى. فإن من عرف أن لا ناصر ولا مالك إلا الله، وأن لاحكم إلا له، وأنه لابد من لقائه غشيته الخشية، والتمس طرق التقرب إليه، وعطش إلى هداه الذي يرسل به أنبياءه ولذلك قال الربيع بن أنس: "﴿يؤمنون﴾: يخشون". كما مر.

ويؤيد ما ذكرنا أن القرآن صرح كثيرا بكون التوحيد والرسالة والمعاد أصول ما يؤمن به. فربما يذكر الله وآياته، وربما يذكر الله ولقاءه، وربما يذكر الله ورسله، فجعل هذه الثلاث أصول الإيمان. فإذا أطلق اللفظ فهمناه حسب القرينة.

وأما الشواهد فلنكتف بذكر بعضها، فمنها قوله تعالى: ﴿الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾(١). أيضا: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهَ﴾(٢). أيضا: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾(٣). أيضا: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾(٤). أيضا: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ

(١) سورة الأعراف: ١٥٨
(٢) سورة التحريم: ١٢
(٣) سورة الجاثية: ٦
(٤) سورة المؤمنون: ٥٨- ٥٩

الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١). أيضا: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَومَ تُنْسَى. وَكَذَلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى. أَفَلَمْ يَهْدِلَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِى النُّهَى﴾(٢). وهكذا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ﴾(٣). أيضا: ﴿مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(٤). أيضا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَومِ الآخِرِ﴾(٥). وهذا كثير.

وهكذا: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾(٦). أيضا: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى﴾(٧). أيضا ـ وهو الجامع للثلاث: ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُوْلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾(٨).

فتبين أن جماع هذا الإيمان هو الإيمان بالله وحده بنور الفطرة والنظر في آياته، وذلك يهدي إلى الجميع. وقد صرح القرآن بذلك أيضا كثيرا، فمنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾(٩). أيضا: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ

(١) سورة البروج: ٨- ٩
(٢) سورة طه: ١٢٥- ١٢٨
(٣) سورة العنكبوت: ٢٣
(٤) سورة البقرة: ٢٣٢
(٥) سورة البقرة: ٨
(٦) سورة الفتح: ١٣
(٧) سورة المائدة: ١١١
(٨) سورة النساء: ١٣٦
(٩) سورة التغابن: ١١

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(١). وهذا كثير.

وجملة الكلام أن إطلاق اللفظ ههنا يدل على وصف جامع، أصله الإيمان بالله المركوز في الفطرة، الظاهر من النظر في آياته، الشامل على التوحيد والرسالة والمعاد، كما دل عليه ما سبق وما لحق من التفصيل. وسيأتيك بعض الذكر في الفصول الآتية.

قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ بين "صلى" و"أقام الصلوة" فرق لطيف، لما في الإقامة دلالة على التسوية. فأشار إلى ما يلزم مراعاته في الصلاة، وذلك أمور:

الأول: هو الإخلاص، فتكون الصلاة متوجهة إلى الرب تعالى وحده. فذلك أول تسويتها، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(٢). أيضا: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾(٣). ومن ههنا التوجه إلى مركز التوحيد والدين. وقال تعالى فيما أمر بني إسرائيل. ﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾(٤).

والثاني: دوام التوجه إلى غايتها ـ وهي الذكر والخشوع. فالالتفات إلى خلاف غايتها تعويجها، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾(٥). وأيضا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٦- ٢٥٧

(٢) سورة الأعراف: ٢٩

(٣) سورة الروم: ٣٠

(٤) سورة يونس: ٨٧

(٥) سورة طه: ١٤

(٦) سورة المؤمنون: ١- ٣

والثالث: أداؤها حسبما علمنا الله من غير تقصير. وإنما رخص في القصر عند الضرورة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾(١). وأيضا: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا. وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ﴾ الآية(٢). ومن ذلك تسوية الصفوف والتعديل، كما جاء في الحديث: "تسوية الصفوف من إقامة الصلاة"(٣).

والرابع: أداؤها لأوقاتها، كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ الآية(٤). وهو المراد بالمحافظة، كما قال تعالى: ﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾(٥). أيضا: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(٦).

والخامس: الدوام عليها، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾(٧).

والسادس: إقامة الجماعة والجمعة. وذلك إذا أضيفت إلى الأمة أو الإمام، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٨). وقال تعالى حكاية عن دعاء إبراهيم عليه

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٩

(٢) سورة النساء: ١٠١- ١٠٢

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان. باب إقامة الصف من تمام الصلاة. رقم الحديث: ٧٢٣. وتمام الحديث: سوّوا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة.

(٤) سورة الإسراء: ٧٨

(٥) سورة البقرة: ٢٣٨

(٦) سورة الأنعام: ٩٢

(٧) سورة المعارج: ٢٣

(٨) سورة الحج: ٤١

السلام: ﴿رَّبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾(١). وله نظائر كثيرة.

وبالجملة ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يدل على وجوه كثيرة حسنة. وهذا تأويل الإقامة متفق عليه عند السلف رحمهم الله. فالقول بأن المراد بالإقامة نفس الأداء، وإنما عبر عنه بالإقامة لاشتمالها على القيام، كما عبر عنها بالقنوت والركوع والسجود والتسبيح والذكر، فضعيف جدا. فإن في هذه الكلمات دلالة على أمرهم في الصلاة، و لم يعبر عن الصلاة بمحض القيام والقعود بل عبر عنها بالتسبيح والركوع وغيرهما مما يدل على تضرع وإنابة و ذكر. وأيضا محض اسم الصلاة جاء في وصف غير المؤمنين، وإقامة الصلاة لم تجئ إلا في مواقع التحسين، فلابد أن فيها دلالة زائدة مناسبة بالمدح.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قد مر في فصل البلاغة ما دل عليه هذه الجملة، فراجعه. وستجد مزيدا في الفصل السادس عشر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية. قد مر في فصل البلاغة أن العبارة لا تدل على أن المراد بهذا الوصف غير الذين سبق ذكرهم. فلا يصح ما قيل من أن المراد به: من آمن من أهل الكتاب، بل هذه الآية تشتمل كل مؤمن صحيح الإيمان. والآن نستدل عليه بالنظائر، فنقول إن الله تعالى ذكر كثيرا في وصف هذه الأمة أنهم يؤمنون بكل ما أنزل الله تعالى، كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٢). فجعل هذا الإيمان من حقيقة الإسلام، وقد

(١) سورة إبراهيم: ٣٧

(٢) سورة البقرة: ١٣٦

سماهم مسلمين من قبل. ويشبه هذه الآية ما جاء في سورة آل عمران: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية(١) وهكذا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾(٢). وكل ذلك جاء في الاحتجاج بأهل الكتاب على سبيل ذكر العلامة الفارقة بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم وبينهم. فإنا آمنا بكل ما أنزل الله من جهة كونه منزلا من الله، وإنهم آمنوا بما عندهم على سبيل التقليد للسلف والجمود على العادة.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَّبِّهِمْ﴾ الآية. هذه الجملة راجعة إلى الذين ذكر الله تعالى صفاتهم الست من التقوى، والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، والإنفاق، والإيمان بجميع ما أنزل الله، والإيقان بالآخرة. فبين أن هذا الكتاب هدى لهؤلاء، فيزدادون به هدى ونورا وعلما وحكمة، ويتخذونه سنة وشريعة، فلا يزالون مشتغلين به، فهم على هدى دائم. والجملة لكونها اسمية دلت على هذا الدوام، وفيها أيضا إشارة إلى الهدى السابق، فكأنه قيل: أولئك هم باقون على نور الفطرة - فإن الله تعالى هدى الإنسان فطرة - فلم يضيعوا ما أعطاهم الله أولا، واتصل به الهدى الذي وجدوه بهذا الكتاب. فهؤلاء الذين ذكر أوصافهم هم الباقون على نور الفطرة. ولذلك صار القرآن هدى لهؤلاء. ولا منافاة بين التأويلين لعموم ﴿هدى﴾، ولما جاءت النظائر بأمرين:

١ـ انتفاع أهل البصيرة بالقرآن، وهذا كثير.

٢ـ ودوام انتفاعهم به في المستقبل، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ تُؤْتِى

(١) سورة آل عمران: ٨٤

(٢) سورة المائدة: ٥٩

أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١). وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾(٢). ومن الظاهر أن القرآن يزداد المهتدي به نورا وحكمة، وقد سماه الله تعالى مباركا لما يكثر به الخير لمن تدبر فيه، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾(٣). فهولاء الذين كانوا على نور من ربهم، واتصل به نور القرآن فازدادوا به نورا على نور، وأصلحوا به ما كانوا مستعدين له، فأولئك الذين حازوا الفلاح. ولله الحمد في الأولى والآخرة.

١٦- ذكر بعض مواقف التدبر في آيات (١- ٥)

اعلم أن في هذه الآيات مواقف كثيرة للتدبر، وقد أشرنا إلى طرف منها في الفصول السابقة. وتفصيل كلها يطول جدا، وبعض هذه الآيات لها نظائر في القرآن، فلا حاجة إلى استيفاء بيانها. ههنا فلنقتصر الآن على ما هو أنسب بهذا المقام، ونورده في مواقف آتية:

الموقف الأول في الحروف المقطعات.

قد تفكر العلماء في وجه التسمية بهذه الحروف وذهبوا في كل مذهب، ووجدنا لهم فيه حسبما اطلعنا تسعة وعشرين قولا. ولكني لم أجد فيها تمسكا بالقرآن، فليس لها محل في كتابنا هذا. ولولا في القرآن إشارة إلى هذا الأمر لطويناه على غره، ولكني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

(١) سورة إبراهيم: ٢٤- ٢٥

(٢) سورة مريم: ٧٦

(٣) سورة ص: ٢٩

فاعلم أن العرب إذا وضعوا لشئ اسما جديدا عمدوا إلى ما يناسب المسمى، أو يدل على خاصة مميزة، كما ترى فيما لقبوا به بعض الرجال كالملك الضليل، والمرقش، وتأبط شرا. فإن الاسم من الوسم، فما يكون علامة يصلح للإسمية. وهكذا سمي بعض السور مثل الروم والنمل والبقرة والعنكبوت. وإذ قد ثبت أن هذه الحروف المقطعات أسماء للسور، فلا بد أن تكون الحروف ذوات المعاني والمركبات منها مثل الأسماء المركبة، كمعدي كرب.

وقد علمنا أن أسماء الحروف في لسان العرب لم تكن في الأصل أسماء للأصوات المجردة، كما هي في الهندية والإنكليزية، بل كانت أسماء للأشياء وتماثيل لها. ولذلك بقي كثير منها ملفوظة بأسماء تلك الأشياء، ومكتوبة بهيآت فيها بقايا تماثيل تلك الأشياء، كما أن حروف أهل الصين بقايا تماثيل كانت حروفهم في الأوائل على هيآتها.

وقد علمنا طرفا من معاني أسماء حروفها، مثلا "الف" فإنها اسم البقرة وكانت على صورة رأس بقرة، و"الباء" فإنها تسمى بالعبرانية: بيت، أي البيت، "والجيم"ـ فاسمها بالعبرانية: جيمل، أي الجمل. وهكذا في الأخر.

وهذا أمر ثابت معلوم، لا يخفى على من له معرفة بتاريخ الكتابة العربية. فإنا نعلم أن حروفنا هذبت من العبرانية التي أخذت من حروف العرب القديمة التي أخذ عنهم القبط الكتابة بالتماثيل التي توجد الآن على الأهرام المصرية، ولكنهم غيروها وابتدعوا فيها حسب أفكارهم.

ذلك، ثم قد دلنا القرآن على هذا السر بما قد سمى سورة بحرف بقيت في لسان العرب دالة على معناها، وهي حرف "ن"، فإنها الحوت، والسورة المسماة بها جاء فيها ذكر يونس عليه السلام ولم يذكر فيها غيره من الأنبياء، وذكره الله تعالى فيها باسم "صاحب الحوت". ففي ذلك إشارة للمتوسم إلى وجه التسمية.

فإن كانت هذه السورة قد سميت بحرف "ن" لأجل معنى هذه الحرف، فعسى أن تكون السور الباقية المسماة بالحروف أيضا قد سميت حسب معانيها الأولية.

وهذا يحثنا على النظر في المعاني التي كانت حروفنا دالة عليها في الخط التمثالي. فلما نظرنا فيها وجدنا مايؤيد هذا الرأي، فإن حرف "ط" صورتها في العبرانية " ט "ومعناها: الحية، وكانت على صورة حية رفعت أعلاها وجعلت أسفلها كحلقة، ونجد السورة السماة بـ "طه" تبتدئ بعد التمهيد بقصة موسى عليه السلام وقلب عصاه حية.

ثم سبرنا هذا القياس طرداً وعكسا، فوجدنا أن السور الأخر التي سماها الله تعالى بأسماء تبتدئ بالطاء أعني ﴿طسم﴾، و﴿طس﴾، و﴿طسم﴾ كلها تبتدئ بقصة موسى عليه السلام مع ذكر عصاه وانقلابها حية. وكذلك وجدنا أن غير هذه السور الأربع إما لاتذكر قصة موسى وإما تذكرها ـ وهي كثيرة ـ فلا تذكر الحية إلا سورة الأعراف. ولكنها جاءت بقصة موسى عليه السلام تابعة لقصص السابقين من الأنبياء من نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام، فلم تكن حرف الطاء أولى بها. فهذه السور كلها قد خصت بموسى عليه السلام، ولست أول من جعل هذه السور مخصوصة بموسى عليه السلام. فإن بعض العلماء اطلعوا على طرف منه، فقال السخاوي: إن سورة "طه" تسمى سورة الكليم. وسماها الهذلي في الكامل سورة موسى"(١).

هذا، وأما ﴿الم﴾ فالألف صورتها رأس البقرة، وكانت عندهم دالة على "الإله الواحد". ولم نجد السور التي تبتدئ أسماؤها بالألف إلا ومن أعظم مطالبها: الإيمان بالله الواحد. ولكن التوحيد أغلب تعليم القرآن، فهذا ليس مما يستدل به. وقصاراه أنه لا يخالف ما اطلعنا عليه. وإني لا ادعي المعرفة بجميع معاني الحروف،

(١) انظر الإتقان ١: ٧٤.

ولكن العلم القليل الذي حصل لنا يؤيد ما استدللنا عليه من القرآن. وهذا القدر يكفي لمن أراد مزيد العلم، ووجد لنفسه فرصة ونشاطا للخوض في هذه الغمرة ـ وفوق كل ذي علم عليم. وأما الحكمة في هذه التسمية، فنذكرها في الموقف الثاني.

الموقف الثاني في حكمة هذه التسمية.

فاعلم أن الإنسان لم يستفرغ إلى الآن ما أودع الله من الفوائد في المخلوقات، فكيف بكلامه الحكيم؟ ولكن نذكر بعضها ـ والقرآن لا تنقضي عجائبه.

الأولى ـ هي إيراد الدليل على كون القرآن معجزاً. وبيان ذلك أن المخاطب إما أهل الكتاب وإما الأميون. أما أهل الكتاب فقد غلوا في استنباط الحوادث من حروف التوراة وكان مبلغ علمهم حساب ابجد، فنظروا في أعداد الحروف، وربما ركبوا جملا حسب الأعداد ظنا وخرصا. ولكن العدد الخاص يحتمل جملا عديدة، فلا برهان فيه على أمر ما. ولذلك إذا سمعوا هذه الأسماء توهموا أنها خبر بمدة بقاء هذا الدين، كما روي من خبر مجيئ حُيَيٌّ بن أخطب اليهودي مع نفر من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وسواله عما أنزل إليه من هذه الحروف، وتوهمه أنها آجال هذه الأمة. ولكن الأسماء متفاوتة في الأعداد فاشتبه عليهم الأمر، وأقروا بذلك.ولعدم رسوخ هذه القاعدة لم يعتمدوا على حجة، فلم يمكنهم الإنكار ورجعوا بالعجز الظاهر(١).

وأما الأميون فأخذهم الرعب ووجدوا أمرا، عضالا فكان عجزهم أظهر.

ولا أريد بالإعجاز محض هذا القدر بل كونه معجزا باقيا إلى الأبد. وبيان ذلك أن الله تعالى قد أخبر عن هذا النبي وعرفهم إياه بخصائص، ومنها الإخبار بالغيب مما لا سبيل إليه بغير وحي من الله تعالى. ولا شك أن هذه المعاني للحروف لم يطلعوا عليها، ولذلك قال كثير من السلف أنها من أسوار الله تعالى، وإنما

(١) انظر الطبرى ١: ٢١٧- ٢١٨ رقم ٢٤٦ وابن هشام٢: ١٤٣- ١٤٤

ظهرت في هذا الزمان. فلا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يسمى السور بالمقطعات من قبل نفسه، وإنما أنز لها الله إليه بهذه الأسماء بعلمه، فلا بد أنها من وحي اللّه تعالى. فصارت من الآيات العامة للناس. ولم تكن الحاجة إلى هذا العلم في زمان البعثة، فإن العرب كانت في غنى عنه لما عرفوا إعجاز القرآن من جهة بلاغته الباهرة.

والثانية – هي الدلالة على تعلم الحكمة، فإن ذلك من أعظم الفوائد و أولاها بالحاجة، فإن الغافل البليد لايزال في عمى عن الحقائق والانتفاع بها. وبيان ذلك أن كثيرا من الناس يقفون على الظواهر وهم مطمئنون به، وآخرين يتدرجون من الظاهر إلى الباطن ومن المشهود إلى الخفي، وبذلك يمتازون عن البهائم. والقرآن كثير التنبيه على الفكر والنظر والتوسم والتدبر، وسياتيك شواهده في مواضعها. ففي أول كتابه جعل هذا الاسم ليستيقظوا عن سنة الغفلة والجمود على الظواهر، وبذلك يفتح لهم باب العلم والحكمة، وطريق النظر والفكر. وتعليم الحكمة ليس إظهار الحقائق بل إنشاء السوال وإحساس الإشكال. وعلى هذا الأصل بني تربية الإنسان وإخراج قواه. فما أعطاه الله تعالى مطلوبه بل أعطاه الحاجة والطلب – وهذا أكبر نعمة – وبذلك فضله على البهائم القليلة الحاجات العتيدة لها.

والثالثة – هي الدلالة على موضع القرآن بالنسبة إلى الإنسان. وذلك أن هذا الكتاب لم يأت كالتوراة بمحض الأحكام، ولا كالإنجيل بمحض البشارة بملكوت الله والإنتظار له، والتجرد عن الترقي في المعاش. بل جاء بنفس ملكوت الله، واستعمال جميع القوى الفطرية، والإشتغال بكل ما يربيه ويكمله بهذه الحياة التي جعلت سلما للحياة الأخرى الدائمة الباقية. فالقرآن خطاب إلى سائر القوى الفطرية؛ فجمع الحجة بالمعارف والحكم بالأعمال. فخاطب عقولهم وقلوبهم وأفكارهم وإحساساتهم، وحثهم على استعمال كل ما أودع فيه. فجعل مفتاح

هذا الكتاب ما يدل على كونه موضعا للجهد والتشمير، والنظر والتفكير. وقد صرح بذلك في مواضع لا تحصى. وبالجملة إن أول كلمته بعد الفاتحة دليل على موضعه ومحله بالنسبة إلى القوى الإنسانية، فهذا الكتاب على غاية التشابه بآيات الفطرة. وقد صرح القرآن بذلك في مواضع كثيرة.

الموقف الثالث في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي في حكمة الابتداء بمحض الدعوى والتأكيد عليها مع السكوت عن الدليل.

فاعلم إنا قد بينا أن كون القرآن منزلا من اللّه تعالى كان ظاهرا بينا عند المخاطبين، وما كان يمنعهم عن الإيمان به إلا غفلتهم وخلوهم عن شرط قبول الحق. والثابت الباهر لا يثبت لأن الدليل لا يكون أوضح منه، ولكن يحث على النظر فيه وينبه على شروط النظر، ويبطل الشبهات، ويخوف عن نتائج الغفلة ونبذ الحق الواضح. فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ﴾ وضع بين أيديهم الحق الباهر، وقوله تعالى: ﴿لاريب فيه﴾ نبه على غاية ظهوره. وبذلك نبه على أن من أنكر به فلا بد أن يتوجه إلى نفسه، بل فيها مرض فإنه يمنع عن قبول الحق بعد المعرفة، بل ربما يمنع عن نفس المعرفة، كما جاء في القرآن كثيرا.

ثم بعد ذلك نبه بقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أولا على وصف جامع للقرآن حسبما ذكرنا في المطالع الخمس في الفصل الخامس عشر من أن الهدى هو النور والبينة والفرقان والميزان والصراط وينبوع الهداية، فلا يعرف بغيره بل يعرف به غيره. فدل بذلك على طريق معرفته. كما إذا أخبرت عن شئ مثلا إنه لذيذ الطعم، جميل الشكل، لين المس، طيب الريح؛ أو فيه رواء أوشفاء فقد دللت على طريق معرفته بهذه الصفات بالمشاهدة والتجربة، كما ذكره القرآن كثيرا. ونورد بعضها منها في الموقف الرابع.

ثم نبه ثانيا على ما هو أصل الشرائط لمعرفة الحقائق. وبيان ذلك أن المعرفة

وفي هذه الجملة الأخيرة نبه على أكثر ما كان يمنعهم عن النظر الصحيح والتدبر، ودل على جماعها وهو كراهيتهم للحق. ثم نبه على سببها وهو عدم إيمانهم بالآخرة، وذلك يدل على خلوهم عن التقوى، فإن من أحب العدل لابد أن يؤمن بالجزاء. فعدم الإيمان بالآخرة هو الباعث على الغفلة، والإعراض عن الحق، والانهماك في الشهوات، والخروج عن التقوى.

الموقف الخامس في أن الدعوة إلى الحق بنفس الحق، والحث على النظر والتدبر لأقرب و أوضح وأرسخ وأنجح.

وذلك ظاهر بين وشهدت عليه النتائج لسبقة العلماء الراسخين إلى قبوله.

ثم إنه تعالى لوخاطبهم بما لم تشهد به عقولهم

١- لم تتم عليهم الحجة إلا بمعجزة على حدة، وحينئذ كانت تلك المعجزة هي حجة، لا ما ماخاطبهم به

٢- وكان إيمان السابقين خطأ، وإذعانا لأمر لم يثبت بعد

٣- وكان من طلب المعجزة للإيمان غير ملوم.

ولكنهم خوطبوا بالملامة والزجر على طلبهم إياها وإنكارهم بالحق الصريح. وقد ثبت أن طلبهم لم يكن إلا مكابرة وجحودا، فإنهم لم يؤمنوا بعد ظهور المعجزات أيضا. وفي ذلك آيات كثيرة، ونكتفي بذكر بعضها. قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ. وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾(١).

وكذلك نجد في الإنجيل توبيخا غليظا من عيسى عليه السلام على طلب

(١) سورة الأنعام: ١٠٩- ١١١

اليهود منه معجزة – متى (١٦: ٤): "جيل شرير فاسق يلتمس آية. ولا تعطى له آية إلا آية يونان (يونس) النبي. ثم تركهم ومضى" – وذلك لأن المنكر بالحق الصريح لا يؤمن ولن يؤمن بآية. فأقرب طرق الاحتجاج، وإثبات الحق، والدعوة إلى الرب أن جعل الله تعالى كتابه ما يذعنون له من غير واسطة، لما فيه من الجلاء والنور والشفاء لما في الصدور. وقد وجد ذلك أصحاب العقول الراسخة والقلوب السليمة، فآمنوا به، وإلى الآن يجدونه على هذه الصفة.

وأما كون القرآن بنفسه معجزة، فلا يناقض هذا الأصل بل يؤيده. فإن الكلام إذا كان فيه من نور الحق وسطوته ما يبهر العقول ويعجز الثقلين عن الإتيان بمثله كان أعظم في صفة التبيان، وإتمام الحجة، وإدحاض الباطل. فهو نور على نور وقوة على قوة مثل كثرة الشهادات الصادقة على أمر واحد. فاتضح مما قد منا أن كون القرآن منزلا من عند الله لا يحتاج إلى كونه معجزة بل كونه كتاب الله ظاهر بين، لما فيه من النور والسكينة والقدس والطهارة، كما في سائر ما أنزل الله من الكتب، ومع ذلك إنه بلغ في هذه الصفات مرتبة الإعجاز. وذلك تأكيد، ونفي لكل ريب عنه. و إلى هذا الأمر يشير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾(١)، كما سيجيء في هذه السورة عن قريب.

فإن قيل هذا لا يسكت الخصم، قلنا وهل أسكته شيء من المعجزات – كقلب العصاحية، والماء دما، وإكثار القمل والضفادع، وشفاء الأبرص والأكمه وغير ذلك من خوارق العادات، أو لم يقولوا إنه سحر وكيد.

فأما الدعوة إلى النظر والفكر فهي أولى بالإنصاف وبخطاب الأحرار، ليؤمنوا بما اتضح لهم. وبها قد يسكت الخصم كما نرى في محاجة إبراهيم عليه السلام بالملك، ﴿فبهت الذي كفر﴾(٢)، وآتاه الحجة على قومه فأتمها عليهم. و لم نجد شيئاً أبلغ في

(١) سورة البقرة: ٢٣

(٢) سورة البقرة: ٢٥٨

شرطها إعمال النظر، فإن الحق مهما كان من الظهور لا بد من مشاهدته والتوجه إليه.

وأشار إلى هذا الأمر في آيات كثيرة، مثلا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾(١). أيضا: ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٢). أيضا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣). وأيضا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(٤). وهذه الإشارات كثيرة في القرآن، فلم يذكرها ههنا ولكن نبه على ما هو أصل ـ ذلك وهي التقوى.

فإن إعمال النظر شرطه تصحيح الإرادة، والإرادة لا تصح إلا بالتقوى والرغبة في الخير. فإن المستكبر أو الراغب في الشهوات لا يلتفت إلى الحق وإن كان ظاهرا بينا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾(٥). وهذا أمر معلوم و مشهود، فإن الغافل والمستكبر إذا مر على الحق أعرض عنه، وإذا دعي إليه إشمأز منه. وقد جاء ذكرهم في القرآن كثيرا، فمنه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(٦). أيضا: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾(٧).

والموقف الرابع في بيان أن القاعدة التي ذكرنا لمعرفة القرآن بالمشاهدة والتجربة هي التي صرح بها القرآن.

---

(١) سورة آل عمران: ١٣، سورة النور: ٤٤
(٢) سورة الروم: ٢٨
(٣) سورة الرعد: ٣، سورة الروم: ٢١، سورة الزمر: ٤٢، سورة الجاثية: ١٣
(٤) سورة يونس: ٦٧، سورة الروم: ٢٣
(٥) سورة يونس: ٦
(٦) سورة يوسف: ١٠٥
(٧) سورة المؤمنون: ٦٦- ٦٧

فاعلم أن الأمر الذي استدلنا لنا عليه بكلمة "هدى" ليس إلا ما ذكره القرآن بغاية التصريح مع ما ضم به من التنبيهات على الموانع، وإبطال الشبهات، وغير ذلك مما يقتضيه المقام. فإنا نجد القرآن لا يطلب من الناس للإيمان به غير أن يتدبروه ويتفكروا فيه، ويستمعوا ويفقهوا ـ ويتذكروا ما يلقى إليهم من فصل الخطاب، و أحسن الحديث، وبينات الهدى، و بوالغ الحجة. ونرى القرآن ملآن من هذه التصريحات، فلنكتف ههنا بذكر بعضها. فمنها قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾(١). أيضا: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾(٢). أيضا: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(٣). أيضا: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٤). أيضا: ﴿فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(٥). أيضا: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ. أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ. أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ، بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ. وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾(٦).

---

(١) سورة محمد: ٢٤- ٢٥
(٢) سورة ص: ٢٩
(٣) سورة الزمر: ١٧- ١٨
(٤) سورة الحديد: ١٧
(٥) سورة النساء: ٧٨
(٦) سورة المؤمنون: ٦٨- ٧٤

القلوب من القول الحق، فما ظنك بما كان معجزة من جهة اللفظ والمعنى وبلغ في ذلك الغاية القصوى؟ فالقرآن حجة ثم هو معجز في كونه حجة، فلاحجة مثله.

وجملة الكلام أن القرآن دعا الناس إلى الحق وعرفه لهم بغاية الإيضاح ليعرفوا الحق بذاته ـ لا بالتقليد ـ وليعرفوا القرآن بنفسه لا بشئ آخر. وليس وراء ذلك مرتبة لإيفاء حق النبوة والهداية. وإلى هذه الخصوصية في إعجاز القرآن إشاره في قول النبي صلى الله عليه وسلم:

"ما من الأنبياء من نبى إلا أُعْطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحى الله إِلَي فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يومَ القيامة"(١) قوله عليه السلام: "ما مثله آمن عليه البشر" أي على بعضها آمن الناس. فإنهم لم يؤمنوا على كل آية، ولا كلهم آمنوا، فأراد بالمثل أكبر ما آمنت عليه الأمة المؤمنة. فقوله عليه السلام: "وإنما كان الذي أوتيت" فالمراد منه الآية التي تؤمن عليه أكثر أمته. وأما الآيات الأخر فإنما وقعت إما لإتمام الحجة على المنكرين أو تائيداً للمؤمنين. وقوله عليه السلام: "أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً"، فلأن ـ

١ـ هذه الآية حجة تامة لدلالتها بالذات على مطالب الدعوة

٢ـ وجالبة للعقول الراسخة فتأتي العامة على إثر علمائهم

٣ـ وباقية مستمرة وليست كبرق خاطف، مثل سائر الآيات فيؤمن عليها جيل بعد جيل

٤ـ واللاحقون يكونون على نور مثل السابقي

٥ـ بل هذه الآية تزداد حجة وثقة بمرور الزمان لاتفاق العلماء وترداد نظرهم فيها (أولاً) ولشهادة من سبق لمن لحق (ثانيا) ولعجزهم عن الإتيان بمثلها (ثالثاً) ولتجربتهم بكونها فلاحاً للانسان وسلما لرقيهم في مدارج السعادة مع اختلاف

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحى وأول ما نزل. رقم الحديث: ٣٩٨١ وكتاب الاعتصام. رقم الحديث: ٧٢٧٣

الأحوال وتبدل الأمور (رابعاً) ولبقائها محفوظة عن التغيير إذ لم يمتد حفظ الكتب السابقة إلا مدة يسيرة.

الموقف السادس في موقع قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى في محل هذا الوصف الجامع الكامل

تـذكـــرة

واعلم أن التقوى هي باب الهداية بالقرآن، فمن دخل هذا الباب استعد لقبول الهداية من القرآن. فالتقوى جعلها الله تعالى شعارا للمؤمنين، والنبي يدعوا الناس إلى التقوى و يهيجها فيهم، فمن اتقى الله آمن بالتوحيد والمعاد، وفرقهم الله من سائر الناس لرحمته الخاصة، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللّٰهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّاٰتِكُمْ﴾ (سورة الأنفال: ٢٩). وهكذا وقع، فإن الذين تركوا الأهل والمال وهاجروا إلى الله ورسوله فهم الذين اتقوا واستعدوا للهداية المتزايدة. فأول أمر النبي أن ينذر الناس تارة بالتوحيد، وتارة بالمعاد لتهيج وتتحقق فيهم التقوى. فمن آمن بالنبي ودعوته واهتدى زاده الله الهدى وأعطاه التقوى. ثم زاده إياهما حسبما ازدادزا فيهما، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوٰهُمْ﴾ (سورة محمد: ١٧).

واعلم أن الله تعالى ينزل رحمته على الأفراد وعلى الأمة من حيث المجموع، وذلك بعد الفرقان وجعلها أمة مستقلة. ويكون عند ذلك الفرقان والشعار الخاص لهم. فالتقوى هى شعار المؤمنين.

التقوى في التوحيد

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (سورة المؤمنون: ٥٢)

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ يُخرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ فَسَيَقُولُونَ اللّٰهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (سورة يونس: ٣١).

* * * * * * * *

فاعلم أن للتقوى اعتباراً عظيما في الدينّ، وذلك من وجوه:

الأول إنها هي النقطة الأولى التي يتوجه إليها النبي، فهي كالبذر لجميع التعليم الإلهي، وكالقطب الذي تدور حوله كلية الدين الخالص والطاعة الكاملة. وبيان ذلك أن مبدأ الأعمال أن يحس الإنسان بالخير والشر ويرغب ويكره. وتظهر باجتنابه هذه القوة ما يبعد عن الخير ويقرب من الشر. ولا يختار الإنسان لنفسه شرا إلا لجهله بالعواقب أو لغلبة حب العاجلة، فيتعامى عن نتيجتها. فأول التعليم أن يوقظ عن غفلته بالإنذار والتحذير حتى تنبعث فيه قوة النظر في العواقب، وقوة الرغبة في الخير والنفرة عن الشر. وبعبارة أخرى يبعث فيه التقوى. وهذا هو أول حياته الروحانية، فإن التقوى تبعث التذكر والنظر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾(١).

ولذلك ترى الأنبياء كان أول دعوتهم إلى الله بالإنذار وتحذير الناس عما كانوا فيه. فمن أوائل التنزيل: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ﴾(٢). وفي سورة الشعراء صرح بذلك في ذكر دعوة الأنبياء، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾(٣). وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٤). وأعاد مثل ذلك في دعوة هود عليه السلام مرتين، وفي دعوة صالح عليه السلام مرتين، وفي دعوة لوط عليه السلام، وفي دعوة شعيب عليه السلام مرتين حتى قال تعالى في ما أمر نبينا صلى الله عليه وسلم بالدعوة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(٥). ومثله فيما قص

(١) سورة الأعراف: ٢٠١
(٢) سورة المدثر: ١- ٢
(٣) الآيتان: ١٠- ١١
(٤) سورة الشعراء: ١٠٥- ١٠٨
(٥) سورة الشعراء: ٢١٤

عن الدعوة في مواضع أخر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾(١). وذلك ليعلموا لزوم العواقب ونتائج الأعمال لينظروا فيما يفعلون، وينتبهوا عن الغفلة، ويعلموا أن لليوم غدا، وليس للإنسان أن يترك سدى. فالنبي يشتغل بذلك. فمن كان فيه نسمة حية من قوتي النظر والنزوع إلى الخير انتبه واستمع للذكر، ودخل في باب التقوى، واستعد لقبول الحق واختيار الخير. وذلك أول ظهور التقوى من القوة إلى الفعل، وبذلك تبتدئ الإرادة الصحيحة إلى تصحيح العقائد والأعمال. فالتقوى هي الأصل والبذر، ومنها الابتداء.

والثاني ــ اعتبارها بما يتفرع منها. وبهذا الاعتبار تهدى إلى التوحيد، والإيمان بالمعاد، وبما أنزل من الشرائع. فإن أول ما يتقي المرء هو الشرك، وأول ما يخلع عنه هو عكوفه على هذه العاجلة، وأول ما يبتغيه هو عمله للآخرة والطاعة لربه. فإن التقوى لا تلبث مجردة عن تعلقها بما ينتج منها.

وبهذا الاعتبار هي جماع الدين كله ونظام أمره، وذلك لكونها أصل التوبة والإنابة، وعنصر الإيمان والطاعة، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾(٢). فكرر التقوى ليدل على كونها أصلا ومادة للإيمان، والعمل الصالح، والإحسان. وربما يكتفي بذكر الأصل لأن الفروع تلزمه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾(٣). فإذ أمر الله بها وحدها فقد أمر بتمام الإيمان والإسلام. فهي أولى بأن يعبر بها عن جميع الأحكام وصفات الخير.

(١) سورة نوح: ١
(٢) سورة المائدة: ٩٣
(٣) سورة النساء: ١٣١

فإن ذكر معها الفروع كان تفصيلا، كما مر في باب الكلم.

فهذا اعتبارها من جهة كونها صفة باطنة تحت كل خير، ولذلك سماها الله تعالى زادا للمؤمنين، فقال: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾(١). فالمؤمن يحي ويعيش بها في سلوكه إلى ربه، ولذلك يأمر الله بها بعد الإيمان. فإن الإيمان لا يكمل بل لايصح إلا بها، وكذلك الأعمال. قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٤). وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(٥). وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٦). فالتقوى هى الروح، والحياة، والقوام لسائر الأمور الدينية، فبها يكمل كل عمل. وليس ههنا موضع التفصيل، ولكن نتم هذه الجملة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ. وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَايُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَواْ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(٧). فتأمل لترى التقوى نظام كل ذلك. فترى خشية الرب، والإيمان بالآيات، والتوحيد، والزكوة مع خوف الآخرة،

---

(١) سورة البقرة: ١٩٧
(٢) سورة الحشر: ١٨
(٣) سورة الحج: ٣٧
(٤) سورة الأنفال: ٢
(٥) سورة المائدة: ٢٧
(٦) سورة الحجرات: ١٣
(٧) سورة المؤمنون: ٥٧- ٦١

والمسارعة إلى الخيرات في نظام سلسلة واحدة.

والثالث ـ اعتبارها من جهة كونها علامة للمؤمنين، واسما ولقبا لهم. وهذا كثير في القرآن. ولذلك سماها الله لباسا، حيث قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾(١). فالتقوى هى السيماء الفارقة بين المؤمن والكافر، فجعلها الله شعارا للمؤمنين، وربط به ما وعدهم من النصرة والغفران ولذلك يدعوهم باسم المتقين، كأمة خصت من بين سائر الناس كما ترى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ. فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾(٢). وأيضا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾(٣). وأيضا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾(٤). وأيضا: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٥). وأيضا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ. فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾(٦). وأيضا: ﴿وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٧). وأيضا: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾(٨). وأيضا: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾(٩). وأيضا: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ﴾(١٠). وأيضا: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾(١١). وأيضا: ﴿تِلْكَ

---

(١) سورة الأعراف: ٢٦
(٢) سورة القمر: ٥٤- ٥٥
(٣) سورة الطور: ١٧
(٤) سورة الحجر: ٤٥، سورة الذاريات: ١٥
(٥) سورة الشعراء: ٩٠، سورة ق: ٣١
(٦) سورة الدخان: ٥٢
(٧) سورة الزخرف: ٣٥
(٨) سورة الزمر: ٧٣
(٩) سورة الزمر: ٢٠
(١٠) سورة ص: ٤٩- ٥٠
(١١) سورة مريم: ٨٥

الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً﴾(١). وهذا كثير.

فمن جاء ربه في هذا اللباس معلما بهذا الشعار الروحاني دخل في حزب الله، وأعطاهم الله، ما وعدهم من النصر والغلبة والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُوالْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٢).

فوعد الله المؤمنين أن يجعلهم أمة خاصة، ويكفر عنهم ويغفر لهم بفضله.

وهكذا وعد الله أهل الكتاب أن يتوب عليهم إذا اتقوا. قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ.

تذكرة

الصبر باب من التقوى

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾. سورة يوسف: ٩٠

والصلاة عون على الصبر، والصبر عون سائر الأعمال وكذلك الصلاة قال تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. أي على الصبر بالصلاة.

(التقوى هو المقصود وجماع الشرائع كلها)

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللهُ غَنِيّاً حَمِيداً﴾. سورة النساء: ١٣١

* * * * * * * *

(١) سورة مريم: ٦٣

(٢) سورة الأنفال: ٢٩

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوراةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ الآية.(١) وهكذا خصهم لوراثة بيته حيث قال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾(٢).

الموقف السابع في بيان حقيقة التقوى وإزالة شبهة من يتوهم أن الدين إذا كان مبنيا على الخوف كان نوعا من الإكراه وخاليا عن الرغبة إلى الرب ومحبته.

فاعلم أن الأمر ليس كما توهم، وقد صرح القرآن والتوراة والإنجيل بأن الإيمان هو أن نعبد الرب بكمال الرغبة ونخلص له المحبة. ففي القرآن: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾(٣) . وأيضا: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾(٤).

وقد بينا هذا الأمر العظيم في تفسير سورة الفاتحة، فلا حاجة إلى إعادته.

• ولكن نذكر ههنا من حقيقة التقوى أنها لاتخالف المحبة بل هي عين المحبة.

فاعلم أن الدين يكون بمعرفة الرب تعالى بصفاته من الجود والرحمة والعلم والحكمة والغنى والقدرة والقدس والعظمة، وكذلك بمعرفة النفس بصفاتها وأحوالها ومآلها ـ الخير والشر.

فإذا عرف الإنسان نفسه مائلة إلى الشهوات الموبقة مع رغبتها في العلو والتزكى لم يزل خائفا متقيا، كمن هو قائم على شفاحفرة من النار وبجانبه سلم ترقى إلى السماء. وكذلك إذا عرف ربه أحبه، وسكن إليه، والتصق به، وعلم أن لاسعادة له إلا بالتقرب إليه؛ وحينئذ لا بد أن ـ

١ـ يخالطه كمال الخشية عن بعده وعما يبعد عنه، فلا يزال ملتمسا لرضاه خائفا عن السيآت.

٢ـ ثم إحساسه بكمال إنعامه عليه يورثه كمال الخشوع والإجلال لربه.

٣ـ وإحساسه بقدسه يخوفه عن التدنس بالإثم.

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٦- ١٥٧

(٢) سورة الأنفال: ٣٤

(٣) سورة البقرة: ١٦٥

(٤) سورة آل عمران: ٣١

٤ـ وإحساسه بعدله يخوفه عن نتائج السيآت.

٥ـ وإحساسه بعلمه يخوفه عن كل سّيئ مهما خفي. فمن عرف ربه لا بد أن يرهبه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١).

وأما عدم الرهبة فسببه الغفلة والعمى، وحب الباطل والهوى. فمن الرحمة أن بعث الله الرسل لينذروا الناس مما حولهم من أسباب الهلاك، ويوقظوهم عن غفلتهم، ويبشروهم برحمة من ربهم.

فالإنذار ليس إلا ليرجعوا عن شرك الردى إلى سبل الهدى، ويفروا من حبائل العدو العنيد إلى الرب الرحيم الودود. في القرآن: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيْرٌ مُّبِينٌ﴾(٢). فجاء النبيون لينذروا الناس لكى يفروا إلى ربهم، لا لكي يفروا عنه.

فالتقوى عين المحبة والرغبة إلى رضى الرب؛ وإنما تنعدم من قلة اليقين بتقديسه وعدله، ومن الغفلة عما يخاف من تبعات الهوى وخطوات الشيطان وعما يجب على العبد من الإحساس بذمته وفرائضه. وتمام الكشف لهذا المقام يستدعي إطنابا، له مواضع أخر، فاكتفينا ههنا بإيجاز القول فيه.

الموقف الثامن في موقع ﴿يؤمنون بالغيب﴾.

قد سبق في الفصل الثالث عشر أن للإيمان بالغيب على كلا التأويلين هو حد العقل، وخاصة الإنسانية. فههنا نبين هذا الأمر بغاية الإيجاز، فإن استيفاء هذا البحث يفضي إلى إطناب، لا موضع له ههنا.

فاعلم أن الإنسان إنما صار إنسانا بالعقل والتمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والباقي والزائل مع الرغبة فيما هو أعلى وأبقى. وبذلك بان فضله على سائر الحيوانات التي تشاركه في الإدراكات الحسية ولذائذها والرغبة فيها. فتبين أن

---

(١) سورة فاطر: ٢٨

(٢) سورة الذاريات: ٥٠

ههنا درجتين: درجة العقل ودرجة الحس مع ما لكليهما من الإدراكات والرغبات. وإذ كان فضل الإنسان وكماله في الجانب العقلي نبه القرآن في غيرما آية على حد فارق بين العقل والحس، والإنسان والبهائم ـ وهذه الآية منها.

وبيان ذلك يستدعى أن نشير إلى وجوه الفرق بين العقل والحواس. فاعلم أن للعقل مزايا كثيرة على الحواس، وذلك بأن:

١. الحس ضيق النطاق، فلا يتعلق إلا بما هو الحاضر المشهود.
٢. ولا يبقى إلا يسيرا.
٣. ويتعلق بالجزئيات فقط. وأما الكليات، فتطلع عليها بالعقل.
٤. وحكمه غير مطلق بل محدود بالآثار الطبيعية.
٥. وما يدرك بعض الحواس لا يدركه الآخر.
٦. ومجلوب إلى لذة تخصه، غير فارق بين الخير والشر، والبر والإثم. والعقل هو الحاكم بهذين، والوازع الكلي.
٧. والعقل لجمعه وغلبة حكمه حاكم على الحواس ومتصرف به، كما يتصرف الصانع آلاته.
٨. والعقل هو الجامع الحاكم المعبر به عن الذات، فهو تمام الإنسان. والحواس قوى شتّى تحته.
٩. ولاعلم بالخارج إلا بالعقل، فإنه الحاكم بأن لكل حادث سببا و لكل أثر مصدرا.
١٠. ولا علم بالنفس إلا بالعقل، فإنه الناظر الراجع إلى الذات، والحاكم بأن لكل إدراك ذاتا مدركة.

فإن تأملت فيما أشرنا إليه تبينت أن الحس لا يتعلق إلا بالحاضر المشهود، الجزئي الزائل عن قريب؛ وأنه لا علم ولا يقين إلا بالعقل. فمن غلبت البهيمية على عقله لا يهمه إلا هذه العاجلة الزائلة المتغيرة في كل آن. فهولاء كالأنعام، أساري

الحس، وعبيد الهوى. قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً. أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾(١). وهذا كثير.

وأما أرباب العقول، فلا يطمئنون إلا إلى الحق الباقي، فهم ــ مع كونهم في هذه الحياة الدنيا المشهودة الظاهرة لذائذها على الحواس، مؤمنون بالحق، الظاهرة عليهم آياته، لما أنهم على نور وهدى من ربهم. وقد أكثر القرآن من ذكر أن الهدى إنما يحصل لأرباب العقول، كقوله: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَيَعْقِلُونَ﴾(٢). وهذا مما لا يحصى.

فبما قال تعالى: ﴿يؤمنون بالغيب﴾ في وصف المتقين المهتدين بالقرآن دل على أمر يخصهم، ويتميزون به من الذين هم كالأنعام لا يبالون إلا بما يتمتعون به في هذه الحياة، ولا سبيل لهم إلى الإيمان. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾(٣). وقال أيضا في وصفهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَيَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَيُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَيَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَـٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(٤). فانظر كيف أثبت لهم جانب الحس ونفى جانب العقل، وضرب الأنعام لهم مثلا. ثم دل على كونهم أضل من الأنعام، لما أنهم أعطوا من القوى ما يلقيهم في الهلاك إن لم يسددوها، كمن ركب فرسا جموحا خليع العذار و لم يزل يركضه. ثم سماهم غافلين لشناعة غفلتهم، كمن أخذت النار في متاع بيته وهو يلعب على سطحه. فالبهائم أسلم لكونها واقفة على مدارجها، والإنسان مسوق إلى شرف على حرف، فإما أن يترقى وإما أن يتردى.

(١) سورة الفرقان: ٤٣ – ٤٤

(٢) سورة يونس: ١٠٠

(٣) سورة محمد: ١٢

(٤) سورة الأعراف: ١٧٩

ولذلك قال تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

ومن ههنا يتبين موقع هذه الصفة بعد قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾، فإن التقوى هي أصل التنبه والفكر، كما سبق في الموقف السابع. فبين أول وصف المتقين بإيمانهم بالغيب: أي المتقون هم الذين يستعملون عقولهم فيستدلون بالشاهد على الغائب، أو يؤمنون بالحق وهم في حالة الغيب بخلاف الذين لا يعلمون إلا الظاهر من الحياة الدنيا. وبذلك ظهر أن تقواهم ليست في شئ من الجهالة، وإنما هي من صحة العقل والعلم والمعرفة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١).

الموقف التاسع في موقع ﴿ويقيمون الصلاة ومما رزقنهم ينفقون﴾

فاعلم أن القرآن جعل الصلاة والزكاة رأس الخيرات، فكثيراً ما يكتفي بذكرهما عن ذكر سائر الأعمال الصالحة. وهذا يدلنا على عظيم منزلتهما، وكونهما جماع الحسنات. ويظهر بأدنى التدبر أنهما كذلك، فإن الإنسان له نسبة إلى الرب تعالى وأخرى إلى الخلق، فصلاح الإنسان وفلاحه أن يذكر ربه ويلتصق به بكليته، وأن يواسي بالمخلوق، ويزيل الشح عن نفسه. فإن فعل ذلك فتحت له أبواب الخيرات كلها. قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣). وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾(٤). وقال تعالى في وصف اسمعيل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾(٥).

(١) سورة فاطر: ٢٨

(٢) سورة البقرة: ١٥٢

(٣) سورة الحشر: ٩، سورة التغابن: ١٦

(٤) سورة التوبة: ١١

(٥) سورة مريم: ٥٥

وقال تعالى حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَوْصَانِيْ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾(١). وهذا كثير. فليس أن سائر الشرائع لاحاجة إليها، ولكن هاتين أصلان للجميع. ويشبه ذلك ما جاء في الإنجيل (متى: ٢٢: ٣٥- ٤٠):

"وسأله واحد منهم وهو ناموسيٌّ ليجربه قائلا: ٣٦ يا معلم أية وصية هي العظمى في الناموس ٣٧ فقال له يسوع تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ٣٨ هذه هي الوصية الأولى والعظمى ٣٩ والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك ٤٠ بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء". أي سنن الأنبياء.

فبين أن الالتصاق بالرب تعالى، والمواساة بالخلق هما أكبر الأحكام. ولا يخفى أن الصلاة والزكاة لتحقيق هاتين الحالتين. وأما تفصيل كونهما جامعة لجميع الخيرات فقد ذكرنا طرفا منه في تفسير سورة الكوثر لكونها أحق به، فلا نعيده.

الموقف العاشر في موقع قوله تعالى: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ إلى قوله: ﴿هم المفلحون﴾.

فاعلم أن هاتين الآيتين إتمام لوصف المتقين الفائزين، وتصريح بوصف جامع منتج من الإيمان الحاصل بالتقوى، والعقل المجرد عن التقليد والهوى. وذلك هو الإيمان الصحيح، لا كإيمان اليهود، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ آمِنُوْا بِمَا أَنْـزَلَ اللهُ قَالُوْا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُوْنَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾(٢). فلم يؤمنوا عن تقوى القلب وخشية الرب، بل عن التقليد وهوى النفس. فأراد بيان الإيمان المنتج من التقوى تفصيلا وكمالا ـ وذلك هو الإيمان بكل ما جاء من الرب، وأصله الإيقان بالمعاد، وهو أصل التقوى. فجعل هذه الآية متضمنة لأصول المعتقدات بتمام التصريح، وقد جعل ما قبلها متضمنة لأصول الأعمال، كما مر آنفا.

---

(١) سورة مريم: ٣١

(٢) سورة البقرة: ٩١

فعلمنا أن التقوى كما تهدي إلى كمال العمل والعادات، فكذلك تهدي إلى كمال العلم والاعتقادات. وهذا ظاهر، لأن منشأها الإيقان بالآخرة، والعطش لأحكام الرب، وحقيقتها النظر والفكر في العواقب، كما مر.

واعلم أن هذه الآية جعل الإيمان بالقرآن وحده إيمانا بجميع ما أنزل الله، فصار القرآن جماع الرسالات كلها، والإيمان بهذا النبي إيمانا بجميع الرسل.

وخلاصة ما ذكرنا أن هذه الآية أفادت:

١ـ الإيمان الصحيح الخالص، فانتفى الريب والتقليد.

٢ـ والوحدة الجامعة بالدين الإلهي، كما قال تعالى فيما خاطب به الرسل: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوْنِ﴾(١). وعلى هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الإسلام ملة واحدة"، فانتفى الشقاق والتعصب.

٣ـ والايمان المفصل الجامع لكل ما يؤمن به.

فهذه ثلاث فوائد، وما أوسعها وأجمعها!

ذلك، وبعض مواقف التدبر تجدها في الفصل التالي.

١٧ـ ثلاث نظرات في نظم هذه الجملة

قد مر في مقدمة تفسير هذه السورة أنها على غاية المناسبة بالفاتحة، والآن نبين أن هذه الجملة أيضا على غاية المناسبة بها، فابتدئ بها، ثم نرجع إلى ذكر تناسب أجزائها، ثم إلى ذكر ربطها بما بعدها، فعليك بثلاث نظرات:

أما النظرة الأولى فقد بينا فيما سبق أن الفاتحة في أسلوبها جعلت قسمين: الحمد لله تعالى والدعاء، لما فيه جميع السعادة والفلاح لعباده. وإنه تعالى بدأ بتعليم الحمد لسبقة ربوبيته العامة، ورحمته الواسعة الموجبتين للحمد قبل كل

---

(١) سورة الأنبياء: ٩٢

عمل. ثم إنه علمنا الدعاء الجامع فرعا على الربوبية والرحمة حسبما مر بيانه. وإذ علمت ذلك، فاعلم أن هذه الجملة جاءت مناسبة بكلا القسمين.

أما الأول: فأى نعمة أعظم وأحق بالشكر، وأدل على كمال الربوبية والرحمة من تنزيله الكتاب إلى الإنسان ليربيه به ويرقيه إلى اعلى غاية خلقه، كما وعده به حين أرسله إلى الدنيا. ولذلك سمى الوحى رزقا ومباكاً، وروحا، ورحمة، ولذلك جعل هداه أكبر ما يشكرون له. فبالابتداء بهذه الجملة دلنا على أن كتابه هو أعظم ما به حياة الإنسان، وصلاحه وكماله وفلاحه. وبين بذلك كمال ربوبيته ورحمته وحكمته وقدوسيته، ليكبروه، ويشكروه، ويسبّحوا له، ويقدسوه.

وقد دل على ذلك في مواضع تصريحا وإشارة. فمنه ما قال تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِىْ أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾(٢). فربط إنزال الكتاب بالحمد. وقال تعالى: ﴿الرَّحْمٰنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ.﴾(٣) فأشار بالنظم إلى أن تعليمه القرآن متفرع على أنه الرحمن. وهكذا دل على كون إرسال الرسل والكتاب متفرعا على كونه مالك السماوات والأرض، وقدوسا عزيزا حكيما. فقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوْسِ الْعَزِيْزِ الْحَكِيْمِ. هُوَ الَّذِىْ بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّيْنَ رَسُوْلاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوْا مِنْ قَبْلُ لَفِىْ ضَلَالٍ مُّبِيْنٍ﴾(٤).

ويشبهه قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيْزُ

(١) سورة البقرة: ١٨٥

(٢) سورة الكهف: ١

(٣) سورة رحمن: ١- ٤

(٤) سورة الجمعة: ١- ٢

الْحَكِيْمُ. لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِى وَيُمِيْتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْئٍ قَدِيْرٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْئٍ عَلِيْمٌ﴾ ..... إلى أن قال .... ﴿هُوَ الَّذِىْ يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوْفٌ رَّحِيْمٌ﴾(١).

وهكذا قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِىْ خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِىْ قَدَّرَ فَهَدَى. وَالَّذِىْ أَخْرَجَ الْمَرْعَى. فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى. سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَآءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِىْ خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِىْ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٣). فانظر في نظم هذه الآيات لتستدل به على ربط الربوبية والرحمة بتنزيل الوحى، وعلى وجوب الشكر لهذه النعمة الكبرى.

فالآن ترى أن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيْهِ. هُدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ﴾ على غاية حسن المناسبة بما بدأ به الفاتحة بتعليم الحمد على ربوبيته العامة، ورحمته التامة. ولولا ذلك لم تتم الربوبية والرحمة، والجود والحكمة في حق الإنسان، كما جاء في القرآن إخبارا عن قول موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا الَّذِىْ أَعْطَى كُلَّ شَيْئٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(٤). فإذ خلق الإنسان على غاية الاستعداد للعلم والحكمة، والطهارة والتزكي أنزل إليه كتابه، وبعث فيهم رسله ليتم نعمته عليهم، فيشكروه، وهو الغني عن شكرهم

(١) ربط الأجزاء: ربط الهدى بالتقوى ـ ربط العقل بالحال. فيه قوله تعالى: ﴿إن في اختلاف اليل﴾ إلى قوله: ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ سورة يونس٦-٩ وأيضا فيها (الآية: ٣٢).
سورة الحديد: ١- ٩

(٢) سورة الأعلى: ١- ٧

(٣) سورة العلق: ١- ٥

(٤) سورة طـه: ٥٠

ولكنه كما قال: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(١). فله الحمد لما أنعم عليهم، سواء تقبلوا نعمته أم أعرضوا عنها، فإنه الغني.

وأما الثاني: فالدعاء الجامع الذي علمنا في الفاتحة هو أن يهدينا الصراط المستقيم الذي هو صراط الذين أنعم عليهم غير صراط المغضوب عليهم ولا الضالين. وتعليم الدعاء يخبر عن وعد الإجابة. فهذه الجملة إجابة لذلك الدعاء وإنجاز لذلك الوعد. فكأنه قيل لنا: هذا هو الهدى الذي تطلبه، وذلك هو الصراط المستقيم وصراط المنعم عليهم.

وقد جاء في الأخبار ما يؤيد ذلك، فقد رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعن علي وابن مسعود رضي الله عنهما أن الصراط المستقيم هو كتاب الله(٢). وأيضا عنه وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه الإسلام والسنة(٣) كما مر في تفسير الفاتحة.

فيما صرح بأن هذا الكتاب المنزل من الرب تعالى هدى للمتقين ثم وصف المتقين المهتدين به، بين لنا كلا الأمرين ــ أي كونه الصراط المستقيم، وكونه سنة الذين أنعم عليهم. وقد مر في المقدمة لتفسير هذه السورة أنها جامعة لمطالب الدين، وتفصيل للفاتحة. فإن رجعت نظرك في سعة ما يحتوي ﴿الصراط المستقيم﴾، وكذلك في سعة كلمة ﴿هدى﴾ تبين لك أن هذه الجملة خلاصة لما جاء به باقي السورة من تعليم الإيمان والسنة. فقدمها على طريق براعة الاستهلال.

وأما النظرة الثانية وهي في ربط أجزائها. فقد مر طرف منه فيما سبق وفي فصل البلاغة بغاية الإيجاز، فلنذكر ههنا بعض ما قد بقي أوما اقتضى بيانا زائدا.

فاعلم أن سعادة الإنسان منوطة بصلاح جانبيه: العلمي والعملي، وهما

(١) سورة النمل: ٤٠

(٢) انظر الطبري ١: ١٧١- ١٧٣ رقم ١٧٤- ١٧٧ وتفسير ابن كثير ١: ٢٦

(٣) الطبري ١: ١٧٤- ١٧٥ رقم ١٨٠- ١٨٣ وتفسير ابن كثير ١: ٢٦- ٢٧

متصلان بواسطة ــ وهي الحالة الصالحة. وهذه الثلاث تكمل بعضها ببعض. ولا يخفى أن العلم يتقدم الحال والحال يتقدم العمل. ولكن مع ذلك ليس أن العلم يكمل، ثم يبتدئ إصلاح الحالة، ثم يبتدئ إصلاح العمل حتى يستكمل. بل يترقى الإنسان في هذه الثلاث بالتدريج ويستعين بكلها. وذلك بأن الرب تعالى أودعها فطرة الإنسان ممتزجة ويزيدها لمن أحسنها حسبما يستعملها. وإذ علمت ذلك فاعلم أن الهدى نور يطلع من أفق العقل والعلم، والتقوى حالة تسطع من أفق القلب والإرادة.

واعلم أن الأعمال الصالحة كلها ــ من العلمية والعملية ــ تابعة لتلك الحالة الممتزجة بالمعرفة والفكر. قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(١). فذكر ثلاث مراتب الحس، ثم الفهم، ثم الحالتين التابعتين حسب استعماله ما أعطاه. وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(٢). فقوله: ﴿ألهمها﴾ يبين جانب عقله وتميزه بين الفجور والتقوى. وقدم الفجور لأن التقوى إنما تتبع معرفته بالإثم. وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى. أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾(٣). فصرح بتقديم الهدى على التقوى وبأن التقوى أساس لجميع ما يؤمر به، فهي رأس الأعمال. ومن الظاهر أن الثواب لا يترتب على ما أودع الله الإنسان، وإنما يترتب على إرادته وعمله. فالعلم الذي ينشأ فيه من التقوى هو بره وصلاحه، وبذلك دخل تحت الأعمال، وبذلك صارت التقوى أول البر وأصل الخيرات العلمية والعملية كلها، وبذلك صارت رأس الحكمة كما مر. ونظم قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ دل على هذه الحكمة. وقد بينا سعة معنى الهدى والتقوى في الفصول السابقة.

(١) سورة الإنسان: ٢- ٣

(٢) سورة الشمس: ٧- ٨

(٣) سورة العلق: ١١- ١٢

فانظر الآن كيف بدأ الله بما هوّ الأساس ـ أعني الهدى والتقوى ـ ومزجهما حسبما مزجهما في الفطرة، وجمع بهما جانبي العلم والعقل. ثم بعد ذلك ذكر الفرع على الترتيب، فذكر الإيمان بالغيب رعاية لجانب العلم والنظر، ثم ذكر الصلاة والإنفاق رعاية لجانب العمل. وبتقديم الصلاة على الإنفاق دل على كونها أول الأعمال وأوسعها وجوبا. وفي كون الصلاة محضا بين العبد والرب تعالى، وكون الإنفاق بين العبد والعبد أيضا دليل على تقدمها. وقد مر أن هذين العملين رأس الشرائع كلها.

تذكرة

واعلم أن التقوى رأس الأعمال كما أن الهدى رأس العلوم، فجمع بينهما، كما قال: ﴿أَرَءَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾. سورة العلق: ١١- ١٢

واعلم أن أول أمر النبي الإنذار ليتقوا. وذلك تنبيه العقل وإبطال خلع العذار، وعلى ذلك آيات كثيرة.

واعلم أن الصلاة رأس الأعمال كما أن التقوى رأس الأعمال. واعلم أن التقوى كف، والصلاة رجوع. والتقوى انتهاء، فلها تقدم على العمل. والإنتهاء أول ظهور العقل، ولذلك سمى عقلا وحجرا ونُهى.

خصوص الهدى بالتقوى

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَـنَ بِالْغَيْبِ﴾. سورة يس: ١١

أيضا: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾. سورة فاطر: ١٨

﴿مُنِيْبِيْنَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوْهُ وَأَقِيْمُوْا الصَّلاَةَ﴾. سورة الروم: ٣١

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوْسَى وَهَارُوْنَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِيْنَ الَّذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُوْنَ﴾. سورة الأنبياء: ٤٨- ٤٩

****

ثم بعد ذلك ذكر كل ما يؤمن به، والتفت إلى أول الكلام ـ وهو كتاب الله ـ وضم به الإيقان بالآخرة لكونه أصل التقوى كما مر.

ثم رجع القول في الهدى الذي أعطاه الرب، ويعطيه لهؤلاء انجازاً لما وعد، وإتماماً لما أنعم عليه فطرة.

ثم أخبر عن نتيجة الهدى، وذلك هو الفلاح الذي هو غاية السلوك على الصراط المسقيم، ونهاية التزكية المطلوبة التي يسعى لها العبد، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾(١) كما بينا في الفصل العاشر من مقدمة تفسير هذه السورة حيث ذكرنا أن هذه السورة جامعة لأوصاف هذه البعثة. فإن نظرت فيما ذكرنا هناك رأيت أن هذه الجملة في غاية المطابقة بها، فصارت أنموذجاً لتمام السورة.

ومما ذكرنا ترى في نظمها تأسيسًا، ثم تفريعا ـ أي سلسلة الأسباب، ثم عودًا على البدء كحلقة خاتم جعل فصه ما أودع الله تعالى فطرة الإنسان من جواهر الهدى والتقوى. ومنهما تنبسط دائرة الأعمال التي تحيط بجميع الحسنات حتى تنتهي إلى أصل الهدى والتقوى: وهو الإيمان بما أنزل الله والإيقان باليوم الآخر.

وأما النظرة الثالثة وهي في ربطها بما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا﴾ الآية إلى عشرين آية. فقوله: ﴿إن الذين كفروا...﴾ الآيتان، موقعه موقع ذكر المقابل. وقد جاء ذلك في آخر الفاتحة، فتجد بعد ذكر المنعم عليهم ذكر المغضوب عليهم وذكر الضالين، فهكذا ههنا بعد ذكر المتقين المهتدين بالقرآن ذكر أضدادهم من الكافرين والمنافقين إلى عشرين آية. فقال عز من قائل حكيم:

إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَيُؤْمِنُوْنَ(٦) خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوْبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ (٧).

---

(١) سورة الشمس: ٩

١٨- تفسيـــر الكلـــم

﴿كفروا﴾ كفر، كنصر: ستر. قال لبيد:

في ليلةٍ كَفَرَ النجومَ غَمَامُها(١).

ومنه الكافر: للبحر. قال ثَعلَبةُ بن صُعَير المازني:

فَتَذَكَّرَا ثَقَلاً رَثِيداً بعدمـا   أَلْقَتْ ذُكَاءُ يمينَها في كافرِ(٢)

ومنه كفره: جحد بنعمته، فسترها، ضد شكره، كما قال تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُوْرًا﴾(٣). وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُوْدَاْ كَفَرُوْا رَبَّهُمْ﴾(٤) وفي دعاء القنوت: "ونشكرك ولا نكفرك"(٥). وبالباء: أنكره، ضد آمن به، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوْتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ﴾(٦). وعند الإطلاق يراد به إنكار ما ينبغي الإيمان به، كما قال تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾(٧) وهذا كثير. وربما يراد به كفران النعمة، كما مر.

---

(١) صدر البيت:

يَعلو طَرِيقةَ مَتْنِها مُتَوَاتِرٌ

البيت من معلقته، وهو في وصف بقرة وحشية شبه بها ناقته. انظر ديوانه: ٢٢٠ وشروح المعلقات.

(٢) المفضليات: ١٣٠ واللسان (كفر، رثد، ثقل، ذكا)

(٣) سورة الإنسان: ٣

(٤) سورة هود: ٦٨

(٥) انظر الأذكار، للنووي: ٥٨.

(٦) سورة البقرة: ٢٥٦

(٧) سورة التغابن: ٢

(ف) ١ اعلم أن هذه المادة قديمة جدا فتوجد في غير اللغة السامية، مثلا: كَوَرْ(COVER) في الإنكليسية بمعنى: ستر وغَطّى. وفي العربية "كـور": لـفّ. ومنها غَفَرَ: ستر، ومنه المِغْفَر، و"غمر". وأيضا من كفر ـ اكفهَرَّ: اغبرَّ وكَلَح.

﴿سَوَآءٌ﴾:

١- المساواة. قال تعالى: ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَآءٍ﴾(٢).

٢- ووسط الشيء. قال تعالى: ﴿فَرَآهُ فِى سَوَآءِ الْجَحِيْمِ﴾(٣). أيضا: ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَآءِ الصِّرَاطِ﴾(٤).

٣- والمتوسط بين شيئين. قال تعالى: ﴿إلى كلمة سوآء بيننا وبينكم﴾(٥).

٤- والمساوى. قال تعالى: ﴿فَهُمْ فِيْهِ سَوَآءٌ﴾(٦).

ولكونه مصدراً في الأصل، يستوي فيه المذكر والمؤنث، والواحد والجمع، كما مر.

﴿ختم﴾: طبع، أي أثر في الشمع أو الطين أو نحوه للسد، أو العلامة، أو لكليهما. فختم على الكتاب: طبع عليه بالخاتم، وعلى فم الوعاء: طبع عليه بعد ما سده لكيلا يدخل فيه شيئ، ولا يخرج منه شئ. وبالتجريد ختم على الشئ: أحكم سده. فالختم على القلب والسمع يراد به أن لايدخل فيهما ما كـان ليدخل فيهما لولا هذا الختم. والختم على فم الإنسان: يراد به أن لا يخرج منه كـلام، كما قال

---

(١) أي "فائدة"

(٢) سورة الأنفال: ٥٨

(٣) سورة الصافات: ٥٥

(٤) سورة ص: ٢٢

(٥) سورة آل عمران: ٦٤

(٦) سورة النحل: ٧١

تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾(١). وجاء الطبع على البصر أيضا، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾(٢). وهذا من التجريد أو التغليب.

﴿سَمْعِهِمْ﴾ لكونه مصدراً جاء واحدا.

١٩ـ التأليف ودلالة الوصل والفصل

قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا﴾ الآية. استأنف الجملة، لكونها وجها آخر لبيان تأثير القرآن، متضمنا لتسلية النبي وتعليمه الإعراض عن هولاء. وكان ماسبق بيانا لتأثير القرآن في المؤمنين. فلما كانت الجملة تأكيدا للمعنى السابق من وجه آخر لم تعطف على ما سبق، لتكون أوقع لاستقلالها، وليدل على القطع بين المؤمنين والكافرين. ولذلك ترى العطف بين هذه والتي بعدها في ذكر المنافقين.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ الجملة بتمامها خبر عن الذين كفروا. والاستفهامية بتأويل المفرد إما مخبر عنه، و﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ خبر عنه، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾(٣)، وإما فاعل لـ﴿سواء﴾، فإنه بمعنى الصفة كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾(٤). وإنما قدم الخبر لنكارة المخبر عنه، كما رأيت فيما مر من النظائر، وكما ترى في قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾(٥).

(١) سورة يس: ٦٥
(٢) سورة النحل: ١٠٨
(٣) سورة إبراهيم: ٢١
(٤) سورة الحج: ٢٥
(٥) سورة الأنبياء: ٩٥

قوله تعالى: ﴿ لايؤمنون﴾ جملة مستقلة وقعت بيانا للسابق المفهوم، لزيادة البيان، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾(١). فقوله تعالى: ﴿مالنا من محيص﴾ يبين ما سبق، ولما كان بمعنى ما سبق لم يعطف عليه.

قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ الآية. إنما استأنفه لكونه بيانا لما سبق من ذكر كفرهم، وأنهم غير مؤمنين. فإن الكفر لما كان هو الستر والتغطية لا بد أن يكون ختما على القلوب، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢). وسيأتيك مزيد في الفصل التالي والذي بعده.

قوله تعالى: ﴿وعلى سمعهم﴾ يتعلق بفعل ختم، لكون الختم أنسب بالسمع، كما أن الغشاوة أنسب بالعين، وهذا ظاهر. ثم قد فسره القرآن حيث قال تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾(٣). والختم أعم فيستعمل للعين أيضا، وجاء في القرآن، كما مر. ولكن الغشاوة لاتستعمل للسمع، فلا بد أن يتعلق ﴿على سمعهم﴾ بفعل ختم.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عطف على السابق، لكونهما من العذاب. فإن الختم والغشاوة من عذاب الله، ثم يأخذهم عذاب عظيم في الآخرة، كما بينه القرآن في مواضع. وسياتيك الشواهد في الفصل الحادي والعشرين.

٢٠ـ تأويل الكلم وبعض دلالة النظم

نقتصر في هذا الفصل على تأويل الكلم، وأما تأويل الآيتين جملة وتفصيلا، فتجده في الفصول اللاحقة.

فقوله تعالى: ﴿الذين كفروا﴾ المراد به طائفة مخصوصة، وذلك باقتضاء النص،

(١) سورة إبراهيم: ٢١
(٢) سورة المطففين: ١٤
(٣) سورة الجاثية: ٢٣

فإن الله تعالى أخبر عن هولاء بأنهم لا ينفعهم الإنذار، وأنهم لايؤمنون، وأنهم ختم الله على قلوبهم. ومعلوم أن كثيرا ممن كفر أولا آمن فيما بعد، فلابد أن المراد ههنا غيرهم، ولا اختلاف في هذا القدر من التخصيص. ثم في نفس الكلمة وموقعها دلالات على أن المراد بها قادة المشركين ممن هاجرهم النبي صلى الله عليه وسلم. فإن ﴿الذين كفروا﴾ بالإطلاق من غير قرينة صارفة أو بغير ذكر ما كفروا به يأتي كالاسم الجامع للمشركين، لما أنهم هم الذين كفروا بالله من وجوه كثيرة. وذلك هوكفرهم بالتوحيد والمعاد والرسالة، و كفرانهم بنعم الله، ولا سيما بما أنزل إليهم. ولذلك إذا استعمله القرآن لغيرهم بينه بقرينة، مثلا: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمِشْرِكِيْنَ﴾(١)، ومثلا في ذكر اليهود: ﴿وَكَانُوْا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُوْنَ عَلَى الَّذِيْنَ كَفَرُوْا (أي المشركين) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوْا كَفَرُوْا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِيْنَ﴾(٢). وتسمية المشركين بالذين كفروا تجد

تأويل آخر:

﴿إن الذين كفروا﴾ أي الذين كفروا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وبما كان النبي يدعو إليه، وهو خلاف من آمن به. فهولاء لما أنهم كفروا بعدما عرفوا الحق، فسد قلوبهم ولعنهم الله. فإن الله بين في مواضع من هم الذين يطبع على قلوبهم. فهذه الكلمة جامعة لمن هاجرهم النبي صلى الله عليه وسلم من مشركي مكة، ويهود المدينه وحولها. فإن هولاء هم الذين وضح لهم الحق وأنكروا به، واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فقست قلوبهم. وقوله: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوْبِهِمْ﴾ عبارة عن ذلك، فهولاء ليسوا بمؤمنين فيما بعد.

****

(١) سورة البينة: ٦

(٢) سورة البقرة: ٨٩

أيضا في الشواهد التي سنذكرها في بيان قول ابن عباس رضى الله عنهما. فليس أن اهل الكتاب لم يرتكبوا الكفر، ولكن القرآن لا يذكرهم باسم "الذين كفروا" إلا بضم قرينة.

ثم اعلم أن الأصل في الكلمات المطلقة إرادة نفس الحقيقة، فذكر المشركين بهذه الكلمة لا يدل بالذات على شركهم أو إنكارهم بأمر خاص من التوحيد والمعاد والرسالة، بل على جحودهم المطلق المبنيعلى جهلهم، وانهماكهم في الشهوات، واستكبارهم عن سماع الحق.

ثم اعلم أن أصل ذلك كله هو خلوهم بالكلية عن الاعتقاد بالمعاد، فإنه ذلك هو سبب التغافل، وعدم الخشية، والإستكبار. وفي إنكار المعاد إنكار بمعظم صفات الرب تعالى من القدرة والحكمة والعدل والرحمة. وقد بين الله في غير ما آية أن الإنكار بالمعاد هو الكفر بالله كما بين كثيرا أن ذلك هو أصل إنكارهم واستكبارهم..وسنرجع إلى بيان ذلك في تأويل ﴿لايؤمنون﴾، فهذا ما دل عليه نفس الكلمة.

ثم علاوة عليه كان في مجرد تسمية هولاء بهذه الكلمة دليل على ماكانوا عليه من الجحود المفرط، والإصرار على الباطل. فإن الاسم يدل على المسمى كما يكون وكما علم من أحواله، سواء كان الاسم قبل التسمية يدل على كلها، أو كان يدل على بعضها.

ثم قد وصفهم القرآن في مواضع كثيرة بما ذكرنا من جحودهم وغلوهم فيه، مثلا قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا كَمَثَلِ الَّذِىْ يَنْعِقُ بِمَا لَايَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهَمْ لَايَعْقِلُوْنَ﴾(١) وهذا كثير. ومما ذكرنا يتبين أن النظر ههنا إلى ثلاثة أمور:

١- إلى تخصيص الكلمة بطائفة معلومة.

٢- وإلى إصرارهم على الجحود بعد العلم.

(١) سورة البقرة: ١٧١

٣- وإلى كفرهم بلقاء الله وعدم الخشية.

ولما ذكرنا من وجوه الدلالة لم يختلف أهل العلم بالتأويل في أن المراد ههنا هم الذين أصروا على الإنكار بعد معرفة الحق، وإن اختلفوا يسيرا في تعيين المورد. فقد بلغنا ثلاثة أقوال متقاربة:

فالأول: ماروى عن ابن عباس رضى الله عنه وهو: "أن هذه الآية نزلت في اليهود الذين كانوا بنواحي المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، توبيخا لهم في جحودهم نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم به، مع علمهم

تذكرة

الآيات التي في أواخر سورة النحل تدل على أن المراد بالذين كفروا هم الذين كفروا بعد الإيمان. فعلى هذا تكون هذه الكلمة جامعة لكل من كفر بعد وضوح الحق – وهم اليهود، ومن المشركين من وضح له الحق ولكن كفر به لمحض الاستكبار والحسد، ولما استحب هذه الدنيا. وكان الآيات التي في سورة النحل تفسير لذلك – وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيْمَانِ وَلَكِن مَّنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لاَيَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِيْنَ. أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوْبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُوْنَ. لاَجَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُوْنَ. ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِيْنَ هَاجَرُوْا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوْا ثُمَّ جَاهَدُوْا وَصَبَرُوْا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾.

(الآيات ١٠٦– ١١٠)

* * * * * * * *

به ومعرفتهم بأنه رسول الله إليهم وإلى الناس كافة"(١).

وإنما ذهب إلى ذلك لأن السورة قد نزلت بالمدينة، ومعظم الخطاب فيها إلى اليهود، ثم فيها ذكر كفرهم بهذا النبي، وتوبيخهم على ذلك. راجع آيات (٨٥ – ١٠٠).

والقول الثاني ماروي عنه أيضا وهو أن المراد به: "من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول"(٢) وهذا مثل القول السابق وإنما نبّه في القول الثاني على أن قضاء الله على كفرة اليهود بالختم على قلوبهم ليس بأمر جديد، بل قد سبق لهم هذا القضاء إذ عصوا الرب، كما جاء في الذكر الأول - وهو سفر الأخبار قبل الزبور، كما قال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾(٣). فقد ذكر فيه أن الله تعالى أوعدهم باللعنة إن لم يطيعوه ويسلكوا طريقه، ويعبدوا إلها غيره. راجع أخبار الأيام الثاني (٧: ١٩– ٢٢).

ويشبهه ماجاء في القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّ كَانُوْا يَعْتَدُوْنَ. كَانُوْا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوْهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ. تَرَى كَثِيْرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُوْنَ﴾(٤).

فتوليهم المشركين أدخلهم في الكفر الصريح حتى صاروا كما أخبر الله عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ أُوْتُوْا نَصِيْبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُوْنَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوْتِ وَيَقُوْلُوْنَ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِيْنَ آمَنُوْا سَبِيْلاً. أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيْرًا. أَمْ لَهُمْ نَصِيْبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَيُؤْتُوْنَ النَّاسَ (أى المسلمين) نَقِيْرًا. أم

---

(١) تفسير الطبري ١: ٢٥١ رقم ٢٩٥

(٢) المصدر السابق ١: ٢٥٢ رقم ٢٩٧

(٣) سورة الأنبياء: ١٠٥

(٤) سورة المائدة: ٧٨– ٨٠

يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ (أى بني اسمعيل) الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكًا عَظِيمًا. فَمِنْهُمْ (أى بني إسرائيل) مَنْ آمَنَ بِهِ (أى بما آتيناهم من الكتاب والحكمة) وَمِنْهُم مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾(١). وهذا في ذكر كبراء اليهود، إذ اتفقوا بمشركي مكة وحرضوهم على قتال المؤمنين بعد ما هاجروا إلى المدينة ومكنهم الله فيها وأتاهم ملكا وسلطنة، وذلك بمحض حسدهم. فإن اليهود قد علموا أن هذا تصديق ما عندهم من بركة آل إبراهيم، كما هو مبسوط في موضعه. فعند ابن عباس رضى الله عنه مورد الكلمة هم كفرة اليهود ممن عرف صحة هذه البعثة ولكن جحد به حسدا وعتوا.

والقول الثالث ما روى عن الربيع بن أنس، قال: "آيتان في قادة الأحزاب.... قال: وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾(٢). قال فهم الذين قتلوا يوم بدر"(٣). فكما أن صاحب القولين الأولين نظر إلى مكان النزول، والمخاطبين بمعظم خطاب هذه السورة وما جاء فيها من ذكرهم؛ فكذلك صاحب القول الثالث نظر إلى زمان نزولها، واستعمالات القرآن لكلمة "الذين كفروا" إذا كانت مطلقة، وإلى حسن النظم والتقسيم المرعى في هذا المقام، كما سنذكره في الفصل ...

وإنما ذكرنا وجوه استنباطهما، لندلك على طريق السلف في تأويل الكلمات، وتقاربهما. فإن شئت جمعت بينهما فتجعله نصا على أقحاح المشركين، لجحودهم بعد العلم وتماديهم في غوايتهم وخلوهم عن خشية الرب وعدم رجاء لقائه، ولما أن القرآن خصّهم بهذا الاسم؛ وتعريضا إلى كفرة اليهود لما شاركوهم في هذه الصفة.

---

(١) سورة النساء: ٥١- ٥٥

(٢) سورة إبراهيم: ٢٨- ٢٩

(٣) الطبرى١: ٢٥٢ رقم ٢٩٨

ومعظم الخطاب وإن كان في اليهود، فإن في مواضع من السورة ذكرا صريحا عن الذين هاجرهم النبي صلى الله عليه وسلم، بل نصف السورة الآخر في أمر هولاء. وصحة هذا الذي ذكرنا تتضح بعد تمام النظر في السورة، والتأمل في حسن النظم والمعاني، وما سنذكر في الفصول الآتية. ثم فيه جمع بين التأويلين.

قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ أطلق الإنذار، ليكون جامعا. والموقع يدل على أن أول النظر ههنا إلى الإنذار بالقرآن. قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾(١). أيضا: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ﴾(٢). أيضا: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾(٣) وهذا كثير. فذلك ماينذرون به، وأما ماينذرونه فهو يوم القيامة وأهوالها. قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾(٤). وأيضا: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾(٥) وهذا أيضا كثير.

قوله تعالى: ﴿لايؤمنون﴾ لإطلاقه صار جامعا، كما مر في أمثاله. ولكن أول النظر ههنا إلى الإيمان بكل ما جاء من عند الله ولا سيما هذا القرآن، فإن الإيمان به هو الإيمان بكل ما أنزل الله. ثم استعمال القرآن دل على هذا المراد، فإنه إذا أطلق كلمة المؤمنين أراد بها الذين آمنوا بهذا القرآن. وإذا أراد به غيرهم دل عليه بقرينة، كما بينا في تسمية المشركين بالذين كفروا. مثلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ

---

(١) سورة مريم: ٩٧

(٢) سورة الأعراف: ٢

(٣) سورة الأنعام: ١٩

(٤) سورة غافر: ١٨

(٥) حنورة الأنعام: ١٣٠

صالحا فلهم أجرهم عند ربهم﴾ الآية(١). وهذا كثير.

فإن قيل أليس الكفر ضد الإيمان، فهلا اعتبرت في معنى الذين كفروا أنهم كفروا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، كما اعتبرته في لا يؤمنون. أواعتبرت في لايؤمنون أنهم لايؤمنون بلقاء الرب، كما اعتبرته في الذين كفروا. والكلمتان مطلقتان، فلم خصصتهما؟ ثم لم فرقت في جهة التخصيص؟ قلنا الأصل في الكلمات المطلقة إرادة الحقيقة كما مر؛ والكفر هدم والإيمان بناء وفي الهدم لايعتبر هدم الكل. وأما البناء فلا بد فيه من التمام حتى يستحق اسم ما بنى. وقد بين القرآن أن اسم الإيمان لا يقع إلا بعد الإيمان بكل ما أنزل الله، فهذا حقيقة الإيمان. وأما حقيقة الكفر فهو الجحود والكفران، وأصل ذلك عدم الخشية وعدم الرجاء بلقاء الرب. فلم نخصصهما من جهة إرادة المفعول بل من جهة إرادة الحقيقة المطلقة. ثم على ما قلنا دلائل من وجوه كثيرة، ونذكر بعضها في الفصل التالي...

قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ الآية. لايخفى أن هذا الختم أمر معنوي، وقد هدى القرآن إلى هذا المراد في غير ما آية. مثلا: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾(٢). فهذه الأغلال، وهذا السد، وهذه الغشاوة كلها معنوية. وأيضا: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا﴾(٣) فهذا الحجاب ليس بحجاب جسماني، ولذلك نظائر في القرآن، وهذا من المجاز الشائع في الكلام. وإنما يراد به الأسباب التي يسدهم عن قبول الحق مما يفسد القلوب من القساوة والنفرة عن قبول الحق.

---

(١) سورة البقرة: ٦٢

(٢) سورة يس: ٨- ٩

(٣) سورة الإسراء: ٤٥

قوله تعالى: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ ظاهر العطف يدل على أن هذا الختم والغشاوة من قسم العذاب. ثم بعد ذلك لهم عذاب في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة معا. وهذا ما دل عليه العبارة، وسياتيك على ذلك دلائل أخر في الفصل....(١).

فائدة:

قد ذكر آنفا باسم الهدى ومن وجوه الهدى الطريق، والنبي هو الداعي إليه. ومن حرم السماع لايلتفت إلى نداء من يدعوه، ولكن يمكن أن يلتفت إلى إيمائه وإشارته. فإن كان قد حرم البصر أيضا لاينتفع بدعوة من يدعوه إلى الطريق. ويشبهه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾(٢) ويقرب منه قوله تعالى: ﴿إنك لا تسمع الموتى (أي الكافرين الذين لا إحساس لهم بما تذكرهم به) ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾(٣) أي الأصم إذا ولى مدبرا لا ينفعه النداء. وإدباره هو إدبار قلبه ونفرته، فهو الأعمى حقيقة والأعمى إذا أدبرو نفر وهو الأصم فلا يمكن أن يهدى ـ لا بالإشارة ولا بالنداء. ويشبهه قوله تعالى: ﴿صم بكم عمي فهم لايرجعون﴾(٤).

ومفاد هذه الوجوه واحد وهو أنهم ليسوا بمؤمنين بما أنزل الله، لما أنهم حرموا أسبابه ـ ومعظمها خشية الرب وعواقب الأعمال. فأقبلوا بكليتهم على هذه الدنيا وانهمكوا في شهواتها، فصرفوا عما ورائها.

---

(١) بياض فى الأصل.

(٢) سورة الأعراف: ١٩٨

(٣) سورة النمل ٨٠- ٨١

(٤) سورة البقرة: ١٨

٢١- في بيان أن هذا الختم والغشاوة من نتائج أعمالهم وليس أن الله تعالى ختم على قلوبهم من أول الفطرة

اعلم أن الله تعالى جعل أحوال القلب أسبابا لأعمالها وإراداتها، وبين في كتابه أن القلب يفسد بالسيئات حتى يصير لا ينفعه نصح ولا إنذار، كالمريض الذي لايرجي برؤه، بل كالذي شرب السم فمات فلا يعالجه الطبيب بعد موته. وبذلك حذرنا عن ارتكاب المآثم، وحثنا على المبادرة بالتوبة، وعلى ترك من لا ينتفع بالذكر. فليس لأحد أن يرتكب المآثم أو يبقى على الكفر ويمني نفسه أن يتوب إذا شاء بعد ما قضى نحبه من شهواته.

١- فقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. (فهذا تصريح بأن الطبع مما يصيبهم الله به لأجل ذنوبهم ـ وأي بيان يكون أشد تصريحا من هذا؟) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ. وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾(١). أي كانوا ينقضون العهد ويرتكبون الفسق وكفروا بما جاءهم من البينات والأدلة الواضحة، فبذلك لم يكونوا فيما بعد ليؤمنوا بما كذبوا من قبل. فهذا تصريح بأن أفعالهم الشنيعة جلبت عليهم سنة الله، فطبع على قلوبهم. ويشبهه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ (أي نوح) رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾(٢) أي كانوا معتدين في تكذيبهم برسلهم، فطبع الله على قلوبهم، فلم يمكنهم الإيمان بعد ذلك بما بالغوا في تكذيبه.

٢- وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا

---

(١) سورة الأعراف: ١٠٠- ١٠٢

(٢) سورة يونس: ٧٤

يُؤْمِنُونَ﴾(١). فهذا تصريح بأن الذين فسقوا حق عليهم قضاء ربك بأنهم لايؤمنون.

٣- ويشبهه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ إلخ(٢). وقا ل تعالى في ذكر المنافقين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾(٣) أى بعد وضوح الحق والإيمان كفروا، فقست قلوبهم وعميت. وقال تعالى في ذكر اليهود: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٤).

ويشبهه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾(٥). قد تشبثوا بأن الله تعالى إنما خلق قلوبهم غلفا ولذلك لا تبلغها دعوة النبي، فأبطل الله تعالى تمسكهم بهذا العذر وبين أن ذلك إنما هو لكفرهم، ولما ذكر من آثار ذلك الكفر وبين أن ذلك الطبع من لعنة الله عليهم، وإنما لعنهم لسيآت أعمالهم، كما صرح به في موضع آخر، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾(٦)، وهذا كثير في القرآن. ومن هذا الباب ما جاء كثيراً في القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٧)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٨)، أيضا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾(٩)، أيضا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(١٠) مع نظائر أخر، وسيأتيك منها مزيد.

---

(١) سورة يونس: ٣٣

(٢) سورة يونس: ٩٦- ٩٧

(٣) سورة المنافقون: ٣

(٤) سورة النساء: ١٥٥

(٥) سورة البقرة: ٨٨

(٦) سورة المائدة: ١٣

(٧) سورة الأنعام: ١٤٤. سورة القصص: ٥٠. سورة الأحقاف: ١٠

(٨) سورة المنافقون: ٦

(٩) سورة الزمر: ٣

(١٠) سورة غافر: ٢٨

وبالجملة فإن ما ذكره الله تعالى ههنا من الختم والغشاوة إنما هو جزاء ما فعلوا أنفسهم، وما اقتحموه من الكفر والجحود والإعراض عن الحق بعد تبينه.

وهذا تأويل الآيتين قد بينه القرآن بنظائر، فمنها قوله تعالى: ﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ. وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾(١) فصرح بأنك مرسل إلى قوم غافلين من قبل، فمنهم من اتبع ما ألقيت إليهم من الذكر الحكيم وأحدث فيهم خشية الله. ومنهم من لم يتبعه و لم يخش الرحمن بالغيب، فلا ينتفع بإنذارك. ولقد حق عليهم قول ربك وقضاؤه بالحق، فأغفل قلوبهم وأغشاها، فلا يؤمنون.

وهذا الذي ذكرنا من سنة الله في جعل السيئات سببا لمنع الهداية وفساد القلوب.

تذكـــرة

سنة الله في منع الهداية والطبع على قلوب الجاحدين

ربما يؤمنون بظاهر القول عند حلول مصيبة أو طمع فائدة، فيرفع عنهم العذاب ولا يفتح الأمر. ولذلك دعا موسى عليه السلام: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾. (سورة يونس: ٨٨)

****

(١) سورة يس: ١- ١١

هو التأويل الظاهر من هاتين الآيتين. وهكذا فسره السلف من غير اختلاف. روى ابن جرير عن الأعمش "قال: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يُرَوْن أن القلب في مثل هذا - يعني الكف - فإذا أذنب العبد ذنبا ضُم منه - وقال بإصبعه الخنصر هكذا. فإذا أذنب ضُم - وقال بإصبع أخرى - فإذا أذنب ضُم - وقال بإصبع أخرى هكذا، حتى ضمّ أصابعه كلها، قال: ثم يطبع عليه بطابع. قال مجاهد وكانوا يُرَوْنَ أن ذلك الرَّيْن"(١).

وأيضا عن ابن جريج، "قال: قال مجاهد: نُبِّئتُ أنَّ الذنوب على القلب تَحُفّ به من نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع. والطبع: الختم"(٢).

لايخفى أن قوله: "أن ذلك الرين" إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٣).

هذا، وقد مر في أوائل السورة أن هذا القرآن هدى للمتقين. فكما ذكر هنالك سنة الله في الهداية وربطها بالمتقين، فكذلك ذكر ههنا سنته في منعها عن الذين لا يتقون، كما مر في ما أوردنا آنفا من أوائل سورة يس.

في النظـــم

في هذه الجملة ربط السبب بالمسبب بين الذين كفروا وبين الذين لا يؤمنون، ثم بين الذين كفروا وبين ختم الله.

أي كفرهم سبب لعدم إيمانهم بما أنزل. وإنما صار كفرهم سببا لعدم إيمانهم بما أنه جلب عليهم الختم والغشاوة، وكما جلب عليهم هذا في الدنيا، فكذلك يجلب عليهم العذاب الأليم في الآخرة. وهذه سلسلة الأسباب مثل ما تقدم

---

(١) الطبري١: ٢٥٨- ٢٥٩ رقم٣٠٠.

(٢) المصدر السابق ١ : ٢٥٩ رقم ٣٠٢

(٣) سورة المطففين: ١٤

بين التقوى والهدى، والإيمان والأعمال الصالحة والفلاح، كما مر.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَومِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤمِنِينَ(٨) يُخادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنوا، وَمَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٩) فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(١٠) وَإذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ(١١) أَلاَ إِنَّهُم هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ(١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ، قَالُوا أَنُؤمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ، أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ، وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ(١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوا إِلى شَيَاطِينِهِم قَالُوْا إِنَّا مَعَكُم، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ(١٤) اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ(١٦).

٢٢- تفسير الكلم والتأليف

﴿يخادعون الله﴾ أي يحاولون أن يخدعوا. قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾(١). أى لايقع أن يخدعوا الله، ولكن ينقلب خداعهم عليهم، وإنما حاولوا أن يخدعوا الله.

﴿وما يشعرون﴾ أي بأنهم يخدعون أنفسهم. والشعور إدراك ما يحس به. لاتقول شعرت زيدا عالما. فدل على أن هذا الأمر كان أقرب إلى نفسهم ولكنهم لشدة جهلهم لا يشعرون به.

---

(١) سورة النساء: ١٤٢

﴿فى قلوبهم مرض﴾ كانت العرب تكنى بداء القلب عن الحقد والهوى. وفي القرآن جاء أيضا بمعنى الشك. وعلى هذا سمى اليقين بالشفاء.

﴿إذا خلوا إلى شياطينهم﴾ فيه تضمن، أي إذا ذهبوا إليهم فخلوا معهم، وحرف "إلى" قرينة هذا التضمن. كما تقول: قام إليه: أي قام ومشى إليه.

﴿شياطينهم﴾ الشيطان فَعلانُ من شاط يشيط: هلك. قال الأعشى:

وقد يشيط على أرما حنا البَطَلُ(١)

شاط فلان: ذهب دمه هَدَرا، أيضا: عَجِل، وأسرع. وشاط الزيت: احترق. وغضب فلان فاستشاط: أى التهب. والشيطان من أسماء الحية. قال الشاعر(٢):

تُلاَعِبُ مَثنَى حَضرَمِى كأنه   تَمَعُّجُ شيطَان بذي خِروعٍ قَفرِ(٣)

والشرير من الجن. وبين الحية والجن مناسبة، لكونهما نارين طبعا. ومن ههنا كل متمرد يسمى شيطانا. قال تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾(٤).

وعند الجوهري هو فَيعَال من شَطَنَ بمعنى بَعُدَ.(٥) وسيبويه مرة جعله فَعْلاَنَ من شاط، وأخرى فيعالا من شَطَنَ(٦). والأول هو الصواب. ويؤيده أنه إذا

---

(١) صدر البيت:

قَدْ نَخْضِبُ الْعَيْرَ فِي مَكْنُونِ فَائِله

ديوانه: ٩٩ واللسان (شيط)

(٢) هو طرفة بن العبد، انظر الحيوان للجاحظ ٤: ١٣٣

(٣) ديوانه: ١٥٨

(٤) سورة الأنعام: ١١٢

(٥) انظر الصحاح (شطن)

(٦) انظر الكتاب ٣: ٢١٧ و ٤: ٣٢١

جُعِلَ عَلَماً لا ينصرف كما قال ....(١)

﴿يمدهم﴾ يتركهم فيمتدون، كما قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾(٢) ونظيره قوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(٣). وهذا كثير. قال الجوهري: "مدّه في غيّه، أي أمهله وطول له"(٤). وروى ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿يمدهم﴾: يملي لهم(٥).

وأما قول الزمخشري(٦) أن مد له: أمهله، ومده: زاده، واستدلاله بقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾(٧) فليس بشيء، فإن النزاع في مده به. ومعنى الآية أن إخوانهم يجعلونهم يمتدون في الغي، فأي استدلال فيها على مازعم به؟

﴿يَعْمَهُونَ﴾ من عمه، كسمع: مشى على جهل لا يدري أين يذهب. قال رؤبة:

ومهمهٍ أطرافه في مهمهِ   اعمى الهدى بالجاهلين العُمَّهِ(٨)

أرض عمهاء: لا أعلام بها. وعمه، وعمى صنوان في المادة.

(١) يعني المؤلف قول الطفيل الغنوي من قصيدة في ديوانه: ٤٩ وهو شاعر جاهلي من الفحول:

وقد مَنَّتِ الخَذْواءُ مَنًّا عليهم   وشيطان إذ يدعوهم ويُثَوِّبُ

وشيطان هذا: شيطان بن الحكم بن جاهمة الغنوي. وجاء غير منصرف. قال ابن برّي: "وهذا يدل على أن شيطان فَعلانُ، ونونه زائدة". انظر اللسان (شطن)

(٢) سورة الأعراف: ١٨٣. سورة القلم: ٤٥

(٣) سورة الأنعام: ١١٠

(٤) انظر الصحاح (مدد)

(٥) الطبري١: ٣٠٦- ٣٠٧ رقم ٣٦٤

(٦) انظر الكشاف١: ١٨٨- ١٨٩

(٧) سورة الأعراف: ٢٠٢

(٨) ديوانه: ١٦٦، واللسان (عمه)

﴿من الناس﴾ خبر قدم، لكونه في الأصل مخبرا عنه، كما يظهر من النظائر، مثلا قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾(١). أيضا: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾(٢). وأيضا: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾(٣). وهذا كثير. ولا حاجة إلى القول بأن ﴿مِن﴾ ههنا بمعنى البعض، وإن كان المآل واحدا من جهة المعنى.

﴿وما هم بمؤمنين﴾وقع حالا.

﴿في طغيانهم﴾ يتعلق بفعل ﴿يمدهم﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾(٤). ويمكن تعلقه بـ﴿يعمهون﴾ كما هو في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(٥) على أحد التأويلين فيه. ولكن الأول هو الأولى، لكثرة مجيء مده فيه، ولكون المد أقوى للاعتماد لتعديته. وعلى هذا فقوله: ﴿يعمهون﴾ حال، أي وهم يعمهون ويمشون على جهل وعمى.

٢٣- بعض وجوه البلاغة في أسلوب هذه الجملة

في تضاعيف هذه الآيات ذكر عشر خلال السوء من أحوال المنافقين، وهي خلوهم عن الإيمان، وخداعهم، ومرض قلوبهم، وازدياد المرض، وإفسادهم في الأرض، وإنكارهم عن الإيمان، وكبرهم وسفاهتم، وإظهار نفاقهم، واستهزاؤهم.

(١) سورة الرعد: ٤

(٢) سورة هود: ١٠٥

(٣) سورة البقرة: ١٠. سورة المائدة: ٥٢. سورة الأنفال: ٤٩. سورة التوبة: ١٢٥. سورة الحج: ٥٣. سورة النور: ٥٠. سورة الأحزاب: ١٢و ٦٠. سورة محمد: ٢٠و٢٩. سورة المدثر: ٣١.

(٤) سورة الأعراف: ٢٠٢

(٥) سورة الحجر: ٧٢

واشتراؤهم الضلالة بالهدى. و لم يترك صفة إلا وبين شناعتها، وجعل الترتيب صاعدا فبلغ منتهى القبح، حيث قالوا إنما نحن مستهزؤن. جاء بالعطف في ذكر أحوالهم، وبالقطع في ذكر الرد. فالعطف يصل ذكر أحوالهم، والقطع تنبيهات مستقلة.

الاستفهام ﴿أنؤمن﴾ للاستعجاب، والإنكار، والاستكبار.

الإفساد أقوى جانبه: فساد القلب. والسفه أقوى جانبه: خفة العقل. فقال في الأول: ﴿لايشعرون﴾، وفي الثاني: ﴿لايعلمون﴾. ثم الشعور أدنى العلم، والإصلاح يقتضي زيادة العلم، فعدم الشعور أشنع لمن يدعى الإصلاح. وفي تسفيه الناس ادعاء للعلم، فرد عليهم ما ادعوه.

٢٤ـ تأويل الجمل في آيات (٨- ١٦)

اعلم أن قولهم: ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ كان تمويها وخداعا. كان الإيمان بالله وحده واليوم الآخر من أعظم ما أتى به النبي، وأول ما كان يدعو الناس إليه. والقرآن جعل ذلك كالحد للمؤمنين مثل لقب المتقين، كما قال تعالى: ﴿لَايَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ. إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾(١). وهذا كثير في القرآن. والتقوى يلزم ذلك، وقد مر آنفا. والإيمان بما أنزل الله يلزم التقوى، كما مر مبسوطا. فلو آمنوا بالله واليوم الآخر اتقوا وآمنوا بما أنزل الله، ولكنهم لم يكونوا صادقين في قولهم. فزعموا أنهم مؤمنون حقا و أرادوا أنهم لايؤمنون بالنبي، وأن لاحاجة لهم إليه، وبذلك أرادوا أن يخادعوا المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾(٢).

(١) سورة التوبة: ٤٤- ٤٥

(٢) سورة المائدة: ٦١

والمنافقون كانوا على درجات، فمنهم من اكتفى بالقول بأنهم آمنوا بالله واليوم الآخر، ومنهم من قال إنه آمن بالله وبالرسول زورا وكذبا، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾ الواو للبيان، أي خداعهم المؤمنين بمنزلة خداعهم الله. وإنما قال تعالى: ﴿يخادعون الله﴾ لبيان حقيقة أعمالهم. فإنهم عرفوا أن النبي حق، والنبي يبعثه الله ليطاع، ولكنهم زعموا أن المقصود هو التعليم الحق وهو حاصل لهم سواء آمنوا بالنبي أم لم يؤمنوا. فتمسكوا بحجة باطلة أرادوا بها إبطال حكم الله. وهذا كمن احتال للخروج عما أمر الله به، فهو بمنزلة من يخادع الله. والمرء ربما يفعل بجهله ما لا يدري مآل أمره. فالمراد أنهم يخادعون المؤمنين، وشناعة عملهم تبلغ منزلة الذي يخادع الله، وفي الحقيقة إنه قد خدع نفسه، فإنه ورطها الكفر من حيث يخفى عليها أنه كفر.

﴿مرض﴾ كان التحاسد، والتباغض، والارتياب من أظهر خلال اليهود. ثم لما أنشأ الله نبيه في بني إسمعيل وأنزل كتابه على محمد صلى الله عليه وسلم، وارتفع أمره شق عليهم وهيج بغضاءهم. فذلك مازادهم مرضا حسب سنته وإن سنن الله تعالى تنسب إليه. وكثيرا ما ينبه القرآن على ذلك، وهكذا ههنا قدم أعمالهم الناشئة من مرض قلوبهم. ولما كان نفاقهم نتيجة الحقد والارتياب عبر القرآن عنه بالمرض. وقد مر أن العرب كانت تسمى الضغن مرضا والانتقام شفاء. وأما الريب فقد كثر في القرآن أن اليقين شفاء، فجعل الشك مرضا. وهذا من أحسن التعبيرات. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا، لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(١) سورة النور: ٤٧

وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾(١).

وأما تسمية الضغن مرضا فمما كثر في كلامهم، وقد جاء في القرآن وفسره، حيث قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ. وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾(٢).

﴿لا تفسدوا في الأرض﴾ هذه دعوة إلى الطاعة لكي تستقر المدنية الطاهرة ويجتمع الناس تحت جناح القسط، فيذهب الفساد من الأرض، فإنه المقصود بعد الإيمان بل هو من الإيمان. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(٣). فكان النبي والمؤمنون يدعوهم إلى السلم؛ وجعل الله السلم في الطاعة والفساد في البغي. قال تعالى: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ (أي سمعنا وأطعنا) فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ. فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾(٤). أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾(٥). أيضا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ. وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾(٦).

---

(١) سورة المدثر: ٣١

(٢) سورة محمد: ٢٩- ٣٠

(٣) سورة الحديد: ٢٥

(٤) سورة محمد: ٢٠- ٢٣

(٥) سورة البقرة: ٢٠٨

(٦) سورة البقرة: ٢٠٤- ٢٠٥

﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾ كانت هذه الطائفة تظن أنهم أعلم بالمصالح فيرضون كل طائفة، ويجتنبون أن يصيبهم سوء وقد جهلوا أن الخير كله بيد الله، وأن طاعة الله ورسوله خير لهم. وذلك لأنهم لم يؤمنوا بالرسول إلا في ظاهر القول، كما حكى الله عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا. فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا. أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ (من مرض النفاق وقلة الإيمان بالله وبرسوله) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا. وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(١).

وأيضا: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾(٢). وقد وقع عليهم هذا القول. فأظهر الله الإسلام وأصبحوا نادمين على صدودهم. وبين القرآن قصتهم في غير موضع.

﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، ألا إنهم هم السفهاء﴾. كانت هذه الطائفة تظن أنهم عقلاء، لايليق بهم أن يذعنوا لكل ما يأمرهم النبي به، وأن الذين شروا أنفسهم رضوانه هم السفهاء، فلم يكونوا في شئ من الإيمان الصحيح. وقد ذكر الله تعالى في مواضع من القرآن خروجهم عن طاعة الله وطاعة الرسول، لسوء ظنهم بالله وبرسوله مع دخولهم في الإسلام ظاهرا. وهذه الطائفة قد عرفت النبي وشهدت بالإيمان، فلم يكن كفرهم أشد ولكن كان أخبث وأفسد. وقد تمكن هذا المرض فيهم لطول مدته. فإنهم آذوا موسى عليه السلام، ونكثوا المواثيق مرة بعد مرة، وقتلوا الأنبياء، ونبذوا كتاب الله وحرفوه. وهذا الفساد الطويل الراسخ قلما

---

(١) سورة النساء: ٦١- ٦٤

(٢) سورة المائدة: ٥٢

يرجى إزالته. وسيأتيك تفصيل ذلك في هذه السورة وآل عمران والمائدة والأعراف.

ومع ذلك لم يمنع الله عنهم الدعوة حتى أنهم لما أبوا إلا التذبذب والتقهقر حقت ووقعت عليهم نتائج أعمالهم، فرانت على قلوبهم، فعموا وصموا.

في قوله تعالى: ﴿اشتروا الضلالة بالهدى﴾ الآية، الهدى جامع، لما أودع الله فطرتهم، ولما جاء به كتبهم، ولما عرض عليهم هذا القرآن. فنبذوا كل ذلك لطمع ربح، فإن المرء لا يشترى الضلالة لنفسها، فاختاروا الضلالة لنفع. فكانوا كمن يتجر فى شئ لا نفع فيه إلا بما يحصل منه من الربح. فبين أنهم خسروا فى ذلك، فأضاعوا ماكان عندهم، ولم يحصل لهم ما طمعوا فيه.

﴿وما كانوا مهتدين﴾ جامع لوجوه: أي لم يحصل لهم الربح وقد أضاعوا الهدى، وذلك تمام الخسران؛ وأيضا إنهم كانوا غير راشدين فى استبدال الضلالة بالهدى؛ وأيضا إنهم قد كانوا من قبل غاوين، فهكذا الآن جروا على سنتهم.

٢٥- نظرة فى نظم هذه الجملة مع ما قبلها

لا يخفى أن هذه الجملة فى وصف المنافقين. وقد ذكرنا آنفا ماكان من سبب إيرادها ههنا. والآن نوجهك إلى التأمل في نظم الكلام من أول السورة إلى آية (١٦). فانظر كيف ذكر المتقين المؤمنين العقلاء الصلحاء، ثم الذين كفروا، ثم الذين نافقوا. ولما كان حظ المنكرين لمحض إعراضا أوجز القول فيهم. وأما المنافقون فكانوا يسمعون القرآن، ويخالطون المسلمين، ويخاصمون ويحاجون، ويظنون بأنفسهم أنهم على دين وكتاب ونور وهدى من الله، ففصل القرآن أحوالهم وردّ أقوالهم، وضرب لهم المثل ليصورلهم شأنهم وشأن ما أنزل الله لدعوتهم.

وقوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة﴾ الآية، واقع كالخاتمة بعد ذكر أوصاف المنافقين، مثل آية: ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ بعد ذكر أوصاف

المؤمنين، ومثل آية: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ بعد ذكر أوصاف الذين كفروا.

وإنما ضرب لهم مثلين إتماما لبيان أحوالهم من الخسران والضلالة والشقوة بما جاء به أنبياؤهم، وبما جاء به هذا النبي صلوات الله عليهم أجمعين. فقال عز من قائل حكيم:

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ(١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ(١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ(١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠).

٢٦- تفسير الكلم والتأليف

﴿أَضَاءَتْ﴾ النار. لازم مثل ضاءت، كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾(١). وأيضا متعد. قال امرؤ القيس:

أعِنّي على برقٍ أراهُ وَميضِ ... يُضيءُ حَبيًّا في شماريخَ بيضِ(٢)

﴿الصيب﴾ فَيْعِل، من صاب المطر: نزل، والسحاب: أمطر. قال الجوهري: "الصيب: السحاب دون الصوب. وصاب: أي نزل"(٣). فالصيب المطر الشديد، وأيضا السحاب الذي يمطر بالشدة.

---

(١) سورة النور: ٣٥

(٢) ديوانه: ٧٢

(٣) الصحاح (صوب)

﴿السمآء﴾ من سما يسمو: علا. وتطلق على هذا السقف الأزرق، والسحاب، والفضاء الأعلى؛ وعند الإضافة على أعلى الشئ.

﴿الصواعق﴾ الصعق: شدة الصوت. حمار صعق الصوت: أي شديده. الصاعقة: الصيحة، والبرق النازل بالصيحة. قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾(١).

﴿أظلم﴾ الليل اشتد سواده، والناس دخلوا في الظلمة. قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾(٢).

﴿مثلهم كمثل الذى استوقد نارا﴾ الآية. اعلم أن المثل وإن كان من باب التشبيه، فإنه ليس تشبيه شئ بشئ، وإنما هو تصوير قصة. وكلمة التشبيه ربما تدخل في المثل على ما ليس بالمشبه به. ألا ترى ههنا أن " الصيب من السماء" ليس هو المشبه به، بل الذين يمشون في ضوء البرق. فهكذا ﴿الذي استوقد نارا﴾ ليس هو المشبه به، بل الذين ذهب الله بنورهم، كما ستعرف.

قوله تعالى: ﴿صم بكم عمى﴾ أي هم صم بكم عمي. وهذا الحذف أحسن موقعا في بيان الصفات. وحذف العاطف دلالة على جمع هذه الصفات معا، كما قال امرؤ القيس:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُدبِرٍ معاً(٣)

وهذا كثير.

قوله تعالى: ﴿كصيب من السماء فيه ظلمات﴾ الآية. معناه: كمطر صيب

(١) سورة الرعد: ١٣

(٢) سورة يس: ٣٧

(٣) عجزه: كجُلْمُودِ صَخرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ

البيت من معلقته في ديوانه: ١٩ وانظر الشروح.

نازل من السماء. وهكذا روى ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة(١). وروى عن سفيان: "الصيب، الذي فيه المطر"(٢). والتأويلان متقاربان. والأول أحسن معنى، والثاني أقرب حسب الظاهر لكون السحاب أولى بكونه ظرفا للرعد والبرق. ولكن المطر أولى بكونه ظرفا للظلمات، فإن المطر إذا نزل زاد الجو ظلمة. ولا يخفى أن قوله تعالى: ﴿من السماء﴾ على التأويل الأول معناه: نازل من جهة السماء أومن السحاب، وعلى التأويل الثاني معناه: من قسم السحاب، فتكون "من" بيانية لا غير.

٢٧- تأويل هذه الجملة وما ضرب فيها من المثلين

اعلم أن الله تعالى ضرب لليهود، ولما أنزل من الهداية والنور مثلين. والمثل تصوير الحال. فالأول تصوير حالهم بالكتاب السابقة، والثاني تصوير حالهم بالقرآن. والمقصود بيان شدة ضلالتهم، فإن ذهاب الرشد بعد الهداية أشد، فصور ضلالهم بظلمة بعد الضياء. واليهود قد قست قلوبهم، وحرفوا كتبهم واختلفوا فيه، وقالوا: "سمعنا وعصينا"، وقالوا: "قلوبنا غلف"، وقد عموا وصموا بعد ما جاءتهم البينة، كما جاء في القرآن مرارا وفي كتب الأنبياء.

فقوله تعالى: ﴿كمثل الذى استوقد نارا﴾ إلخ تأويله: أن موسى عليه السلام كان كرجل استوقد لرفقته نارا في الليل، فإنه جاء بالنور لقومه وأوضح لهم السبيل وجاء بتفاصيل الشريعة، فلم يبق لهم عذر. و لكنهم عصوا الله بعد العلم مرة بعد مرة وحيلا بعد حيل فسلبهم الله الهداية، واختلفوا في كتبهم فوقعوا في ظلمات كثيفة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا

(١) انظر الطبرى١: ٣٣٤- ٣٣٥ رقم ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٥

(٢) المرجع السابق١: ٣٣٥ رقم ٤١٧

جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ. وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾(١). وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً، يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾(٢). فقوله تعالى: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ إلخ بيان ما وقع عليهم لأجل أعمالهم. فإن الله تعالى إنما لعنهم لما نقضوا الميثاق، وعصوه بعد العلم، وأصروا على الإنكار.

وقوله تعالى: ﴿صم بكم عمي﴾ تعبير آخر للظلمات. فالصمم ظلمة السمع، فلا يصل إليهم كلام الهدى؛ والبكم ظلمة النطق، فلا يهتدون لقول الحق. ألا ترى سفاهتهم في قولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾(٣) وأن جبريل عدوهم، وقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾(٤). والعمى ظلمة البصر، فلا يرون ماينظرون من آياته، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾(٥). وكل ذلك من ظلمة القلب ولكن فصلها، فقال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي لا يرعوون عن ضلالهم، ولا يستغفرون ولا يتوبون إلى الله. ثم في ذكر البكم بيان شدة الصمم، فإن الأصم التام الصمم لا بد أن يكون أبكم. ثم فيه بيان أنهم لا يستجيبون الداعي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾(٦). فذلك تأويل المثل الأول الذي يمثل شقوتهم بكتبهم وبما جاءت به من الهدى والنور.

---

(١) سورة المائدة: ٧٠- ٧١

(٢) سورة المائدة: ١٣

(٣) سورة البقرة: ٨٨. سوة النساء: ١٥٥

(٤) سورة البقرة: ٩٣. سورة النساء: ٤٦

(٥) سورة البقرة: ٨٩

(٦) سورة الأنعام: ٣٦

وأما المثل الثاني فيمثل إنكارهم بهذا القرآن. فمثل لهم حالة المطر في الليل، فاجتمعت الظلمة من الليل، والسحاب المطبق، والقطر التي ملأت الجو. فذلك مثل القرآن لهم، وفيه صاعقة الوعيد، ورعد القول الزاجر، وبرق الهداية الذي لا تحتمله عيونهم العشى. ولقبولهم بعض الهداية وإنكارهم أخرى حسدا واستكبارا وعصبية يشبهون من يمشى في الظلمات ونور البرق الخاطف، فيجري ويقف ويخاف ويتحذر، ولا ينفعه الحذر، فإن الخطر محيط به. وقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ يجعل التمثيل أشد مطابقة بحالهم، فإنهم كانوا يعرضون عن سمع القرآن. ولم يقل يضعون أكفهم على عيونهم، فإن نور البرق يفجو، فلا يمكن الحذر منه، وأيضا منه يعلم الطريق. وهكذا كانوا يرجون هذا الكتاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾(١). فلم يزالوا في شك، فلم يطمئن قلوبهم بكل الإعراض. فكانوا يسمعون رجاء أن ينزل ما يوافق أهواؤهم، ولكن الدين القيم لا يراعي أهواء قوم، فإذا سمعوا خلاف مرضاتهم توقفوا. فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾. وإذا سمعوا وعيدا شديدا سدوا آذانهم حذرا. وما أجهل من تحذر الخبر ولا الضرر، فإنه محيط بهم، كمن رأى الأسد منقضبا على براثنه للوثوب عليه فأغمض عينيه. فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي هو مرسل الصواعق ومحيط بهم. وهكذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ بيان ما يخاف عليهم. فإن لهم بعض النور والهداية ولكنهم لا يقبلونه، فيخاف عليهم أن يحرموه بالكلية.

وهذا المثل يصدق على الفريق المذبذبين، فخوفهم بأن يجعلهم كالفريق الأول، الذين قال تعالى فيهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

ومما ذكرنا يتبين أن المثل الأول تصوير حال الذين كفروا كل الكفر،

---

(١) سورة البقرة: ٨٩

وقست قلوبهم، وتمت ظلمتهم؛ والثاني تصوير حال الذين كانوا مذبذبين. وحرف "أو" للتوزيع، أي منهم هكذا، ومنهم هكذا. فإن بعض اليهود قد نبذوا كتابهم فصاروا صما بكما عميا، وفيهم قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(١). وبعضهم كانوا يتدبرونه، ويجدون فيه بشارة هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنهم بعد المعرفة لم تطاوعهم قلوبهم أن يؤمنوا به. فخوفهم الله أن يجعلهم كالفئة الأولى فيذهب بسمعهم وأبصارهم. وقد وقع على أكثرهم هذا الوعيد، فإنهم بعد ما عرفوا الحق كفروا به. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ، سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾(٢) أي لا يؤمنون أبدا.

٢٨- نظم هذه الجملة مع ما قبلها ووجه الخطاب فيها

قد تم من أول السورة إلى ههنا عشرون آية خاطب الله بها النبي صلى الله عليه وسلم ليعلمه أن الناس على ثلاث طبقات: المتقون المهتدون بالقرآن فيشتغل بهم، والكافرون المظهرون الكفر المصرون عليه، والمنافقون المفسدون فلا يحزن عليهم ولا يضيع وقته بهم. وكما قدم ذكر الكافرين على المنافقين، فكذلك في هذين المثلين قدم ذكر المنكرين من اليهود على ذكر المذبذبين منهم. وفي هذه الآيات تعريض بالكفار واليهود قبل صريح الخطاب، وهذا هو الأسلوب الحكيم.

---

(١) سورة البقرة: ٧٨

(٢) سورة المائدة: ٤١- ٤٣

فمن بعد ذلك خاطب الكفار وأوجز فيه، لقلة حجتهم. ثم خاطب اليهود فأطنب فيه، لكثرة لجاجهم وادعائهم بأنهم على دين قديم وسنة النبيين. فأدحض دعواهم، كما سيأتيك. وإنما قدم الخطاب بالكفار لعموم الدليل فيه، ولاختصاره ـ والأعم الأخف يقدم، وكما مر في أول السورة. فقال عز من قائل حكيم يخاطب الكافرين المشركين:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٢) وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(٢٤).

٢٩- تفسير الكلم والتأليف

﴿خلقكم﴾ الخلق أصله التقدير، كما قال زهير:

فلأنت تفرى ما خلقت وبعض ... القوم يخلق ثم لا يفرى(١)

ثم توسع إلى إعطاء الوجود.

﴿لعلكم تتقون﴾ اعلم أن "لعلّ" تستعمل في وجوه. ومنها أنها تأتي لبيان النتيجة الممكنة، أي لكي تتقوا.

﴿رزقا لكم﴾ الرزق هو العطية والطعام الذي يعطى للخدم والجند. والمصدر من رزقه.

﴿أندادا﴾ جمع ند، وهو الشبه، والعدل، والكفو.

---

(١) ديوانه: ٦٣ (بشرح الأعلم)

﴿وإن كنتم في ريب﴾ عطف على ما فهم من اتباع الرسول، فإنه يهديهم إلى عبادته والتقوى، كما جاء في ذكر دعوة نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾(١). فهذه الثلاث متصلة. ولما تضمن الكلام السابق من الدليل على تنزيل القرآن من الله تعالى، كما سنذكره في فصل التدبر، فكأنه قيل: اعبدوا ربكم مخلصين له الدين وآمنوا بكتابه الذي نزل على عبده، وإن كنتم في ريب فأتوا بسورة من مثله. حرف "إن" تأتي لمعان، ومنها فرض ما لا يوجد، كما قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٢)، وهكذا ههنا. أي لستم في ريب في الحقيقة، فإن الحق قد تبين لكم ولكنكم تكابرون. وهكذا فيما بعد من قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿شهدائكم﴾ الشهداء جمع شهيد. ويطلق على معان معلومة(٣). وههنا: الذي هو لسان القوم، وزعيمهم الذي يشهد المشاهد من جانبهم. قال حارث بن حلزة:

وهو الربُّ والشهيدُ على يومِ الحِيارَينِ والبلاءُ بلاءُ(٤)

وهذا روي عن ابن عباس رضى الله عنه، قال: "يعني أعوانكم على ما أنتم عليه"(٥).

﴿وقودها﴾ الوقود بالفتح هو الحطب، وبالضم هو المصدر من: وقدت النار تقد.

﴿من قبلكم﴾ أي كانوا من قبلكم. وإدخال "من" على "قبل" و "بعد" من سنة العربية، كما ترى في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾(٦).

---

(١) سورة نوح: ٢- ٣

(٢) سورة البقرة: ٩٣

(٣) وانظر كلمة "الشهيد" في مفردات القرآن للمؤلف.

(٤) انظر شروح المعلقات، واللسان (ريب، حير)

(٥) الطبري ١: ٣٧٦ رقم ٤٩٦

(٦) سورة الروم: ٤

﴿من الثمرات﴾ وقع في موضع المفعول، كما قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾(١). ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾(٢). وأيضا: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٣) وله نظائر أخر. ويحتمل أن يكون ﴿رزقا لكم﴾ هو المفعول، و﴿من الثمرات﴾ حالا عنه: أي كائنا من الثمرات، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾(٤)، وإنما قدمه لتقديم المعرفة على النكرة. وهذا الاحتمال ضعيف، لأن إخراج الثمر من الماء أوضح وجاء له النظائر، فلا يصار إلى غيره.

فعلى التأويل الصحيح يكون قوله تعالى: ﴿رزقا لكم﴾ مفعولا له: أي لأجل أن يرزقكم، أوحالا: أي وهي رزق لكم، والمآل واحد. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾(٥). أي لأجل متاعكم، أو هي متاع لكم ـ على الحالية. وأيضا جامعا للنظيرين: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (فهذا نظير كون "رزقا لكم" حالا) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ. لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾(٦) فهذا نظير كونه مفعولا له.

﴿من مثله﴾ أي من شكله، كقوله تعالى: ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ﴾(٧). وليس

---

(١) سورة الأعراف: ٥٧

(٢) سورة فاطر: ٢٧

(٣) سورة الأنعام: ٩٩

(٤) سورة طه: ٥٣

(٥) سورة النازعات: ٣١- ٣٣

(٦) سورة يس: ٣٣- ٣٥

(٧) سورة ص: ٥٨

المعنى: من رجل مثل محمد صلى الله عليه وسلم. وأخطأ من ذهب إلى هذا المعنى خطأ فاحشا، فقد قال تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾(١). أيضا: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾(٢). والفرق بين "مثله" و "من مثله" يسير، فإن مثل الشئ أشبه بالشئ مما هو من مثله. فالتحدى بسورة واحدة من مثله أهون وأتم حجة، فإنهم لم يقدروا على هذا القدر أيضا.

﴿أعدت للكافرين﴾ أي هي أعدت للكافرين. وحذف المبتدأ في الصفات يعطي قوة، كما هومبسوط في موضعه.

٣٠ـ بيان تأويل الجمل والدلالة على ما فيها من البلاغة

لايخفى أن الكلام ههنا في دعوة المشركين إلى التوحيد، فراعى غاية البلاغة حيث دعاهم إلى ما لا ينكرونه. فإنهم كانوا يزعمون أنهم يعبدون الله، ويعبدون الشركاء تقربا إلى الله، كما حكى القرآن عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(٣). فبالتدريج بين لهم أن عبادتكم لله غير صحيح، لما أنكم بشرككم تعصونه، فقد كفرتم بالله. فدعوتهم إلى عبادة الله هي الدعوة إلى التوحيد، ولكن بالكناية، ليلزم عليهم ما سلموه. ففي قوله: ﴿يأيها الناس﴾ وجه الخطاب إلى المشركين ـ

١ـ لما دل عليه قوله: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾.

٢ـ ولما هو من عادة القرآن أن يخاطبهم بهذه الكلمة.

٣ـ ولما جاء خطاب طويل إلى بني إسرائيل ففرغ أولا عن الخطاب إلى المشركين.

٤ـ ولما سبق قبل ذلك ذكر الكافرين قبل اليهود. وهكذا فهم الأولون.

﴿اعبدوا ربكم﴾ من غير إشراك به. فإن من أشرك بالله لم يعبده، بل

(١) سورة هود: ١٣

(٢) سورة الطور: ٣٤

(٣) سورة الزمر: ٣

عصاه وكفر به. وهكذا فسره ابن عباس رضي الله عنه(١)، ونبين ذلك عن قريب.

﴿لعلكم تتقون﴾ كلمة جامعة. أي لكى تتقوا جزاء الكفر، كما تفهم مما حكى الله عن قول نوح عليه السلام: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾(٢)، وأيضا: لكى يحصل لكم التقوى، فإن التوحيد يهدي إلى التقوى، كما تفهم مما حكى الله عن قول نوح عليه السلام أيضا: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾(٣).

﴿وأنتم تعلمون﴾ أي مع أنكم تعلمون وتقرون بأنه خلقكم ورزقكم، وإنكم تشركون به أندادا لم يخلقكم ولم يرزقكم، فكيف تفعلون ذلك وما عذركم؟

﴿وادعوا شهدآئكم من دون الله﴾ أي ادعوا كل من ترجون نصره، كما فسره ابن عباس رضي الله عنه(٤). وقوله تعالى: ﴿من دون الله﴾ هو بيان للواقعة. فإنهم كانوا يرجون النصر من دون الله، فطالبهم أن يستمدوهم. وكانت العرب تظن أن لكل شاعر جنا يلقى إليه الشعر، وكانوا يعبدون الجن معتقدين بأن لهم قوة وأنهم يتلقون من السماء. فقال لهم استمدوا أولياءكم من الجن والإنس، فإن تعجزوا مع ذلك عن الإتيان بسورة من شكل هذا الوحي، فأقروا بأن ما نزل على محمد ليس من إنسان أو جن أو إله دون الله. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

(١) قال ابن جرير: "أنه ذُكر عنه أنه كان يقول في معنى ﴿اعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾: وحّدوا ربكم" انظر تفسيره ١: ٣٦٢ و ٣٦٣

(٢) سورة هود: ٢٦

(٣) سورة نوح: ٣

(٤) ولفظه في تفسير الآية: "يعنى أعوانكم على ما أنتم عليه" الطبرى ١: ٣٧٦ رقم ٤٩٦

ظَهِيرًا﴾(١). وأيضا فيه دلالة على أن الله تعالى هو منزل هذا الوحي لا غيره، فادعوا غيره إن ظننتم أنه يقدر عليه، كما قال تعالى: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾(٢).

﴿إن كنتم صادقين﴾ كلمة جامعة. أي صادقين في ريبكم، وأيضا فيما تقولون وتشبّثون به من الأقوال، كما حكى الله تعالى عنهم مثلا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(٣). ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾(٤). ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾(٥). ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾(٦). ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(٧) وغير ذلك من شغب ولجاج. فقيل لهم إن كنتم صادقين في ريبكم وفي أقوالكم، فتعالوا إلى أمر يفصل بين الحق والباطل.

قوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا﴾ أيضا كلمة جامعة، أي إن لم تدعوا شهداءكم للإتيان بسورة من مثله. وهذا احتمال ممكن، فإنهم لم يكونوا مجدين في شبهتهم لمعرفتهم بأن هذا القرآن معجزة لهم. وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب﴾ أي على فرض ريبكم. فإنهم قد عرفوا أنه وحي من الله تعالى، وإنما أنكروا وكذبوا عنادا وعتوا كإنكار آل فرعون، حيث حكى الله تعالى عنهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(٨). أو إن لم تأتوا بسورة مثله لعدم استجابة

(١) سورة الإسراء: ٨٨
(٢) سورة هود: ١٣- ١٤
(٣) سورة المدثر: ٢٥
(٤) سورة النحل: ١٠٣
(٥) سورة الأنفال: ٣١
(٦) سورة الفرقان: ٤
(٧) سورة الفرقان: ٥
(٨) سورة النمل: ١٤

شهدائكم لكم في ذلك، كما قال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾(١). ولا منافاة بين الاحتمالين، فإن عدم الاستجابة حاصل على الحالين. فإن المقصود هو علمهم بعدم الاستجابة، فإن لم يدعوهم علما منهم لعجز شهدائهم حصل المقصود. وحسب هذين التأويلين يأول قوله تعالى: ﴿ولن تفعلوا﴾ أي ولستم بآتين بسورة من مثل هذا القرآن، أو ولستم بداعين شهداءكم لهذا الأمر.

قوله تعالى: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾. لما كان الخطاب بالمشركين الذين جعلوا لله أندادا ونصبوا لهم أنصابا وأصناما ذكر لهم أن الكفار وأصنامهم كلهم يلقون في النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ. لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٢). وليس ذلك لعذاب الأصنام المنحوتة، وإنما هو لإتمام تفضيح المشركين وتقبيح الشرك. فإن شعائر الله تعظم، وشعائر الشرك تهان إبطالا لما جعلوا لها من التعظيم بالباطل، وتصويراً للحق وتفضيحا للباطل. ألا ترى كيف فعل موسى عليه السلام بالعجل، ففي سفر الخروج (٣٢: ٢٠): "ثم أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء وسقى بني إسرائيل".

٣١- بعض التدبر في جهة الاستدلال

واعلم أن هذه الآيات جاءت للاستدلال على التوحيد والنبوة صراحة، وعلى المعاد ضمنا، كما ستعرف. وهذه الثلاث هي عيون المطالب التي نزل بها القرآن، والمطلوب إثبات هذا القرآن. فالإيمان المطلوب هو الإيمان بما نزل؛ وهذا عين الإيمان بهذه النبوة.

(١) سورة هود: ١٤
(٢) سورة الأنبياء: ٩٨- ٩٩

واعلم وجه الكلام ليس إلى إثبات الخالق، فإن المشركين قد أقروا به. والخطاب بـ﴿يَأَيُّهَا الناس﴾ لا يكون للشاذ الذي أنكر بالخالق، وقد أكثر القرآن بإبطال الشرك. وأما إثبات الخالق فلم يتركه أيضا كما يجيئ عن قريب، ولكن قليل لقلة الخصماء فيه، ولأن المنكر بالضروري لايعبأ به؛ فلا يحتج عليه صراحة وإنما يشار إليه إشارة.

أما وجه الاستدلال على التوحيد، فبأن الله الذي تقرون بأنه خلقكم وآباءكم، وخلق الأرض والسماء فأسكنكم في دار وسيع، ورزقكم من فوقكم وتحتكم، فهو الرب الرؤف الذي لامنازع في ملكه. فإن من خلق، فله الملك فهو الرب وأنتم عباده. ثم رزقكم وأنعم عليكم فهو الرب لكم وهو المستحق بأن تعبدوه، كما قال تعالى: ﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾(١). فكيف تشركون به من لم يفعل من ذلك شيئا. وطريق الحجة أن يوخذ على الخصم بما أقربه. ولهذا الاستدلال على التوحيد نظائر كثيرة. قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾(٢).

أيضا: ﴿ءَآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ. أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَ إِلَٰهٌ مَعَ اللهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ. أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ، وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا، أَ إِلَٰهٌ مَعَ اللهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ. أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَ إِلَٰهٌ مَعَ اللهِ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ. أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ، أَ إِلَٰهٌ مَعَ اللهِ، تَعَالَى

(١) سورة الأنعام: ١٠٢

(٢) سورة فاطر: ٣

اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَ إِلَٰهٌ مَعَ اللهِ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

وهذا النمط كثير في القرآن، وفيما ذكرنا كفاية.

واعلم أن هذا الاستدلال وإن كان مسوقا لإبطال الشرك، فإنه بالطريق الأولى دليل على الخالق. والقرآن يورد كثيرا من البراهين الدالة على الخالق المريد الحكيم الرحيم ولكن يسوقها لإثبات التوحيد. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَابُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾(٢). يعني أن آثار قدرته وحكمته براهين على وجوده، ولابرهان على الشركاء. فساق الكلام لإثبات التوحيد، فإن الخصومة فيه، ولكن أشار إلى أن البرهان على الخالق ثابت بين لايشك فيه. قال تعالى: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٣). أي هذا بين ظاهر غاية الظهور، ولا برهان على الشريك ـ والقول بما لا دليل عليه حماقة ولا سيما إذا كان فيه نقض وهدم لما هو ثابت بالدلائل الواضحة.

وأما الاستدلال على النبوة، فبإثبات كون القرآن منزلا من الله تعالى، وهذا ظاهر. ولكن قبل صريح الاستدلال ذكر ما هو أنجح وأقرب، وذلك من وجوه:

الأول أن ألقى إليهم المطلب الذي جاء به القرآن و لم يمكن لهم أن يدفعوه. فكأنه قيل لهم إن هذه هي دعوة القرآن، فكيف تنكرون بما يدعوكم إلى الأمر الواضح.

والثاني أنهم قد عرفوا كون القرآن معجزا ولكن كبر عليهم الإيمان به، لما يسدهم من حجابي الشرك وعدم التقوى لإنكارهم بالبعث، فدعاهم إلى ما يزيل عنهم هذين الحجابين. فدعاهم إلى التوحيد، وذكر أن التوحيد يهديكم للتقوى،

(١) سورة النمل: ٥٩- ٦٤

(٢) سورة المؤمنون: ١١٧

(٣) سورة إبراهيم: ١٠

والقرآن هدى للمتقين. فإذا وحدوا الله بالعبادة زال عنهم ما يسدهم عن الإيمان بالقرآن والاهتداء به.

والثالث أن دعاهم إلى التوحيد من طريق يهديهم إلى الإيمان بالنبوة عموما، وبهذا الكتاب خصوصا. وبيان ذلك أن في خلق الله تعالى إياهم وآباءهم، وخلقه ما في السماوات والأرض لنفعهم ورزقهم لأوضح دليل على النبوة عموما. فإن الرب الرؤف الذي أحيا أجسادكم ورباكم برزق من السماء جسماني، فلا بد أنه أحيا قلوبهم بهدى فطرى، وأنزل لكم رزقا من السمآء روحانيا، وقد سمى الله تعالى الوحي رزقا وشبهه بالمطر المبارك في القرآن وكتب الأنبياء. وهذا أصل عام يتبيّن لهم منه أن هذا الكتاب الذي جاء بأوضح الهدى وأبلغه إلى نفوسهم لا بد أن يكون من ربهم.

فبعد ما مهد لهم السبيل دعاهم صراحة إلى النظر في نفس هذا الكتاب الذي لم يرتابوا فيه من قبله ولكن من قبل الموانع التي في قلوبهم، ولذلك قال تعالى: ﴿وإن كنتم فى ريب﴾. فدعاهم إلى ما يزيل كل شبهة عنهم. فإن أصغر سورة منه مطالب بها جميع الإنس والجن، وهم أمراء البلاغة وحكامها على سائر العرب، فعجزهم من كل الوجوه يبين لهم أنه من رب السماوات والأرض. فهذا ما يتعلق بالتوحيد والنبوة.

وأما المعاد فأثبته في آخر هذا الخطاب. ولذلك إكتفى ههنا بمحض الإشارة والتمهيد له بذكر الربوبية(أولاً)، وبإثبات القرآن الذي معظمه في إثبات المعاد(ثانياً)، وبذكر النار جزاء للشرك والإنكار بالوحي(ثالثاً)، وبذكر الجنة ـ كما سيأتي ـ جزاء للإيمان وعمل الصالحات. فإن الملك والحكمة والربوبية تبطل إن لم يكن لهم معاد، كما هو مبسوط في موضعه.

٣٢ـ بيان نظم هذه الجملة

مما قدمنا يتضح حسن نظم هذه الجملة في نفسها، وفي ربطها بما قدمها. وأما ربطها بما بعدها، فذلك أن الكلام في مخاطبة الكفار بإثبات التوحيد والنبوة انجر إلى إيراد الترهيب، فذكر النار. ومن عادة القرآن جمع الترغيب بالترهيب، فالتفت إلى ذكر الجنة حسب عادته. وأودع في هذا الالتفات فوائد مهمة، وسيأتيك ذكرها. فقال عز من قائل:

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِىْ مِن تَحْتِهَا الاَنْهارُ، كُلَّمَا رُزِقُوْا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوْا هـذَا الَّذى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوْا بِهِ مُتَشَابِها، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُوْنَ(٢٥) إِنَّ اللهَ لاَيَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوْضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوْا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوْا فَيَقُوْلُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهـذَا مَثَلاً، يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِىْ بِهِ كَثِيرًا، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوْصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ(٢٧).

٣٣ـ تفسير الكلم والتأليف

﴿وبشر﴾ التبشير: هو الإخبار بالخير، وضده: الإنذار. والاسم منه: البشرى والبشارة. قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾(١). أيضا:

(١) سورة البقرة: ٢١٣

﴿البعوضة﴾ البَقّة. وهي المثل في غاية الضعف والحقارة، وقد ضربها الحكماء مثلا، فقالوا: وقعت بعوضة على قرن ثور فقالت له: لعلى ثقلت عليك فأطير عنك، فأجابها الثور: يا هذه! ما دريت حين وقعت ولن أدري متى طرت.

﴿فوقها﴾ أي في الخبث والصغر والحقارة، أو في الحجم والمنزلة. وكلا المعنيين سائغ، كما ستعرف.

﴿الفسق﴾ فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرها. وفسق الرجل: خرج من المعروف إلى المنكر. قال تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(١). فهو ارتكاب المنكر بجسارة وقريب من الفجور. قال تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾(٣). وقال تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾(٤).

تأليف الكلم

﴿وبشر الذين﴾ الواو جامعة لمعاني العطف، والالتفات، والاعتراض. ونبينه في الفصل التالي.

﴿أن لهم جنات﴾ أي بأن لهم. والجار يحذف كثيرا قبل "أن".

﴿رزقوا منها من ثمرة رزقا﴾. "رزقا" مفعول ثان، و"من ثمرة" بدل من "منها". أي رزقوا رزقا من ثمرة الجنة. وبعيد أن يكون "رزقا" مصدراً، فإن مجيئه

(١) سورة الكهف: ٥٠
(٢) سورة الحجرات: ٧
(٣) سورة البقرة: ١٩٧
(٤) سورة الإسراء: ١٦

اسما كثير في القرآن، وما جاء مصدراً. وإنما أخر لكونه نكرة. وأيضا يدل على كونه اسما رجع ضمير المذكر إليه فيما يتلوه من قوله: ﴿وأتوا به﴾.

﴿أتوا به متشابها﴾ أي أتوا بالرزق، و﴿متشابها﴾ حال من الضمير.

﴿بهذا مثلا﴾ مثلا حال عن الإشارة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾(١). وأيضا: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾(٢).

٣٤ـ نظرة من جهة البلاغة

قوله تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ الآية. هذه الجملة ذات وجوه. واستشكل النحويون عطف الإنشاء على الخبر، وهو جائز. ثم هذا الكلام ليس بعطف نحوي، وإنما هو التفات واعتراض، كما ترى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣). وهذا الالتفات لايخالف كونه عطفا معنويا، أي جمعا ووصلا بما فهم من السابق من إنذار المشركين. ودل هذا العطف على أن السابق وإن كان خطابا من الله تعالى، ولكنه مما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغه من الله تعالى. وإنما خاطبهم من غير واسطة ـ

١ـ لأنهم لم يكونوا مؤمنين بالنبوة. فلم يحول ذلك القول إلى النبى، بل خاطبهم بأمر واضح، ليكون أوقع عندهم.

٢ـ وأيضا فيه إكرام للمؤمنين، بما لم يجمع بينهم وبين المشركين في خطاب واحد.

٣ـ ثم يزداد الوعد بالجنة حسنا لدى المؤمنين إذا جاء بواسطة النبي، فعاد

(١) سورة الأنعام: ١٥٣
(٢) سورة هود: ٧٢
(٣) سورة التوبة: ١١١- ١١٢

﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾(١). أيضا: ﴿أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾(٢). وهذا كثير في القرآن وكلام العرب. وأما قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣). فمن باب قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(٤).

﴿الجنة﴾ إنما سميت "جنة" لما تستر الأرض، من: جن الشئ، وجنّ عليه وأجنه: ستره. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾(٥). قال امرؤ القيس:

فَلَمَّا أَجَنَّ الشَّمسَ عَنِّي غِيارُها(٦)

ومنه: المجن للترس، والجنّة لما تستر به من السلاح، والجنُّ والجنِّيّ لأنها لا تُرى، والجنين للولد ما دام في البطن. والعرب كانت تسمي النخيل "جَنَّة"(٧). قال زهير:

كَأَنَّ عَيْنَيَّ في غَرْبَيْ مُقَتَّلَةٍ ... مِن النَّواضِحِ تَسقي جَنَّةً سُحُقا(٨)

أي نخيلا طويلة. ولذلك جاء: ﴿من تحتها﴾. قال عبيد بن الأبرص:

أَوْ جَدْوَلٌ في ظِلاَلِ نَخْلٍ ... لِلْمَاءِ مِنْ تَحْتِهِ سُكُوبُ(٩)

---

(١) سورة النساء: ١٦٥

(٢) سورة الروم: ٤٦

(٣) سورة آل عمران: ٢١. سورة التوبة: ٣٤. سورة الانشاق: ٢٤

(٤) سورة الدخان: ٤٩

(٥) سورة الأنعام: ٧٦

(٦) عجز البيت:

نَزَلْتُ إليه قائماً بالحَضيضِ

ديوانه: ٧٤

(٧) انظر اللسان (جنن)

(٨) ديوانه: ٣٥

(٩) ديوانه: ١٢

﴿الأنهار﴾ النهر: ما يجري فيه الماء، وهو فوق الجدول ودون البحر. وأصله: الشق والفتق، كالبحر. ومنه أنهر: وَسَّع. قال قيس بن حطيم:

ملكتُ بها كفّي فأنهرتُ فتقَها ... يرى قائم مِن دونها ماوراءها(١)

﴿قالوا﴾ القول يستعمل على خمسة أوجه:

١ـ قول مسموع.

٢ـ وقول بالسر. قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾(٢).

٣ـ إيماء من غير تكلم. قال تعالى: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾(٣).

٤ـ وحديث في النفس من غير كلام مرتب بالحروف، وذاك بإحضار المعنى الذي يحضر قبل الكلام. قال امرؤالقيس:

إذا قلتُ هذا صاحب قد رَضيتُه ... وقَرَّتْ به العَينانِ بُدِّلْتُ آخَرا(٤)

أي إذا ما تصورت هذا الأمر في نفسي

٥ـ وإشارة عامة سواء كانت بفعل أو بلسان الحال، كما جاء في الحديث: "وقال بيده هكذا"(٥).

وكما قيل: "امتلأ الحوض وقال: قطني"(٦).

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقي: ١٨٤

(٢) سورة الرعد: ١٠

(٣) سورة مريم: ٢٦

(٤) ديوانه: ٦٩

(٥) انظر صحيح البخاري، كتاب الغسل، باب من أفرغ بيمينه على شماله في الغسل. رقم الحديث: ٢٦٦

(٦) اللسان (قول)

مكرراً وموكداً.

ويبين كون هذا الكلام التفاتا واعتراضا أن بعد ذلك عوداً إلى خطاب المشركين، كما ستعرف.

قوله تعالى: ﴿إن الله لا يستحيى﴾ الآية جملة مستقلة اقتضاها المحل، فلم تعطف. وفيها دفع دخل ينشأ مما سبق، كما ستعرف. وأيضا فيه دفع الريب عن القرآن من جهة الشبهة على ما فيه من المتشابه.

والدليل على الحق قسمان: قسم لإثباته، وقسم لإزالة الشبهات ففرغ عن الدليل المثبت فيما مر. وسوق الكلام على نهجه المستقيم أعطى هذه الفرصة. فذكر الجانب الثاني من الدليل، فأتمه بنوع من اختلاس الفرصة، ليكون أبعد عن صريح الجدال - والقرآن يجتنبه كثيرا، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(١). وهذا مبسوط في موضعه.

قوله تعالى: ﴿أولئك هم الخاسرون﴾. واقع للتنبيه وللملاحظة جامعة، فلم يعطف كما مر في نظائره. والخسران - إن الله تعالى هداهم وأوضح لهم طرق السعادة ولكنهم أنكروا به ولم ينتفعوا به، فما أكبر خسرانهم!

٣٥- تأويل الجمل

قوله تعالى: ﴿قالوا هذا الذى رزقنا من قبل﴾ المراد بالقول ههنا التذكر وحديث القلب، كما مر في عنوان الكلم. وأما ﴿من قبل﴾ فقد اختلف فيه أهل التأويل، فذهب قوم إلى أن المراد به ما رزقوا في الدنيا(٢). وقد رووا عن ابن عباس وعن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وعن قتادة

---

(١) سورة النحل: ١٢٥

(٢) انظر تفسير الطبري١: ٣٨٥- ٣٨٦

ومجاهد: "هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا"(١). وبناء على هذا التأويل ذهبوا إلى أن قوله تعالى: ﴿وأتوا به متشابها﴾ معناه: متشابها بما رزقوه في الدنيا من قبل، ورووا ذلك عن قتادة وعكرمة - قالا: إن ثمر الجنة "يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أطيب"(٢).

وقال آخرون المراد منه ما أكلوه في الجنة٣. قال ابن جرير رحمه الله: "وهذا التأويل مذهب من تأول الآية. غير أنه يدفع صحته ظاهرُ التلاوة"(٤). وقال: "محال أن يكون من قيلهم لأول رزق رُزقوه من ثمارالجنة: هذا الذي رُزقنا من قبل هذا من ثمار الجنة!"(٥)

أقول وبالله التوفيق أنه لا منافاة بين التأويلين، وظاهر القرآن يدل على ما يجمع بينهما وهو أحسن تأويلا. فإنهم إذا رزقوا أول مرة شبهوه بما رزقوه في الدنيا، ثم إذا رزقوا بعد ذلك شبهوه بما رزقوه في الجنة. فإن قولهم لا يكون مرة واحدة، بل كلما رزقوا قالوا ذلك. فدل ظاهر القرآن على أن نعيم الجنة يترقي كل مرة، فكل رزق - مع كونه من نوع الرزق الأول - يتزايد حسنا وطيبا. وذلك أمر جدير بالذكر، وبسطه في عنوان التدبر.

قوله تعالى: ﴿إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾. أي إنه تعالى لا يبالي بأن يضرب مثلا أحقر شئ كالبعوضة وما هو أصغر منها كالهباء، كما جاء في القرآن؛ أو أكبر منها بقليل أو كثير كالذباب كما جاء في القرآن. وقد جاء مثل البعوضة في الإنجيل: "أيها القادة العميان الذين يحثون عن

---

(١) المصدر السابق١: ٣٨٦ رقم ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤. وابن كثير١: ٦٠- ٦١

(٢) المصدر السابق١: ٣٩١ رقم ٥٣٢، ٥٣٣

(٣) المصدر السابق١: ٣٨٦

(٤) المصدر السابق١: ٣٨٧

(٥) المصدر السابق١: ٣٨٧- ٣٨٨

البعوضة ويبلعون الجمل" (متى ٢٣: ٢٤).

فإن المقصود من المثل ليس نفسه، بل إيضاح أمر ما. واليهود كانوا يضلون على أمثال الإنجيل، وهكذا على أمثال القرآن. فأجاب الله تعالى ههنا عن اعتراضهم القديم وبين أن إنكارهم نتيجة فسقهم، ونقضهم عهود الله، وضلالتهم من الأول.

قوله تعالى: ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ هذا وما بعده تفصيل الفاسقين. وهذا الوصف يجمع كل فاسق من المشركين وأهل الكتاب. فإن الله تعالى أخذ عهدا من جميع بني آدم بالتوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى، شَهِدْنَا، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(١). فهذا عهد عام. وأما أهل الكتاب فقد عاهدهم بالتوحيد والطاعة مرات، وكثر ذكره في القرآن والتوراة.

قوله تعالى: ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض﴾.

أي يثيرون الحرب والفتنة المنجرة إلى قطع الأرحام، والفساد في الأرض ــ وقد علموا أن صلة الرحم أكبر ما أمر الله به ــ ويفسره قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾(٢). وقد مر أن الإنكار بالإسلام وطاعة النبي يلزم الفساد في الأرض.

٣٦ـ نظرة من جهة التدبر فيما أشار به إلى حقيقة الجنة

اعلم أن هذه الجلمة وما قبلها مشتملة على ذكر الجنة والنار. وقد كثر في القرآن ذكرهما إجمالا وتفصيلا، فلنذكر ههنا ما هو المراد منهما، وما هو الحد لنا

(١) سورة الأعراف: ١٧٢- ١٧٣

(٢) سورة محمد: ٢٢

في معرفتهما. فنقول وبالله التوفيق أن المسلمين لتفاوت العقول اختلفوا في فهم القرآن. فطائفة أخذوا بالظاهر، ومنهم من غلا فيه فصار حشويا محضا. وطائفة أخذوا بالباطن، ومنهم من غلافيه وهم الباطنية، وطائفة جمعوا بينهما. فمنهم من زعم أنهم أدركوا البطون وقد اضطربت أقوالهم، ومنهم من سلك مسلك الاحتياط وتوقف على حد علمه. وهذا الآخر أسلم طريقا وأحسن قيلا. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١). وقال تعالى في وصف المقربين. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾(٢). وقال في وصف القرآن: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾(٣). فبين أن في القرآن متشابها وذم من ابتغى تأويله، وأن في قلوبهم زيغا.

فالمحتاطون يقفون على قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ وهم الذين رسخت أقدامهم في العلم فلم يتجاوزوا حده، وآخرون لا يقفون هناك ويتلون سردا: ﴿إلا الله والراسخون فى العلم﴾ ويقولون إن لم يعلم الراسخون أيضا تأويل المتشابه، فما الفائدة في إنزاله؟ وهذا باطل، فإن للكلام فوائد كثيرة من دون العلم بتأويله.

قد ذم الله تعالى من جحد بآياته وأنكر بالمعاد لجهله بتأويل ما أنزل فيه، حيث قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ، قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ. الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هٰذَا وَمَا كَانُوا

(١) سورة الإسراء: ٨٥

(٢) سورة البقرة: ٢٥٥

(٣) سورة آل عمران: ٧

بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ. وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ﴾ الآية(١). فبين أن كتاب الله جاء مفصلا من العالم بالحقائق، فصار هدى ورحمة للمؤمنين، ولكن من أنكر بيوم القيامة ونسيه وما كان ليؤمن به حتى يعلم تأويله صار من أصحاب النار؛ ولكن إذا جاء ذاك اليوم ظهر لهم تأويل ما أخبروا عنه، فحينئذ أقروا بأن ما جاء به الرسل كان حقا.

وهكذا ذم الله الذين كذبوا بالقرآن إذ لم يعلموا تأويله، حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

فلو لم يكن من دون الإحاطة بالعلم ومن دون ظهور التأويل فائدة لما ذمهم الله على تكذيبهم ولما سماهم ظالمين. و إذًا اعتذروا بأنما أنكرنا لما لم نحط بعلمه وقد التبس علينا تأويله. ولكنهم لا يعتذرون بل يقرون بجرمهم.

وهذا هو الظاهر عقلاء فإن الله تعالى قد أخبر بغاية الإيضاح أن المعاد حق ولا بد منه، لأن الله يرى أعمالنا وهو عادل حكيم. ثم أخبرنا عن صفات الثواب والعقاب بكمال التفصيل فظهر لنا ما فيه كفاية لنا لأجل الرغبة والرهبة.

وقد بين القرآن فيما وصف به المعاد أن أمور تلك الدار لها كيفيات تخص بها: تنبت الشجرة في النار، ومع أنها ترمي بشرر كالقصر يغلى فيها الماء والناس فيها أحياء، ومع ذلك بينهم وبين أهل الجنة تحاور. وهكذا ذكر المسيح عليه السلام

---

(١) سورة الأعراف: ٥٠- ٥٣

(٢) سورة يونس: ٣٧- ٣٩

المعاد، فوصف جهنم بأنها أتون نار وأن دودها لا تموت، وأنه يكون تحاور بين أصحاب جهنم والمؤمنين، كما سيأتيك. فمن كان في رأسه ادنى عقل تبين له أن تلك النشأة على صفات تخص بها، وأن هذه الأوصاف مما لا سبيل ههنا إلى الإحاطة بعلمه. والجهل بشئ من بعض الوجوه غير مناقض لعلمه من جهة أخرى. وتمام البيان للمتشابه والتأويل سيأتيك إن شاء الله تعالى في تفسير السورة التالية.

وإنما المقصود ههنا أن أحوال المعاد وكثيرا من أمور أخر لا سبيل لنا إلى العلم بتأويله في هذه الدار. ولكن الله تعالى كل ما أخبر به عنه فهو محض حق وبيان صدق، وتعبير اللذات والآلام الأخروية في غاية المطابقة بماعبر عنه. فلا نقول أن هناك لا جنة ولا نار، ولا شرب ولا أكل، ولا الحور ولا القصور، بل هي أحق بهذه الأسماء مما يوجد في الدنيا، وأتم و أكمل لشدة إحساسنا بها و ودوامها. فكل لذة وألم في الدنيا على اختلاف أنواعهما موجودة هناك مشابهة بما ههنا. فإنا نلتذ ونألم ههنا بواسطة هذا الجسم الكثيف والحاسة الناقصة، كمن يرى الشئ من وراء الستور ويمسه من ظاهر القشور. ثم اللذات والآلام التي توجد ههنا ليست بصفات لازمة ذاتية لموصوفاتها، فإنه يمكن مثلا أن تسلب الحرارة من النار، والحلاوة من السكر، والبهجة من الأزهار، والضياء من الشمس. وكذلك يمكن أن لا نألم من الحرق، ولا نلتذ من المأكل والمنكح، فإنها أمور ضمت وزوجت بعضها ببعض. وأما آثار الإيمان والكفر،والعلم والجهل، والبر والفجور على النفوس من اللذة والألم، فلازمة أبدية، فإذا تجلت الحقائق تجلت الآثار الحقيقية.

فلا نقول أن تلك دار المثال وهذه دار الحقيقة، كلا بل تلك دار الحقائق وهذه دار التمثيل. فههنا ضربت الأمثال وهناك يقع التأويل. وقد أوضح القرآن الحكيم هذه الأمور بإشارات في وصف المعاد، كما ندلك عليها في مواضعها. والآن إنما نذكر ما يليق بهذه الجملة. فنقول أن قوله تعالى: ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة﴾ الآية دل -

١ـ على كون الجزاء حقيقة للأعمال.

٢ـ وعلى تجدّد نعيم الجنة. وهذان جديران بالذكر. وقوله تعالى: ﴿إن الله لايستحيي أن يضرب مثلا ما﴾ الآية دل ـ

٣ـ على حكمة ضرب الأمثال.

٤ـ وعلى علل الضرر بها.

٥ـ وعلى أن الله تعالى لايضل بالقرآن إلا من استحق له بأعماله.

فهذه خمسة أمور مهمة، ونذكرها واحداً بعد واحد.

الأول ـ كون رزق الجنة مشابها لما كان عليه النفس في الدنيا. فدلنا على أن الثواب والعذاب كليهما حقائق أعمالنا. أما كون العذاب حقيقة السيآت فقد ذكره القرآن كثيراً، ليدل على أن الله تعالى لا يظلم أحدا بل هم يحصدون ما زرعوه، فلا لوم إلا عليهم. فكثيرا ماصرح به القرآن كل التصريح، وأحيانا أشار إليه حيث ذكر العذاب مشابها بما كانوا عليه، كما بينا في مواضعها. وههنا إنما نورد بعض الأمثلة:

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾(١). أيضا: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ، هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(٢). أيضا: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾(٣). أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٤). أيضا: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٥). أيضا: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ

---

(١) سورة الزمر: ٢٤

(٢) سورة التوبة: ٣٤- ٣٥

(٣) سورة طه: ١٥

(٤) سورة التحريم: ٧

(٥) سورة النمل: ٩٠

مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١). أيضا: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢). وهذا كثير.

فتبين أن جهنم ليست إلا كشفا لما كانوا عليه في الدنيا، فهم الآن من جهة الحقيقة في النار. قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ. يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣). فبين أن جهنم محيطة بهم الآن. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾(٤). فتأويله بأنه سمى نارا تسمية العلة باسم الأثر خلاف النص الصريح من غير حاجة. وقال تعالى في ذكر قوم نوح عليه السلام: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾(٥). فليس أنهم يدخلونها بل قد دخلوها. وقال تعالى في ذكر مؤمن آل فرعون: ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾(٦). وذلك بأن حقائق الأعمال يبتدأ ظهورها بعد الموت، وإنما يتم الإحساس بها بعد القيامة. فمن الحق الصريح ما جاء في صحاح الأخبار أن القبر حفرة من النار، أو روضة من رياض الجنة(٧). فإنما هو جزء منها لاكلها.

---

(١) سورة الجاثية: ٢٨

(٢) سورة يس: ٥٤

(٣) سورة العنكبوت: ٥٤- ٥٥

(٤) سورة النساء: ١٠

(٥) سورة نوح: ٢٥

(٦) سورة غافر: ٤٥- ٤٦

(٧) رواه الترمذي في صفة القيامة. ولفظه: "إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار". رقم الحديث ٢٤٦٠.

وقوله تعالى: ﴿يعرضون عليها غدوا وعشيا﴾ يذكر في ما يجرب كل امرئ في هذه الحياة حين ينام. فإن النفس في حالة النوم عرضة للانفعال لآثار ماجرى عليها في اليقظة، فحسبما يكون شغله في النهار يرى في الليل من الرؤيا الطيبة أو الخبيثة. فهذا نوع من الكشف. ثم بعد الموت انتباه ثان أوضح مما قبله، ثم يتضح بالكمال يوم القيامة.

وأما كون الثواب حقيقة الحسنات، فلكونه فضلا من الله تعالى وإنعاما مضاعفا، لم يحتج إلى إكثار ذكره. ولكنه تعالى لم يتركه أيضا، فقال في ذكر الذي آمن بالمرسلين من أصحاب القرية: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ. قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَلِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾(١). وهذا صريح في أنه دخل الجنة ونال من المغفرة والإكرام ماتمنى أن يعلمه قومه. وذلك بأن الموت أول كشف عن حقيقة الأعمال وأول ظهور للذات ثمراتها. ولا شك في أن في الأعمال الصالحة لذة يجدها الصالحون في هذه الحياة، فكلما رزقوا في الآخرة من اللذات تذكروا ما وجدوه في الدنيا من اللذات التي وجدوها في الإيمان وأقسام الخيرات، لمشابهة تكون بين كل حسنة وثوابها. ولكن هناك يكون الإحساس أوضح وأطيب.

وأما قلة الإحساس بتلك اللذات وبآلام السيآت في هذه الدار، فلكونها دار الغفلة والغرور، واختلاط الحق بالباطل، والظلمة بالنور، وغلبة المحسوس على المعقول، واستيلاء الشهوات الكثيفة على الرغبات العالية. ولكن دار الآخرة كاشفة. قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِاْىءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(٢). وقال تعالى فيما يخاطب به الكافر ذلك اليوم: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ

---

(١) سورة يس: ٢٥- ٢٧

(٢) سورة الزمر: ٦٩- ٧٠

غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(١). فالكافرون في هذه الدار يتضاعف عماهم حتى يبطل حسهم بآلام معاصيهم بل صاروا يلتذون بالآلام، وهذا غاية تشويه الفطرة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢).

وأما المؤمنون فهم يحسون إحساسا صحيحا بلذة الإيمان والأعمال الصالحة، ولكنهم على درجات متفاوتة. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٣)

١- فمنهم من اطمأن قلبه بالإيمان وانطفأ عطشه إلى الشهوات.

٢- ومنهم من قوى فيه أثر الإيمان فوجد لذته، فقوى على التطوع؛ فزادت أعماله الحسنة.

٣- ومنهم من ترقى، فتبتل إلى ربه بجميع همه؛ فهذا صاحب التجريد كأصحاب الصفة والرواهب.

٤- ومنهم من تمكن في حاله، فقلبه مشغول بربه وظاهره مشغول بالناس، كأصحاب الإرشاد على سنة الرسل؛ و ذلك كمال الحال.

فإن شئت شبهت أصحاب هذه الحالات بالوارد على نهرماء، ولبن، وخمر، وعسل. وتلك الأحوال تتوارد على قلوب المؤمنين، وتتفاوت فيها درجاتهم من جهة غلبة بعضها على بعض.

فهل ترى كيف انفجر من طهارة النفس هذه الأذواق كأنهار صافية، وكيف خرج من شجر الإيمان ثمرات الأعمال الصالحة والأحوال الطيبة على اختلاف لذاتها. وانظر الآن كيف يطابق بذلك ما ضربه الله مثلا للجنة وأنهارها، والإيمان وأثمارها، حيث قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ

---

(١) سورة ق: ٢٢

(٢) سورة المطففين: ١٤

(٣) سورة المجادلة: ١١

غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ﴾(١). وحيث قال تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ. أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(٢). فمن شرب من تلك الأنهار وذاق من هذه الأثمار في الدنيا فهو الذي يذوقها في الآخرة، فيتم له ما يشتهيه من اللذة العليا التي لا يمكن التلذذ بها في هذه الحياة الدنيا قبل التزكي التام عن كثافة الشهوات. وكذلك لا يمكن الكشف عنها بالتمام في هذه الدار المظلمة. قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(٣). وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه بطرق كثيرة أنه قال: "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء"(٤). ولكن الله تعالى وعدهم بها، ورغبهم إليها، وعرفها لهم على سبيل التمثيل. فإن الآن ليس للناس سبيل وراء التمثيل إلى إدراك ما في الآخرة كما هو هو، ولا سبيل إلى درك تأويلها في الدنيا.

الثاني ـ كون نعيم الجنة مع الخلود فيه متجددا يشبه التالي السابق، ولكن يكون أطيب مما قبله. وهذا يدل على أن الصلحاء يتزايدون نعمة. ولما كانت النعم حقيقتها رضوان الله والقرب منه ـ وهذا لا نهاية له ـ فهم لا يزالون يتقربون من ربهم، فيزدادون تلذذا. وقد جاء في الخبر الصحيح أن منازل أهل الجنة متفاوتة بعضها فوق بعض(٥)، وقد جاء في القرآن ذكر منه. وقد سبق القول في أنهار

---

(١) سورة محمد: ١٥
(٢) سورة ابراهيم: ٢٣- ٢٥
(٣) سورة السجدة: ١٧
(٤) انظر الطبرى١: ٣٩٢ رقم ٥٣٤ و ٥٣٥
(٥) لعله يشير إلى الأحاديث التي وردت في درجات أهل الجنة.

الجنة. ومن هذا النمط قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا. عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾(١). ثم ذكر بعد ذلك أعمالهم الحسنة حتى قال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا. عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾(٢). وقال تعالى في موضع آخر: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ. وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ. عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾(٣). فدلنا على تفاوت درجات النعيم ومنازل المقربين.

وجماع هذه الأوصاف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(٤). وهذا قول مطلق، فصريح في أنه لا اطلاع لنفس مع تفاوت معارف العلماء على حقيقة ذلك النعيم. وكل ما كشف لمن كشف له فهو في جلباب صورة، وله تأويل كما جرينا في الرؤيا الصحيحة.

الثالث ـ قد بينا أنه لما لم تكن سبيل إلى درك حقائق الآخرة، ولم يكن بد من الإخبار بها لأجل الترغيب والترهيب، وجب ذكرها بالأمثال. ثم في ضرب الأمثال فوائد أخر:

١ـ أدناها أنها تجعل الخفي جليا، والمعقول محسوسا، والمطوي منشورا؛ فيأخذ القلوب بمجامعها. ولذلك كثر الأمثال في كلام الأنبياء والحكماء والبلغاء.

٢ـ ثم ربما يحتاج إليها لصيانة بعض الحقائق العالية لكي يفهمها من كان أهلا لها، وتلتبس على من لم يستحقها، كما قال المسيح عليه السلام حين سأله تلاميذه: "لماذا تكلمهم بالأمثال"(٥) ـ وكان أكثر كلامه مثلاً ـ فقال: "١٢من له سيعطى

---

(١) سورة الإنسان: ٥- ٦
(٢) سورة الإنسان: ١٧- ١٨
(٣) سورة المطففين: ٢٥- ٢٨
(٤) سورة السجدة: ١٧
(٥) في الترجمة البيروتية: بأمثال. إنجيل متى ١٣: ١١

ويزاد. وأما من ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه. ١٣ من أجل هذا أكلمهم بأمثال. لأنهم ينظرون ولا يبصرون ويسمعون ولا يفهمون ١٤٠ فقد حقت عليهم نبوة أشعيا تسمعون ولا تفهمون وتنظرون ولا تبصرون" (متى ١٣: ١٢-١٤) (١).

فالأمثال هدى للمؤمنين وضلال للمنكرين. ويشبهه ما جاء في القرآن: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾(٢). وهكذا جعل الله آياته المشهودة في الأرض والسماء، فإنها بينات للعقلاء ومحجوبات عن الغافلين.

٣- ثم في ضرب الأمثال نوع من الرفق، لما فيه خفاء. فلو صرح ببعض الأمور لكان القول أشد وقعا، فنفروا وسدوا آذانهم، ولم يؤمن من كان فيه رجاء.

٤- ثم في إخفاء الحقائق عن الآثمين حكمة أخرى، وذلك أنهم لو فهموه لم يقبلوه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ. وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾(٣). وكما قال المسيح عليه السلام: "ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير" (متى ٧: ٦). فمن الحكمة أن الله تعالى جعل الآثمين غير فاهمين، ويزيد المتقين نوراً ومعرفة، كما مر في قول المسيح عليه السلام، وكما جاء في غير موضع من القرآن.

٥- ثم في ذكر سعادة الآخرة وشقاوتها على طريق الأمثال حكمة بالغة من جهة الترغيب والترهيب. وبيان ذلك أن الناس متفاوتون في تعقل اللذة والألم، فمنهم من لايمكنه أن يتصور نعيما أو بؤسا غير هذه اللذات الحسية، فلو رغبوا فيما لم

---

(١) في الترجمة البيروتية: "... ١٣ مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون. ١٤ فقد تمت فيهم نبوة أشعياء القائلة تسمعون سمعا ولا تفهمون. ومبصرين تبصرون ولا تنظرون".

(٢) سورة العنكبوت: ٤٣

(٣) سورة الأنفال: ٢١- ٢٣

يتصوروه لم يرفعوا له رأسا و لم يجدوا له إحساسا. ولذلك ترى الأمم من لدن قوم نوح عليه السلام إلى أمة موسى عليه السلام لم يذكر لهم من الأجر والعقاب إلا مايقع في هذه الحياة، حتى جاء المسيح عليه السلام فلم يزد في ذكر النعيم غير حضن ابراهيم، والوعد بملكوت الله ـ وكانت اليهود تتمنى ما سلبوا من المملكة الدينية التي كانت لهم ـ ولكن ضرب له أمثالا كثيرة، وأكثرها تشير إلى أمر يكون في هذه الحياة. وذكر مرة واحدة ما يجري على الصالح والشرير بعد الموت، فقال (لوقا ١٦: ١٩- ٢٦):

"١٩ كان إنسان غني يلبس(١) الأرجوان والبز يتنعم(٢) كل يوم مترفها ٢٠ وكان مسكين اسمه لعازر مصابا بالقروح مطروحا على باب ذاك الغني(٣) ٢١ يشتهي(٤) أن يأكل من الفتات الساقط من مائدته(٥) بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه. ٢٢ فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم. ومات الغني أيضا ودفن. ٢٣ فرفع عينيه وهو في الهاوية في العذاب(٦) ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه. ٢٤ فنادى وقال يا إبراهيم(٧) ارحمني وأرسل لعازر ليبل طرف إصبعه بماء ويبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب. ٢٥ فقال إبراهيم يا ابني اذكر انك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر المصائب(٨). والآن هو يتعزى وأنت تتعذب. ٢٦ وفوق هذا

---

(١) في الترجمة البيروتية: "وكان يلبس"

(٢) في الترجمة البيروتية: "وهو يتنعم"

(٣) في الترجمة البيروتية: "الذي طرح عند بابه مضروبا بالقروح"

(٤) في الترجمة البيروتية: "و يشتهي"

(٥) في الترجمة البيروتية: "من مائدة الغني"

(٦) في الترجمة البيروتية: "في الهاوية وهو في العذاب"

(٧) في الترجمة البيروتية: "يا أبي إبراهيم"

(٨) في الترجمة البيروتية: "البلايا"

كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت فمن أراد العبور من ههنا إليكم لا يقدر ولا الذين هناك(١) يجتازون إلينا".

ويطابق به ما جاء في القرآن من المحاورة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار. والمقصود ههنا أن المسيح عليه السلام لم يعبر عن النعيم الأخروي إلا بحضن إبراهيم. ولكنه ذكر النار وعذابها، فمال إلى الترهيب أكثر من الترغيب. ولذلك صار أتباعه رواهب فقراء مات فيهم جانب الفرح، وكان ذلك أصلح بحالهم لضعف مريرتهم. ولكنه إذ ذكر عذاب الآخرة ترقى درجة واحدة. ثم جاء القرآن بالتمام وكمال البيان. فترقى أولا بأنه لم يذكر إلا ما يقع بعد الموت، فعلمهم أن يصلحوا أعمالهم لالطمع دنياوي بل ليعملوا للآخرة، واقتناء قرب الرب ورضوانه. وثانيا بأنه كما ذكر العذاب وبينه، فكذلك ذكر النعيم وعرفه. وثالثا بأنه جاء بكمال التفصيل لكليهما، فلم يترك شيأ من أنواع اللذة والألم إلا ذكرها. فكشف عن حقيقة غامضة. فإن كل ما أودعت النفس من الإحساسات لابد أن يخرج ويتم. ورابعا بأنه كلما ذكر الجنة ذكر النار وبالعكس، فراعى بغاية المساواة جانبي الرغبة والرهبة.

وذكرنا هذه المزايا لاقتضاء المحل. فلنرجع إلى عمود الكلام وهو أن الله تعالى إنما ضرب لنا أمثالا لحقائق الأعمال ليتم التبليغ. فلو لم يعرفها للناس لم يتأثر لها أوساطهم، لما يكبر عليهم ترك اللذات لغير لذة، فأكثر من ذكرها وذكر العذاب المفهوم لهم. وأما عقلاء الناس فأشارهم بإشارات كثيرة حتى صرح بأن ما هنالك لايدرك كنهه في هذه الحياة. فصرح لأهل الظواهر وأشار لأهل الاستنباط، وهذا هو الأنسب. وعلى هذا الأصل جاء أمور في القرآن، فقال تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى

---

(١) في الترجمة البيروتية: "حتى أن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لايقدرون ولا الذين من هناك"

حِجْرٍ﴾(١). وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى الْأَبْصَارِ﴾(٢). وهذا كثير. فجمع بين أمرين: تصريح وتلويح ـ هذا لأهله وذاك لأهله. وهذا مبسوط في موضعه.

وإنما المقصود ههنا أن القرآن ضرب للدار الآخرة أمثالا يتبين منها نعيمها وبؤسها، فالمؤمنون ينتفعون بها، وأما الكافرون فهي عثرة لهم. فتارة يتحيرون منها، فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا؟ وتارة يكذبونها لخفاء تأويلها، كما اعترضوا على كون الشجرة في النار وعلى عدد الملائكة. قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾(٣). فإن قيل كيف العلم بأن كل ما ذكر من وصف الجنة والنار فهي أمثال وقد جاء كثيرا على غير سبيل التمثيل مع تفصيل أحوالها؟ قلنا إن الجنة والنار عبارة عن النعيم والبؤس، والفوز والخسران، وقد عرفت العرب ذلك. قال عدي بن زيد:

أعاذلُ مَن تُكْتَبْ له النارُ يَلْقَها كِفاحاً ومَن يُكتب له الفوزُ يَسعدِ(٤)

وأما تفصيلهما فاعلم أن العرب مولعون بتفصيل المشبه به فكثر في كلامهم، وهكذا تجد اليونانيين يأتون بتفصيل ما يشبهون به. فعلى هذا الأسلوب لما ضرب الله الجنة والنار مثلين فصل من أحوالهما ما يجعلهما مصورا منشورا، لكي يتم أثر المثل من الترغيب والترهيب. وفي القرآن كثير من الأمثال من غير التصريح بأنها مثل. فسمى التوحيد صراطا مستقيما، والقرآن نورا، والنبي سراجا منيرا، وغير ذلك. ثم قد جاء في الكتاب السابقة مثل السعادة والشقاوة الأخروية شبيها بما جاء في القرآن، غير أن القرآن أكثر له ذكرا، وأوضح بيانا، وأتم تفصيلا. ففي كتاب

---

(١) سورة الفجر: ٥

(٢) سورة آل عمران: ١٣. سورة النور: ٤٤

(٣) سورة يونس: ٣٩

(٤) ديوانه: ١٠٣ وجمهرة أشعار العرب: ٤٩٨

أمثال سليمان عليه السلام(٩: ١- ٥):

"الحكمة بنت بيتها. نحتت أعمدتها السبعة. ٢ذبحت ذبحها مزجت خمرها. ثم رتبت مائدتها.٣ وأرسلت جواريها تنادى على ظهور أعالي المدينة. ٤من هو جاهل فليمل إلى ههنا والناقص الفهم قالت له ٥هلموا كلوا من طعامي وأشربوا من الخمر التي مزجتها".

وقال المسيح عليه السلام (مرقس ٩: ٤٧- ٤٨): "وإن أعثرتك عينك فاقلعها. خيرلك أن تدخل ملكوت الله أعور من أن تكون لك عينان وتطرح في جهنم النار. ٤٨حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ". وهذا كثير في الإنجيل.

ثم هذه الأمثال أصح تعبيراً عما حكى عنه، فنصدق بها كل التصديق كما قلنا فيما سبق.

الرابع ـ أن الله تعالى بين ههنا من وصف القرآن أنه مع كونه هدى لا يهتدي به الفاسق الناقض العهد، القاطع الرحم، المفسد في الأرض. فدل على جماع أسباب الضلالة، ودل على تفاصيل الفسق. فأوله الشرك، والثاني قطع الرحم، والثالث الفساد في الأرض. فالشرك منبع الباقيين. وهذا الوصف للقرآن ولجميع ما أنزل مذكور كثيراً في القرآن وكتب الأنبياء. وإنما نسب الهداية والإضلال إلى نفسه بيانا لسنته الجارية على قاعدة العدل، كما بينا في تفسير الآية السادسة ومواضع أخر، فلا حاجة إلى تفصيله.

الخامس ـ أن ضلالة العبد وإن كانت من الله ـ فإن كل شئ منه تعالى ـ ولكنها منوطة بأعمال العبد. وليس أن الله تعالى قد أضلهم من قبل من غير أن يستحقوها بأعمالهم. وقوله تعالى: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ الآية في غاية الصراحة بهذا الأمر. وقد بسطنا القول فيه في مواضع، فلا حاجة إلى إطالة القول فيه ههنا. فانظر كيف جمعت هذه الجملة من المطالب المهمة.

٣٧ـ نظم هذه الجملة

اعلم أن هذه الجملة بتمامها معترضة وضعت بين الخطابين إلى الناس على سبيل الالتفات إلى المؤمنين بحسب المعنى كما مر. والالتفات حسنة الدلالة على أمر مهم، وقد بينا ذلك؛ وقد جاء إتماما ورعاية لجمع الترغيب بالترهيب، فحسن موقعه من وجوه.

فلما أتم الكلام بذكر جانبي الدعوة والحث من الخوف والطمع عاد إلى الخطاب الأول، وقد أثبت فيه التوحيد والرسالة. ولشدة إنكارهم بالمعاد ذكره عرضا، وأخر ذكره. فلما فرغ من الأمرين أثبت المعاد بطريق يدل على كون الإنكار به كفرا بالله تعالى، وجعل الدليل على المعاد هو الدليل على إثبات الباري تعالى، فقال عزمن قائل حكيم:

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩).

٣٨ـ تفسير الكلم التي في هذه الجملة

﴿أَمْوَاتٍ﴾ جمع مَيْت، مخفف: ميِّت. وأصله: ميوت،مثل سيد.

﴿اسْتَوَى﴾ قام مستقيما. وصلته بـ إلى دلالة على تضمنه معنى توجه.

﴿والسَّمآء﴾ من سما يسمو من السمو، وهو العلو. قال امرؤالقيس:

سَمَوتُ إليها بعد ما نام أهلُها   سُمُوَّ حَبَابِ الماء حالاً على حالِ(١)

ويؤنث، وقد يذكر. قال تعالى: ﴿السَّمآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾(٢) لإرادة النوع على نحو

(١) ديوانه: ٣١

(٢) سورة المزمل: ١٨

أسماء توحد بالتاء، كالتمر والبقر.

﴿سَوَّى﴾ الشي: جعله مستقيما على اعتدال حاله. قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي﴾(١). وأيضا: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾(٢).

تـأليـف الكلـم

قوله تعالى: ﴿كيف تكفرون﴾ استفهام للإنكار والتعجب.

﴿وَكُنتُمْ﴾ وقع حالا. أي ما أبعد كفركم بالله مع أنكم كنتم أمواتا، فأحياكم. وهو أمر ظاهر.

﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ حال. كما في قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾(٣)، فهي حال متعاقبة.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عطف على أول الجملة. أي هو الذي خلق لكم هذه، وهو بكل شئ عليم.

٣٩- نظرة من جهة البلاغة

جاء بأسلوب الاستفهام والتعجب، لكون كفرهم بالله في غاية الاستبعاد. وليس سوق الكلام لإثبات الخالق، فإنهم لم ينكروا به. ولكنه إلزام الكفر عليهم بشركهم وإنكارهم بأمره، وملكه، ورجوعهم إليه. فأثبت التوحيد والمعاد والنبوة على طريق إبطال الكفر.

١- فبدأ الكلام بالإنكار على الكفر بالله مع ظهور أفعاله.

(١) سورة الحجر ٢٩

(٢) سورة الانفطار: ٧

(٣) سورة مريم: ١٧

٢- ثم ضم به ما يستنبط منه من إبطال الشك في المعاد. فإن من أحيا أولا فكيف ينكر إحياؤه ثانيا، ومن هو المبدأ لايسوغ الإنكار بكونه مرجعا. فلم يذكر هذا الرد عليهم مستقلا لكيلا ينفروا.

٣- ثم أكد ذلك بما ذكر متصلا به من نعمته عليهم، وضمنه ذكر صفة خلقه وقدرته.

٤- ثم أكد ذلك بما يثبت منه، وهو وصف العلم المطلق؛ فإن الخالق لا بد أن يكون عالما وهذا من البداهة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾(١). فأدرج في ذلك دليلا على المعاد. فإن الذي خلقكم وأنعم عليكم وأحاطت بكم قدرته ويعلم ما تفعلون، فكيف يترككم سدى ولا يجازيكم؟ فلا بد أنكم ترجعون إليه، فوجب أن تشكروه ولا تكفروا به. فانظر كيف أتى عليهم من ألطف طرق الحجة.

واعلم أن موقع هذه الجملة التي ابتدأت باستفهام التعجب موقع الاستمالة وتليين الكلام لا موقع الزجر، فإن مساق البيان ذكر النعم. وعلى ما قلنا يشهد ما حكى الله تعالى عن دعوة نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا. مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا. أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا. وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا. لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾(٢). فهل ترى هذا القول كيف عد النعم، ودعاهم إلى المغفرة، واستفهم فيه مرتين وعليه طلاوة الاستمالة، وقد بدأ الخطاب بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ. يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٣). وهذا

(١) سورة الملك: ١٤

(٢) سورة نوح: ١٠- ٢٠

(٣) سورة نوح: ٢- ٤

كلام لين الجوانب، رقيق الحواشي؛ فكذلك ههنا خاطبهم بلين الخطاب.

٤٠ـ تـأويل الجمـل

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ جامع لمعنيين: أي كيف تنكرون بالله، وكيف تجحدون بنعمته. ولكونه جامعا أتبعه ما يوافقه من كلتا الجهتين. فذكر أولا ما يدل على إثبات الخالق، وثانيا مايبين نعمته العظمى. والجهود بالنعمة يتضمن الشرك، والعصيان لما أنزل من الحكم ـ أي التوحيد والرسالة.

قوله تعالى: ﴿وكنتم أمواتا﴾ جامع لمعنيين: أي لم يكن لكم حياة ولا وجود، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾(١)، وأيضا كنتم قد سلبتم الحياة أولا فصرتم أمواتا فأحياكم في هذه الدنيا بعد الميتة الأولى، كما قال تعالى حكاية عن اعتراف الكفار: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾(٢). ولا شك أن الإنسان كان حيا قبل هذه الحياة، وقد جاء في القرآن ذكر إخراج ذرية آدم وإشهادهم على ربوبية الله تعالى. فكلمة ﴿أمواتا﴾ جامعة صادقة في المعنيين، وللمخاطب أن يأخذها حسبما علم. وإلى كلا التأويلين ذهب بعض السلف.

قوله تعالى: ﴿استوى إلى السماء فسواهن﴾ أي بعد ما خلق الأرض قام متوجها إلى تسوية السماء. ولما كانت السماء فوق الأرض صور توجه الرب إلى تسويتها بهذه العبارة. وهذا أسلوب من البيان لتصوير الأمور. وليس المراد منه أن الله تعالى نزل وقعد، ثم قام وصعد، وهذا كثير. قال تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾(٣). أيضا: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾(٤). وإنما المعنى: أن أتى

(١) سور مريم: ٩
(٢) سورة غافر: ١١
(٣) سورة النحل: ٢٦
(٤) سورة الحشر: ٢

أمر الله، ولكن صور الفعل بتصوير الفاعل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾(١). فنبه على ما أراد ببسط اليد.

٤١ـ بيـان طـريق الاستـدلال

اعلم أن هذه الجملة جامعة للدليل على إثبات الخالق(أولاً)، والمعاد(ثانياً)، وإبطال الشرك(ثالثاً)، وإيجاب الطاعة(رابعاً). فهذه أربعة مطالب.

أما الأول ـ فبما يعلم الإنسان من حالة نفسه وما يعلم مما حوله وتحته وفوقه، فإلى أي وجه يتوجه يرى آثاراً لابد لها من مؤثر في غاية القدرة والحكمة. ومن البديهي أن لكل أثر حادث مؤثراً يليق به. فأول دليل وأقربه إليه هو نفسه، فإنه يعلم أنه حي عاقل سميع بصير، وأنه لم يكن كذلك من قبل بل يشاهد أن هذه الصفات حصلت له بالتدريج، ويعلم أن الميت لا يعطى الحياة نفسه، فمن أين جاءته هذه الصفات. فهذا أول دليل على معط حي قادر. ثم يرى الإنسان ماحوله من الآثار، وما تحته من الأرض وما فوقه من السماء مع عجائب ما فيهما وما بينهما، ويرى كلها مسخرة مجرية على قدر معلوم لا شاهد على كونها مريداً بل هذا الإنسان ـ الحي بعد موته، الميت بعد حياته ـ

تـذكـرة

نذكر في هذا الفصل الشواهد على ما استنبطناه من الدلائل. فمنها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. (سورة لقمان: ١-١١)

* * * * * * * *

(١) سورة المائدة: ٦٤

هو المريد المتصرف فيما حوله والأفضل على الجميع. فلا يمكنه أن ينسب حياته وفضيلته إلى أحد من هذه المخلوقات المذللة المسخرة له. فهذا دليل ثانٍ على أن لها خالقا مدبرا، فكيف ينكر به مع غاية ظهور أفعاله.

أما الثاني ـ وهو إثبات المعاد، فقد ذكرناه تحت عنوان البلاغة. والآن نذكر له الشواهد من القرآن ...(1)

وأما الثالث ـ وهو إبطال الشرك، فبقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ الآية. وبيانه أن الله الذي أعطاكم الحياة ويسلبها هو الذي خلق كل شئ. فإن الذي خلقكم خلق لنفعكم كل ماترون، فلو كان خالق هذه الأشياء غير خالقكم لم تكن هذه الموافقة والمطابقة بين الخلائق. فإن كل شئ مربوط بحبل واحد في غاية التوافق حتى كأنه شئ واحد، وخلق متسق. فالظن بتعدد الخالق لابرهان عليه، بل البرهان على خلافه، كما بين الله ذلك حيث قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(2). فالدليل على الخالق الواحد ظاهر لاشبهه فيه، وفرض إله آخر سواه ظاهر الفساد، لتلاؤم الخلق وجريانها على غاية الحكمة. ولما ذكر نعمته، أبطل الشرك من جهة كونه كفرانا بالنعمة، كما مر.

وأما الرابع ـ وهو تقبيح الفسق، فبما يستنبط من دليل المعاد ـ

1ـ فإنه إذا علم كل ما تفعلونه، فلابد من طاعتكم لحكمه.

2ـ وأيضا عظم نعمته عليكم يوجب عليكم شكره، فلابد أن تطيعوه لأداء ماوجب عليكم

3ـ ولنفعكم. فإنه حكيم ويحكم بالحق والخير، فمن أطاع فلنفسه. وصرح به القرآن كثيرا.

---

(1) بياض في الأصل.

(2) سورة الأنبياء: 22

٤٢ـ نظم هذه الجملة

قد مر أن هذه الجملة عود إلى الخطاب السابق بعد إيراد الجملة المعترضة. فكأنه قيل: يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم ولا تشركوابه، وكيف تكفرون به وهو الذي أحياكم وأنعم عليكم وإليه رجوعكم. وقد ذكرنا أن هذه الجملة تضمنت أربعة مطالب، وآخرها إيجاب الطاعة عليهم. فهي كالنتيجة بعد الاعتقاد بالله وإنعامه والرجوع إليه، وكالتمهيد لإثبات النبوة. فإن من تبين له وجوب الطاعة لربه لابد أن يلتمس أحكامه وشرائعه. ثم الإنسان مدني بالطبع ويترقى بالتعليم والتعاون، وذلك لا بد له من حاكم يجمعهم على قاعدة العدل، فيعيشوا بالسلم ويعين بعضهم بعضا.

فذكر الله تعالى بعد ذلك ما يهدي إلى حكمة الحكومة ولزومها، ويبين شناعة العصيان الذي هو من باب الكفر وجحود النعمة. وأورد قصة آدم ههنا من طريق قريب، لما ذكر قبلها من خلقة الأرض والسماء، فالتأمت واتسقت بما سبقها من وجوه شتى. فقال عز من قائل حكيم:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوْا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ(٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَآءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُوْا سُبْحَانَكَ لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَآدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ، فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِم قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُوْنَ(٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوْا لِآدَمَ فَسَجَدُوْا إِلَّا إِبْلِيسَ، أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

الْكَافِرِينَ(٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ(٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٣٩)

في سورة الحجر

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ. وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾. (٢٦- ٣٣)

في سورة الأعراف

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. (١١- ١٣)

في سورة طه

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى. فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى... (١١٥- ١٢٤)

في سورة الكهف

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. (٥٠)

في سورة ص

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. (٧١- ٧٦)

٤٣ـ تفسير الكلم

﴿ إِذْ ﴾ كثيرا ما تفتح القصص في القرآن بكلمة "إذ"، كما سيأتيك لها أمثلة في هذه السورة. وهي كلمة ظرف، ولا بد لها مما تتعلق به. وإذ هو مفهوم يكثر حذفه. فكأنه قيل: واذكر الحديث الذي وقع إذ قال ربك ـ الآية، كما ترى في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾(١). ثم بعده: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ

(١) سورة مريم: ١٦

مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾(١). وأيضا: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾(٢). وأيضا: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾(٣). وهذا كثير.

وإذ يكون المراد إيراد ما وقع من الأمر في ذلك الظرف، فتكرار "إذ" مع الواو لا يدل على تعدد الظرف، وإنما يدل على الأمر الذي وقع في ذلك الظرف.

﴿الملائكة﴾ جمع مَلَك. أصله: ملأك، ومعناه: الرسول. وخص بالروحانيين من رسل الله تعالى. وجمع المَلَك: ملائك وملائكة، مثل: أشاعث وأشاعثة. وإنما سموا ملائكة لكونهم رسلا من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ الآية(٤). أيضا: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾(٥). وهكذا سموا في الفارسية "فرشته"، وفي اليونانية: "انجلوس" أي الرسول ... قال رجل من عبد القيس جاهلي يمدح بعض الملوك:

فَلَسْتَ لإنسيٍّ وَلَكِن لِمَلأَكٍ ... تنزل من جوّ السَّماء يَصوبُ(٦)

وقال عدى بن زيد:

أبلغ النعمان عني ملأكـا ... إنه قد طال حبسي وانتظاري(٧)

(١) سورة مريم: ٤١- ٤٢

(٢) سورة المائدة: ٢٧

(٣) سورة طـه: ٩- ١٠

(٤) سورة فاطر: ١

(٥) سورة الأنعام: ٦١

(٦) مجاز القرآن١: ٣٣ و ٣٥ وانظر الصحاح واللسان (ملك، صوب)

(٧) ديوانه: ٩٣

والألوك: الرسالة. أصلها: الوك على افعول. قال لبيد بن ربيعة:

وغـلامٍ أرسلتـه أمـه ... بألوك فبذلنا ما سأل(١)

وألأك: بلغ الرسالة. قال النابغة الذبياني:

أَلِكني ياعُيَينُ إليك قولا ... سأهديه إليك، إليك عَنّي(٢)

﴿خليفة﴾ فعيلة، من خلف فلان فلانا: أي قام بعده بأمره، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾(٣). وهذا القائم هو الخليفة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(٤). وأيضا في ذكر نوح عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾(٥).

قال الحماسي(٦):

بئس الخـلائف بعـدنـا ... أولاد يشكر واللقـاح(٧)

فهذا هو المعنى. واختلفوا في تأويله، كما سيأتيك.

(١) ديوانه: ١٢٣

(٢) ديوانه: ١٢٦

(٣) سورة الأعراف: ١٤٢

(٤) سورة يونس: ١٣- ١٤

(٥) سورة يونس: ٧٣

(٦) هو سعد بن مالك جد طرفة بن العبد، كما ذكر التبريزي.

(٧) شرح الحماسة للمرزوقي: ٥٠٥

﴿نُسَبِّحُ﴾ نصلى ونعبد. والأصل: التمدد على الوجه. ومنه السَّباحة للعَوم، ومنه سَبَح الفرس في جريه، ومنه السعي والتقلب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾(١). وإنما سميت الصلاة سُبحة وتسبيحا لما يمتد المصلى على وجهه في السجدة. ومنه قوله تعالى حكاية عن قول الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾(٢). أي قائمون وساجدون.

﴿نُقَدِّسُ﴾ من القدس، وهو الطهور. وقدسه: جعله طاهرا. وأيضا ذكر واعترف بكونه ذا تقدس. فالتقديس مثل التحميد.

﴿آدم﴾ أصله: أأدم، وهو أفعَلُ من الأُدْمَة وهى السُّمرة في الإنسان، والبياض الشديد في الإبل. يقال: بعير آدم وناقة أدماء. وإنما سمى أبوالبشر آدم عليه السلام للونه، كما سميت الحواء عليها السلام من الحُوَّة: وهي لون أميل إلى السواد. وهذان الاسمان يوجدان في العبرانية بتغيير يسير. والعربية أحفظ وأقرب إلى الأصل إن لم تكن هي الأصل.

﴿سبحانك﴾

١ـ ما أعظَمَكَ، كما جاء في القرآن كثيرا، مثلا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٣) . ﴿سُبْحَانَ اللهِ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٤). فهذا قريب من الإخبار.

٢ـ وربما يجيئ للدعاء، كما قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾(٥).

---

(١) سورة المزمل: ٧

(٢) سورة الصافات: ١٦٥- ١٦٦

(٣) سورة الصافات: ١٨٠

(٤) سورة القصص: ٦٨

(٥) سوة يونس: ١٠

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾(١). وبهذا المعنى يقدم قبل التوبة.

٣ـ وأيضا لإنشاء الأمر، كما هو الشائع في المصادر إذ يقدر الأمر قبله، كما قال(٢):

فصبرًا في مجال الموت صبرًا ... فما نيلُ الخلود بمُستطاعِ(٣)

وكما في القرآن: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(٤)، فربما يجئ سبحانك بهذا المعنى. ومنه قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾(٥).

٤ـ وأيضا يأتي للإنكار مع الاستعجاب. ومنه قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾(٦) . أيضا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ـ سُبْحَانَهُ ـ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾(٧). واختص بالإضافة إلى الله تعالى. وإضافته مطرد إلا نادرا. كما قال أمية بن أبي الصلت:

سبحانه ثم سبحانا يعود له ... وقبلنا سبح الجودي والجمد(٨)

وهو أراد الإضافة: وهكذا الأعشى حذف المضاف إليه ولكنه أراد حيث قال:

.... سُبْحَانَ مِن عَلْقَمَةَ الفَاخِرِ(٩)

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٣

(٢) القائل هو قَطَرِيّ بن الفُجَاءَةِ المازني من رؤساء الخوارج، قتل سنة ٧٧هـ.

(٣) شرح الحماسة للتبريزى١: ٥٠

(٤) سورة البقرة: ٢٨٥

(٥) سورة الروم: ١٧

(٦) سورة النور: ١٦

(٧) سورة النحل: ٥٧

(٨) شعراء النصرانية: ٢٣٥

(٩) صدره:

أقولُ لَمَّا جَاءَنِى فَخْرُهُ

البيت من قصيدة له يهجوبها علقمة بن علاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التى جرت بينهما. انظر ديوانه: ١٧٩

﴿أنبأ﴾ أخبر. والنبأ: الخبر، وما يخبر عنه، كما قال: ﴿عم يتسآءلون. عن النبإ العظيم﴾(١).

﴿إِبْلِيس﴾ إفعيل، من أَبْلَسَ: انكسر، وحزن، ويئس. قال الراجز(٢):

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسًا   قَالَ: نَعَمْ، أَعْرِفُهُ! وَأَبْلَسَا(٣)

وفي القرآن: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾(٤).

﴿رَغَدًا﴾ عيشةٌ رغدٌ: واسعة طيبة. أرغد القوم: أخصبوا. قال امرؤ القيس:

بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَراه نَاعِمًا   يَأْمَنُ الأَحْدَاثَ في عيشٍ رَغَدْ(٥)

﴿مَتَاع﴾ هو النفع والانتفاع. ومنه: لكل ما ينتفع به. ومنه: للسلعة. وعلى كل هذه الوجوه جاء في القرآن، مثلا قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(٦). وأيضا: ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٧). وأيضا: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾(٨). وأيضا: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾(٩) وأيضا: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾(١٠). وأيضا: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ﴾(١١).

---

(١) سورة النبإ: ١- ٢

(٢) وهو العجّاج

(٣) انظر اللسان (بلس)، (كرس)

(٤) سورة الأنعام: ٤٤

(٥) الطبري١: ٥١٥

(٦) سورة هود: ٣

(٧) سورة القصص: ٦١

(٨) سورة البقرة: ٣٦. سورة الأعراف: ٢٤

(٩) سورة يوسف: ١٧

(١٠) سورة الأحزاب: ٥٣

(١١) سورة يوسف: ٦٥

﴿تاب﴾ رجع. وصلته بـ"على" لتضمنه معنى رحم.

﴿بآياتِنا﴾ قال الجوهري: "الآية: العلامة. والأصل أَوَيَةٌ بالتحريك".

وروى الجوهري عن أبي عمرو قوله:

"خرج القوم بآياتهم: أي بجماعتهم لم يدعوا وراءهم شيئا. ومعنى الآية من كتاب الله تعالى: جماعة حروف". وأنشد لبُرْج بن مُسْهِر الطائي:

خرجنا من النقبين لاحي مثلنا   بآياتنا نزجي اللقاح المطافلا"(١)

أقول لادلالة في البيت على مازعم، لعله أراد: بأعلامنا وشعارنا.

وقال الجوهري: "آية الرجل شخصه. تقول منه تآييته على تَفَاعَلْتُهُ، وتَأَيَّيْتُهُ على تَفَعَّلْتُهُ، إذا قصدت آيَتَهُ وتَعَمَّدْتَهُ. قالت امرءة لابنتها:

الحُصْنُ أَدْنَى لَو تَأَيَّيْتِهِ   من حَثْيِكِ التُّرْبَ على الراكبِ"(٢)

أقول لا دلالة في البيت على مازعم، لعلها أرادت: أخذته موضع التوقف. فإن التأيي بمعنى التوقف معلوم. يقال هذا ليس بمنزل تئيّة: أي تلبث.

التأليف

قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك﴾ متعلق بفعل مقدر، والعطف هنا على معنى مفهوم مما سبق من ذكر نعم الله. أي اسألهم كيف تكفرون بالله؟ واتل عليهم قصة آدم التي وقعت إذ قال ربك للملائكة. وجملة ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ حال.

قوله تعالى: ﴿الأسماء كلها﴾ الالف واللام للدلالة على العهد، أي أسماء الذين قال فيهم الملائكة أنهم يفسدون، كما سنبينه. وأوضح ذلك بما بعده من قوله تعالى: ﴿عرضهم﴾ و﴿بأسماء هؤلاء﴾.

---

(١) الصحاح (أيا)

(٢) المصدر السابق

قوله تعالى: ﴿سبحانك﴾ إنشاء لإظهار التعظيم لله، والإنكار عما تورطوا فيه من إظهار علمهم واستحقاقهم.

قوله تعالى: ﴿رغدا﴾ أي أكلا رغداً.

قوله تعالى: ﴿حيث شئتما﴾ ظرف لفعل "كلا"، كما جاء في سورة الأعراف: ﴿وَيَٰٓادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(١)

قوله تعالى: ﴿فتكونا﴾ جواب للنهي المقدم.

قوله تعالى: ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ حال متعاقبة.

٤٤- نظرة من جهة البلاغة

لا يخفى أن في قول الملائكة رعاية الأدب من قبل أنهم لم يقولوا لاتجعل آدم وذريته خلائف في الأرض بل دبر الأمور بالملائكة. ثم لم يذكروا لأنفسهم إلا ما فيه ذكر كمال تذللهم، وطاعتهم، وحمد الرب، وتقديسه. وفيما ذكرمن وصف ذرية آدم ووصف الملائكة مقابلة، فإن الإفساد في الأرض هو التعدي لحدود الله، وسفك الدماء تدنيس الأرض. والتسبيح في الأصل هوالسجود وإظهار التخشع، والتقديس إظهار التنزيه.

قوله تعالى:﴿إنى أعلم مالا تعلمون﴾ مجمل. ثم بعد ما بين عدم إطلاع الملائكة على مزية بني آدم أعاد ذلك المعنى مفصلا.

قوله تعالى:﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا﴾ الآية فيه ذكر مزية أفضل مما قبل. فالكلام في ذكر النعمة بلغ النهاية.

جاء قوله تعالى: ﴿قلنااهبطوا﴾ مرتين. فالأولى كان بعد الزلة، فذكر

(١) الآية: ١٩

عاقبتها؛ والثاني بعد التوبة، فجاء تسلية وبيانا لحكمة هذا الابتلاء. فإن الله تعالى يفرق به بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون يرجعون إلى الجنة والكافرون هم الذين يخسرون. وجاء هذان الخطابان على هذا الترتيب في سورة الأعراف، ولكن قدم فيها ذكر التوبة لحكمة خاصة نبيّنها هناك، ولكل موضع ترتيب يقتضيه. ونذكر ما يليق بهذا المقام في فصل التأويل.

قوله تعالى: ﴿فإما يأتينكم منى هدى﴾ الآية وعد بالرسالة. فانظر كيف رجع الكلام إلى إثبات النبوة الذي هو عمود هذا البيان، وكيف وصله بقصة الخلافة والوعد الأول، فألزم الطاعة لها على جميع بني آدم.

وهذه الآيات كلها لما كانت مشتملة على قصة لم تعرفها العرب وكان الخطاب السابق إلى المشركين خاصة، خاطب بها النبي وحده ولم يلقها عليهم كما ألقى ما قبلها. ولكن وصلها بما قبلها بمناسبة أمر جامع وهو ذكر نعم الله على جميع بني آدم. فتدرج مما علموه إلى ما لم يعلموه، وأتم الحجة وأكمل البيان.

٤٥- تأويل أجزاء الكلام

١- قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك﴾ معناه: واتل عليهم يا محمد قصة آدم التي وقعت، وكذلك معنى قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾. والخطاب عام إلى الناس ــ اليهود والمشركين.

٢- وروني في تأويل الخليفة قولان:

الأول - أنه الخليفة من الرب تعالى بمعنى النائب الحاكم(١). ويؤيده أن الله تعالى شأنه خلق ما في الأرض جميعا لبني آدم، ثم أمر الملائكة بالسجود لآدم تعظيما

(١) وهو قول الحسن البصرى، وابن سابط، وابن زيد، وقتادة. انظر الطبرى١: ٤٥١ و ٤٦٣ و ٤٦٤.رقم ٦٠٣ و ٦٠٤ و ٦٠٨ ، ٦٠٩ و ٦١١

له، وصار الإنسان حاملا لأمانة الرب تعالى التي لم تحملها السماوات والأرض. ونرى أن الله تعالى جعل الإنسان حاكما على الأرض، فلا استبعاد في أنه تعالى جعله خليفته.

والقول الثاني ـ أنه الخليفة ممن قبله. وقالوا إن الأرض كانت تعمرها الجن قبل آدم، فعصوا الله فسلبهم الله الحكومة وجعل بني آدم خلفاء في الأرض(١). ويؤيده ما جاء في القرآن من جعل الله الأقوام خلفاء بعد من أهلكهم، كما مر. وأن الله تعالى لم يزل ولا يزال حاكما قاضيا، فهل غاب وذهب حتى يكون أحد خليفة له؟ إنما هو خليفة لمن قبله.

ولكن القرآن لم يخبرنا عن ساكني الأرض وعامريها قبل آدم، ولا التوراة، ولا حديث يوثق به، غير إشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾(٢). فلا يبعد أن كان التدبير في أيدي الجن. وقد علمنا أن تكون الأرض بهذه البرودة حدث بعد كونها نارا، فيذهب الظن إلى تعاقب خلق النفوس المدبرة حسب ترتيب الأصول. وهذا يسوق الظن إلى أن التدبير نزل من الألطف مادة إلى ما كان دونها حسب ظهور كل مادة على ترتيبها. فحين ما خلق الله النار دبرها بالجن، ولما خلق الأرض دبرها بالإنسان.

ولكن هذه الظنون أولى بالفلسفة وتوهماتها، فلنتركها و لنرجع إلى العمود. فنقول لاشك أن في كلمة الخليفة معنى القيام بالأمور بعد من كان قبله يقوم بالأمر، كما مر ذكره. ولكن الكلمة ربما تجرد عن بعض معانيه، فإن لم نقل أن الإنسان صار خلفا لله تعالى، فهلا يمكن أن نقول إنه صار ملكا على الأرض من

---

(١) وهو قول ابن عباس والربيع بن أنس. انظر الطبرى١: ٤٥٠ و ٤٥١. رقم ٦٠١ و ٦٠٢.

و(ا)بن كثير١: ٦٨

(٢) سورة الحجر: ٢٦- ٢٧

عند الله تعالى متصرفا على الأرض كالحكام الصغار تحت ملك عظيم، يرضى عنهم إن أحسنوا ويسخط عليهم إن أساءوا. والقرآن لم يسم آدم ولا الإنسان ولا الأنبياء خليفة الله، فلا ينبغي لنا أن نسمى أحدا خليفة الله. وبذلك نأخذ مسلكا وسطا.

٣ـ قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء﴾. روي عن ابن عباس رضى الله عنه أن المراد أسماء كل شيء، وعن الربيع أسماء الملائكة، وعن ابن زيد: أسماء ذريته(١). وظاهر الكلام خلاف الأول، لقوله تعالى: ﴿عرضهم﴾ و﴿هؤلاء﴾، ولا دلالة في الكلام على الرأي الثاني. وأما قول ابن زيد فهو الأقرب، لأن الملائكة أخبروا عن بني آدم أنهم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وهذا عامة أحوال الناس. ولا شك أن الملائكة لم يقولوا إلا ما علموه، وإن لم نعلم كيف اطلعوا عليه. ولاشك أنهم لم يعلموا إلا قليلاً حسبما اطلعهم الله، كما أقروا بذلك. ثم لما بدا عدم اطلاعهم على أسماء هؤلاء أنبأهم آدم عليه السلام بما لم يطلعوا عليه. وموقع الكلام إتمام الحجة على الملائكة ـ والحجة تصير بالغة إذا أنبأهم بمن في ذريته من خيار عباد الله. فنجد في الكلام دلالة من وجوه شتى على أن المراد بالأسماء هي أسماء ذرية آدم، وقد أخبر القرآن أن الله أخرجهم وأشهدهم على الربوبية.

٤ـ قوله تعالى: ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي فيما أشرتم إليه وأخبرتم به من أن بني آدم إنما يفسدون في الأرض فكيف يستحقون الخلافة. والمراد منه ما بينه الله بعد ذلك من أن علمكم لم تحط بما فيهم من الخيرات ـ وفي عدم علمهم بأسمائهم دلالة على عدم علمهم بجميع صفاتهم ـ فإن لم تستطيعوا أن تنبئوا بأسمائهم فلستم بصادقين فيمازعمتم من وصف بني آدم بأنهم يفسدون ولا يصلحون.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما

---

(١) انظر تفسير الطبري١: ٤٨٢- ٤٨٥. رقم ٦٤٦، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٩، ٦٦٠

تبدون وما كنتم تكتمون﴾ إشارة إلى ما قال تعالى: ﴿إني أعلم ما لاتعلمون﴾. فهذا قول جامع محيط، أي أعلم ما تعلمون وما لا تعلمون. والمراد من غيب السماوات والأرض: كل ما هو مصون لم يطلعوا عليه. والمراد من ﴿ما تبدون﴾: ماصرحوا به من وصف الإنسان و أنفسهم، ومن ﴿ما كنتم تكتمون﴾: ما أشاروا إليه من عدم استحقاق الإنسان الخلافة، واستحقاق الملائكة إياها. وإنما أطلق الكلام ليخفف وقع الرد عليهم.

٦ـ قوله تعالى:﴿ أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ كلام محكم. وجاء تفصيله في موضع آخر، حيث قال تعالى:﴿ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾(١). وأيضا: ﴿فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(٢). فتبين أن استكباره كان من ظنه بأنه خير من آدم. وأما كفره فمن وجوه:

الأول: إنه جحد بنعمة الرب و لم يشكره، حيث لم يعترف بأن الذي خلقه من نار- وهي أفضل في زعمه من طين ـ فهو الذي أمره بالسجدة، فكيف يخالف من أنعم عليه.

والثاني: إنه عصى ربه، كما قال تعالى: ﴿ففسق عن أمر ربه﴾(٣).

والثالث: إنه خاصم ربه.

وقوله تعالى:﴿أبى واستكبر﴾ دل على هذه الوجوه.

٧ـ قوله تعالى: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ يدل على أن الشجرة المنهي

(١) سورة ص: ٧٤- ٧٦

(٢) سورة الكهف: ٥٠

(٣) سورة الكهف: ٥٠

عنها قد عرفها الله لهما، فأشار إليها. واختلف الناس في تعيينها، فروى عن ابن عباس هي السنبلة، وأيضا هي البر، وأيضا هي الكرمة(١). وعن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هي التين(٢). وفي التوراة:

"وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت"(٣)

وما أحسن ما قال ابن جرير رحمه الله بعد سرد الروايات: "ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعين، لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك في القرآن، ولا في السنة الصحيحة. فأنّى يأتي ذلك؟"(٤)

والظاهر أنه لاحاجة بنا إلى معرفة ذلك، ولا معول على ما رووا فيه.

وجاء في القرآن حكاية عن قول إبليس لآدم عليه السلام: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾(٥). فهذا دليل على أنها شجرة الحياة، ولكن إبليس غرهم، كما قال تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾(٦). ولا دليل في ذلك على أن الشجرة كانت شجرة المعرفة، فإن الأقرب أن ظهور السوآت كان لزلتهما. ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٧).

(١) انظر الطبري١: ٥١٧- ٥١٩.رقم ٧١٨، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٣٠، ٧٣١

(٢) المرجع السابق١: ٥٢٠.رقم ٧٤٠

(٣) التكوين٢: ١٧

(٤) الطبري١: ٥٢١

(٥) سورة طه: ١٢٠

(٦) سورة الأعراف: ٢٢

(٧) الآية: ٣٥

٨ ـ قوله تعالى: ﴿اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾. روى عن ابن عباس رضي الله عنه وغيره أن المراد به آدم، وحواء، وإبليس، والحية(١). وعن ابن زيد قال: "لهما ولذريتهما"(٢) وهذا هو الصحيح، فإن خطاب "اهبطوا" كان لآدم وزوجته، كما جاء في سورة طه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾(٣). وأيضا حين أعاد هذا الخطاب قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٤). والظاهر أن هذا الخطاب لايليق بإبليس، وإنما جاء بصيغة الجميع للنظر إلى جميع بني آدم. فإن الله تعالى أخرج ذرية آدم حين أشهدهم، فهم كانوا مع آدم، فخاطب آدم وحواء خطابا يشمل ذريتهما،وقد سبق ذكرهم قبيل ذلك في قوله تعالى: ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ الآية، كما بيناه.

٩ـ قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ يدل على أن الله تعالى أوحى إلى آدم عليه السلام كلام التوبة، وهذا هو سنة الله. فإن الإنسان إذا زل مرة يلقي الندامة إليه، فإما يتلقاها فيتوب إلى الله، وإما يتصلب فيصر على الذنب. فالتوبة أولا تأتي من الرب تعالى، فإنه الرحمن. وأوضح هذا الأمر بما أتبعه من قوله تعالى: ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾.

وأما هذه الكلمات فقد بينه الله تعالى في موضع آخر، حيث قال تعالى حكاية عن توبتهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْلَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٥).

---

(١) الطبري١: ٥٣٥- ٥٣٦.رقم ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٦٠، ٧٦١

(٢) نفس المصدر١: ٥٣٦.رقم ٧٦٢

(٣) الآية: ١٢٣

(٤) سورة البقرة: ٣٨

(٥) سورة الأعراف: ٢٣

والفاء في قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم﴾ الآية تدل على أن التوبة وقعت بعد ما سبق من القصة، والواو في قوله تعالى: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ توصل هذا القول بما سبقه. فالظاهر أن الأمر بالهبوط صدر قبل التوبة. ولما كبرعلى آدم هذا الأمر وفزع إلى التوبة أعاد الأمر بالهبوط مع وعد الجنة، ليسليه به.

١٠ـ قوله تعالى: ﴿فإما يأتينكم منى هدى﴾ الآية. المراد بالهدى ما جاء به الأنبياء من هدى الله. فهذا الكلام مشتمل على وعد بإرسال الرسل ـ كما ذكرنا في تفسير أوائل هذه السورة، وأيضا يؤيده ما جاء بعد هذه الآية، كما سنذكره ـ ووعد بالجنة، فإن قوله تعالى: ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ جاء كثيرا في وصف أهل الجنة. وأيضا تؤيده الآية التالية، كما سنذكره. وهذه من جوامع الكلم، فإن الخوف يتعلق بالمستقبل، والحزن بما وقع. فلما نفاهما تمت السعادة.

١١ـ قوله تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا﴾ الآية. هذا في مقابلة: ﴿فمن تبع هداى﴾ الآية أي الذين كفروا. وبين هذا الكفر بالعطف أي الذين كذبوا بآياتنا وهي الهدى الذي وعد به في الآية السابقة. وقوله تعالى:﴿أولـئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ جاء في مقابلة: ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. فدل التقابل على أن الفريق الأول في الجنة خالدون، والفريق الثاني في خوف وحزن. وهذا النوع من الدلالة أمثلة في القرآن وكلام العرب.

٤٦ـ ذكر بعض مواقف التدبر

في هذه الجملة مواقف للتدبر، فنذكر بعضها:

الموقف الأول في موقع نفس المكالمة بين الرب تعالى وعباده. فاعلم أن في إظهار الرب إرادته على الملائكة تنويهاً لشأنهم، وابتلاء لطاعتهم، وإظهاراً لتوبتهم. وهكذا في أمرهم بالسجود ابتلاء لطاعتهم، وتفريق بينهم وبين إبليس الذي كان من الجن. وهذه المكالمة بين الرب تعالى والملائكة ـ

١ـ تبين أن الملك إذا أنعم على مقربيه بإظهار إرادته عليهم فقد أجاز لهم أن يكلموه بما في قلوبهم.

٢ـ وأيضا تبين أن الرب تعالى مع استغنائه عن مشاورة عباده ينعم عليهم بإظهار إرادته عليهم، فكيف يعذر ملك على استبداده بالأمور. ومن هذه الباب ما أمر الله نبيه بأن يشاور أصحابه.

٣ـ وإثبات الرب تعالى عليهم مزية آدم عليه السلام يبين أن الرب تعالى يحب أن يبين لعباده أن حكمه يجري على الحكمة والعلم. فلم يقل إني أفعل ما أريد وليس لكم إلا الطاعة المحض، ولو قال ذلك كان أحق به، فإن له الملك والربوبية. ولكنه تعالى من غاية فضله وكرمه قال أولا: ﴿إني أعلم ما لاتعلمون﴾، ثم أظهر لهم طرفا من مزية آدم، ثم لم يجعل تلك المزية إلا من جهة العلم.

٤ـ وفي ذلك أيضا بين أن مزيتهم إنما كان من عطاء الرب. فعلم آدم ما لم يعلموه، وبذلك اتضح لهم أن كل ذلك بيد الرب وأنه يفعل ما يشاء بالحكمة، فاعترفوا بذلك.

الموقف الثاني في السجود لغير الله. فاعلم أن هذا السجود لم يكن فيه إشراك بالله، فإنه كان بأمره تعالى. ففي الحقيقة إنهم سجدوا الله، ولم يبق فيه حظ لآدم إلا الاعتراف بفضله عليهم. وإنما صار السجود شركا بعد أن نهى الله عنه في شريعتنا لإكمال التوحيد، كما حرم الخمر لإكمال الطهارة. وبما حرم علينا السجود لغيره تعالى ـ وقد كان جائزا في الشرائع السابقة ـ جعل لنا من الكرامة والحرية، والخصوصية للرب ما لم تكن لمن قبلنا. فإن قيل إن الشرك من باب الاعتقاد، فمن سجد لغير الله لمحض التعظيم موقنا بأنه ليس بإله لم يكن مشركا. قلنا لا نسلم أن الشرك محض الاعتقاد، بل كل تعظيم خصه الله لنفسه لو وجهناه إلى غيره كان إشراكا لذلك الغير فيما جعله الله لنفسه. وهذا كمن أهلّ لغير الله

بذبيحة، أو كمن صلى أو صام لغير الله معتقدا بأن ذلك الغير ليس مثل الله.

الموقف الثالث في زمان الأمر بالسجود. فاعلم أنه لا دلالة في الكلام على كون الأمر بالسجود بعد الإنباء بالأسماء. فإن قصة السجود مصدرة بكلمة "إذ"، فهي قصة مستقلة، ومحض ذكرها بعد قصة الإنباء لا يدل على كونها بعدها. فلا يقال إن الله تعالى بعد ما أظهر مزية آدم عليهم بالعلم أمرهم بالسجود له. وأيضا لا دلالة فيه على أن الله تعالى أمرهم بالسجود بعد ما خلق آدم. بل الظاهر من آيات أخر أنه تعالى أمرهم به قبل خلقة آدم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾(١). وأيضا: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ، اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(٢). فالظاهر أنه تعالى أمرهم بالسجود قبل خلقة آدم. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾(٣). فموقعه تعديد النعم، فلا دلالة فيه على التعقيب. ولا بد، فإن الخطاب في "خلقناكم" و "صورناكم" إلى بني آدم وكان الأمر بالسجدة قبل ذلك. واستعمال "ثم" لغير التعقيب الزماني شائع، كما قال تعالى بعد ذكر العمل الصالح: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾(٤). أي مع ذلك كانوا مؤمنين.

الموقف الرابع في ذكر بعض مهمات الحِكَم المودعة في قصة آدم. فاعلم أن هذه

---

(١) سورة الحجر: ٢٨- ٣١

(٢) سورة ص: ٧١- ٧٤

(٣) سورة الأعراف: ١١

(٤) سورة البلد: ١٧

القصة قد تضمنت أبوابا من أصول الدين:

الأول ـ أن الله تعالى كرم الإنسان غاية الإكرام بما أعطاه من العلم ما لم يعطه الملائكة، فما أقبح له أن يجهل. فهذا باب العلم والإيمان.

والثاني ـ أنه جعله مسجوداً لملائكته المقربين الذين كلمهم الرب بإرادته وهم المسبحون المقدسون لربهم، فما أقبح له أن لا يعبد ربه. وهذا باب الإسلام والعمل والشكر.

والثالث ـ أن إبليس عدوه من الأول، فكيف لا يحذر منه. وهذا باب التقوى والصبر والتيقظ.

والرابع أن ذنب آدم كان من الضعف والنسيان، كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾(١)، وأيضا: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾(٢)، فتاب إلى ربه. وأما ذنب إبليس فكان من الكبر والحسد، فلم يتب. فليعلم الإنسان ذلك الفرق، فيكثر الرجوع إلى ربه ويعتصم به ويرجو رحمته، ويفر عن الكبر والحسد فإنهما يمنعان عن التوبة. وهذا باب التوبة والإنابة والطهارة.

والخامس ـ أن الملائكة مع كونهم مسبحين ومقدسين لله تعالى خضعوا لآدم مع ضعفه، وأبى إبليس لزعمه أنه خير من آدم، فلعن. وهكذا وقع بفرعون، كما حكى الله عن قوله في موسى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾(٣). فتبين أن الاستكبار عن الخضوع لمن يقيمه الرب فسق ومعصية للرب. وهذا باب الطاعة لأولى الأمر، وجماع السياسة والتمدن، ونفي البغي.

والسادس ـ ما يفهم من موقع هذه القصة، فسيأتيك في الفصل التالي.

---

(١) سورة النساء: ٢٨

(٢) سورة طه: ١١٥

(٣) سورة الزخرف: ٥٢

٤٧ـ نظم هذه الجملة بما سبق وبما لحق

لا يخفى عليك أن فيما ذكر من قصة آدم تعريضا باليهود، ودعوة للناس كافة إلى الإذعان بالنبوة عموما، وبهذه النبوة خصوصا ـ وهذه الآيات مع استقلالها متصلة بما قبلها، ولذلك صدرت بالواو ـ فقد دل فيما قبلها على أن الإنسان لا ينبغي له أن يكفر بنعم ربه الذي أعطاه الحياة بعد ميتته، وخلق له جميع ما في الأرض، فجعله أفضل ما فيها. وكذلك لا ينبغي له أن ينكر بربه، فإن الإنسان لم يحي نفسه، ثم يأتيه الموت على رغم أنفه، ثم إنه لم يخلق ما ينتفع به من السماء والأرض. فلا محيص له من الإيمان بخالقه، ومن توحيده لاتصال الخلائق في الغاية والمصلحة، ومن شكره لربه على ما أنعم عليه.

ثم في هذه الجملة التالية أكد ذلك المعنى بما قص من أحوال آدم مع ما أودعها من تعليمات الأصول، كما قد مر. فليس أن الرب تعالى كرم آدم في الأرض فقط، بل كرمه على الملائكة أيضا، فكما خلق له ما في الأرض جميعا فكذلك خلق له ما في السماء. والآن ارجع النظر في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١)، لتفهم منه أنه تعالى سوى السماوات السبع لكم، فكل ما فيها أيضا لأجلكم. فالجملة التالية توضيح وإتمام لما قدمه من ذكر النعم. و وضع هاتين الجملتين بحيث يستدل على صحتهما من الفطرة. فإن الإنسان لا يخفى عليه أن جميع ما في الأرض له، فينتفع به ويتصرف فيه؛ ثم يتدرج في العلم والصلاح، فلا تطمئن نفسه بهذه الحياة بل تتوق إلى قرب الرب ومعرفة ما في السماء وما بعد الموت. وإذ لم يخلق الرب شيئا عبثا ولا غفل عن تربية خلقه، هيأ لما خلق أسبابا موصلة إلى غايته وهدى الكل لما قدر له ليبلغه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾(٢). وكذلك بعد

---

(١) سورة البقرة: ٢٩

(٢) سورة الأعلى: ٢ - ٣

ذكر سبعة أطوار خلقة الإنسان التي هي تحت الإنسان، ورقاه فيها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾(١). فبين أنه مترق في هذه الطرائق، و لم يغفل الرب عن تربيته بعد خلقه كما أنه لم يغفل عنه من أول أمره.

وقد بينا في تفسير الجملة السابقة أنها استدلت على أربعة أمور: الألوهية، والمعاد، والتوحيد، والطاعة بأمور ظاهرة على الإنسان عموما وجعلها تمهيداً لإثبات ما بعدها. ففي هذه الجملة التالية أثبت ما يتصل بما قبلها من المطالب التي تتلوها من -

١- الإيمان والعلم والمعرفه

٢- والإسلام والعمل والشكر

٣- والتقوى والصبر والتيقظ

٤- والتوبة والإنابة والتطهر

٥- والطاعة، ونفي الفساد والبغي.

وأفرغها في قالب قصة، فلم يصرح بها كل التصريح ليكون أبلغ إلى نفوسهم. ثم لما كان معظم هذه المطالب النبوة، والطاعة لشرائع الله بدأ القصة بذكر الخلافة وختمها بوعد إنزال الهدى ليتبعوه.

ذلك، وأما ما ذكرنا من التعريض إلى اليهود فاعلم أنهم عرفوا النبي وعلموا أنه هو الذي بشر به موسى عليه السلام، فكانوا ينتظرونه، كما مر ذكره؛ ولكنهم استكبروا عن الإذعان له، لزعمهم بأنهم خير منه حسبا ونسبا. فكان مثلهم مثل إبليس الذي أبى عن السجدة لآدم عليه السلام وقال،كما حكى الله عن قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾(٢). وأيضا قد وعدهم الله أن ذلك النبي يأتي بكلام من الرب، فمن لا يؤمن به يعذبه الله؛ فأشار بإيراد وعد إيتاء الهدى ووعيد المكذبين إلى

---

(١) سورة المؤمنون: ١٧

(٢) سورة الأعراف: ١٢. سورة ص: ٧٦

ما وعدهم الله بلسان التوراة في حق هذا النبي.

ذلك، والآن قد تمت المقدمة التي ألقى فيها كلاما مجملا جامعا من غير خطاب إلى اليهود. ولكن ذكر فيها ما يكون تمهيداً لخطابهم صراحة. وختمها بذكر الوعد الأول والعهد الآدمي بإنزال هديه إلى ذريته، لأنه تعالى تواب رؤف، ورب رحيم. وبين أن ذلك العهد والخلافة أمر مكتوب مقضي، فمن أبى ونبذ عهد الله يعطيه الله من ذرية آدم من استعد له، وعلم الله استعدادهم لحمله.

فالجملة التالية إلى آخر هذا الباب الذي ينتهي عند منتصف هذه السورة تذكر من أحوال اليهود ما يثبت به أنهم لم تبق لهم ثمة من استحقاقهم لحمل ذلك العهد. فذكر كل ما يبين ذلك، ولكن دعاهم أولا إلى الهدى والإتباع. ثم بين بالتفصيل عدم استحقاقهم، وضرورة إنشاء أمة جديدة لحمل عهد الرب. فقال عز من قائل حكيم:

يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ(٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ(٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(٤٦).

٤٨- تفسير الكلم التي في هذه الجملة

﴿إِسْرَائِيل﴾ اسم يعقوب عليه السلام. وكثر مخاطبة اليهود في صحفهم بإسرائيل، أي نسل إسرائيل. والكلمة عبرانية مركبة من "إسر": وهو العبد، و"إيل": وهو

الإله، كما في أسماء أخر. فإسرائيل معناه؟ عبدالله. والعبرانيون يقولون: هو بطل الله، من الإسر بمعنى القوة. ومن حماقاتهم التي أدخلوها في صحفهم أنه صارع فصرع الله، فسمي إسرائيل. وكذلك قالوا أنه ولد آخذا يعقب أخيه عيسو، فسمي يعقوب. والقرآن يشير إلى كونه مبشرا به بعد إسحق، فسمي يعقوب.

﴿فَارْهَبُونِ﴾ الرهبة: هي الحالة التي تعتري القلب من التعظيم والإجلال من غير نظر إلى مضرة، ويلزمها الخشوع.

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ﴾ يقال: لَبِسَ الثَّوبَ يَلْبَسُ لُبْساً: أي جعله على جسمه، فصار سترا. ولَبَسَ الأمرَ عليه يَلْبِسُ لَبْساً: أي جعله بعضه على بعض فصار مخلوطا. ومنه لبسهم بمعنى خلطهم، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾(١). أي يخلطكم شيعا.

وأما لبس الشيء بالشيء، فيمكن أن يكون من الستر على أصل المعنى: أي لاتستروا الحق بالباطل، ويمكن أن يكون من الخلط: أي لا تخلطوا الحق بالباطل، والمآل واحد. وهكذا في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَـئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٢). والتبس: اختلط، ولَبَّسَ: خلط، كما قال الفرَّار السُّلَمي(٣):

وكتيبةٍ لَبَّسْتُها بكتيبةٍ   حتى إذا التبستْ نَفَضْتُ لها يَدِي(٤)

﴿الزَّكَاةَ﴾ ما ينفقونه في سبيل الله، وهو الصدقة، ثم خصت بما كتبه الله في الأموال. وتسميته بالزكاة من زكا يزكو: طهر، كما في القرآن: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً﴾(٥) أي طاهرة عن الذنب. وأيضا زكا الزرع: طال ونما. ووجه التسمية:

---

(١) سورة الأنعام: ٦٥

(٢) سورة الأنعام: ٨٢

(٣) اسمه حيان بن الحكم. شاعر مخضرم صحابي.

(٤) شرح الحماسة للمرزوقي: ١٩١

(٥) سورة الكهف: ٧٤

أنها طهارة للنفس والمال، وبركة ونماء له، فجمعت المعنيين. قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾(١). وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُواْ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾(٢). فنبه على كلتا الجهتين لتسمية الزكاة باسمها.

﴿وَارْكَعُواْ﴾ الركوع هو الانحناء إلى القدام. ومنه ركع الشيخ: احدودب. وأيضا: تواضع. وأيضا: سفل فقرا وبؤسا. كما قال(٣)

ويكنى به عن الصلاة، كما في العبرانية تطلق الصلاة على الانحناء والصلاة.

﴿بِالْبِرِّ﴾ أصله إيفاء الحق، فتفرع منه ما يكون إيفاء للحقوق الأصلية من الطاعة للرب والأبوين، والمواساة بالناس. ومن هذه الجهة صار بمعنى الإحسان، واشتمل الخيرات، وصار وصفا للرب تعالى، كما قال تعالى: ﴿إنه هو البر الرحيم﴾(٤). ثم هو إيفاء للحقوق الناشئة بالاختيار من العهود والأيمان. ومنه: بر باليمين. ومن هذه الجهة صار مضاهيًا للعدل. فالبر خلاف الإثم، والعقوق، والغدر، والظلم. وبَرَّهُ: علم له. والبر والبار: وصف منه. هو بَرٌّ بوالده: مطيع له. وبَرَّ بالقسم: أوفاه. قال زهير:

ومن يُوفِ لا يُذْمَمْ ومَن يُهْدَ قَلْبُه   إلى مُطْمَئِنِّ البِرِّ لا يَتَجَمْجَمِ(٥)

---

(١) سورة التوبة: ١٠٣

(٢) سورة الروم: ٣٩

(٣) لعله يعني قول الأضبط بن قريع السعدي:

ولا تهينَ الفقير علَّك أن   تركع يوماً والدهر قد رفعه

انظر البيان والتبيين ٣: ٣٤١

(٤) سورة الطور: ٢٨

(٥) ديوانه: ١٤ وشروح المعلقات.

وقال نابغة بني ذبيان:

إنـا اقْتسَمْنـا خُطَّتَيْنا بيننـا   فَحَمَلْتُ بَرَّةَ واحتَمَلْتَ فَجارِ(١)

وقال أيضا في قصة غدر امرئ بحية لدغت أخاه:

فلمّا وقاها الله ضَرْبَةَ فأسِـه   وَلِلبرِّ عينٌ لا تُغَمِّضُ ناظِرَة(٢)

أي للعدل عين.

وجاء في القرآن في وصف يحيى عليه السلام: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾(٣). وقال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٤). وأيضا في وصف الرب تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾(٥). وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(٦). وقال الأعشى:

عِنْدَهُ البِرُّ وَالتُّقَى وأَسـا   الشَّقِّ وحَمْلٌ لِلْمُعْضِلاتِ الثقال(٧)

فظهر مما مر أن للبر وجهين: عاما يشتمل جميع الخيرات، وخاصا وهوالإيفاء بالحقوق والواجبات. وأجمع وجوه معناه: الإيفاء بحق الكبير، والإحسان إلى الصغير.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾. كبيرة عليه: شاقة ثقيلة. قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾(٨). وأيضا: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ

---

(١) ديوانه: ٥٥ واللسان (برر، فجر)

(٢) ديوانه: ١٥٦

(٣) سورة مريم: ١٣- ١٤

(٤) سورة آل عمران: ٩٢

(٥) سورة الطور: ٢٨

(٦) سورة المائدة: ٢

(٧) ديوانه: ٤٥ وجمهرة أشعار العرب: ٣٣٣.

(٨) سورة البقرة: ١٤٣

إِعْرَاضُهُمْ﴾(١).

﴿يظنون﴾ الظن: ما يرى المرء من غير مشاهدة. ولكون غير المشهود ربما لا يوقن به. تضمن الظن معنى الشك. وبهذا المعنى كثر في كلام العرب والقرآن، كما قال طرفه:

وأَعْلَمُ عِلْمـاً ليس بِالظنِّ أنّه   إذا ذَلَّ مَوْلى المَرْءِ فهو ذليلُ(٢).

وفي القرآن: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾(٣). ولكن الرأي في غير المشهود ربما يكون يقينا، ويطلق الظن عليه بالمعنى الأعم من غير تضمنه الشك، كما قال أوس بن حجر:

الأَلْمَعِيُّ الَّذِي يَظُن بك الظَّنَّ   كأن قد رأى وقد سَمِعَا(٤)

وقال دُرَيد بن الصِّمَّة:

فَقُلْتُ لهم ظُنُّوا بألفَي مُدَجَّجٍ   سَرَاتُهمُ في الفارسِيِّ المُسَرَّدِ(٥)

وقال تعالى حكاية عن قول المومنين في القيامة: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾(٦). وهكذا ههنا، أي يرون أنهم ملاقو ربهم رأيا عاما، سواء كان يقينا أو مع شبهة.

٤٩- التـأليف

قوله تعالى: ﴿وإياى فارهبون﴾، وكذلك: ﴿وإياى فاتقون﴾ قد يتقدم على

---

(١) سورة الأنعام: ٣٥

(٢) ديوانه: ٨٤ وشرح الحماسة للمرزوقي: ١٤٤١

(٣) سورة الجاثية: ٣٢

(٤) ديوانه: ٥٣ واللسان (لمع)

(٥) من الشواهد المشهورة، انظر الأصمعيات: ١٠٧ واللسان (ظنن)

(٦) سورة الحاقة: ٢٠

الفعل ما يتعدى إليه وما يتعلق به، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾(١) وفي قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا﴾(٢)، ليدل على الاعتناء به. وربما يزاد الفاء على الفعل ليدل على زيادة الاعتناء كأنه جزاء شرط، كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾(٣). وذكر الضمير بعد الفعل إنما هو لزيادة الإيضاح، والفرق يسير بين ذكر الضمير وحذفه. قال عدى بن زيد:

وبالعدل فانطق إن نطقت ولا تلم   وذا الذم فاذممه وذا الحمد فاحمد(٤)

والنحويون يقدرون فعلا ويجعلون الفعل المذكور تفسيراً للمقدر، وهذا لحاجتهم إلى عامل. وأما على مذهبي، فلا حاجة إلى هذا التكلف. وبسط المسألة في كتابي المسمى بالنحو الجديد.

قوله تعالى: ﴿أول كافر به﴾. المضاف إليه لأفعل إذا كان نكرة مفردة كان في مفهوم التمييز، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾(٥). وهكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾(٦). أيضا: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾(٧). أيضا: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(٨) وهذا كثير. وهو الأسلوب في النكرة. قال ربيعة بن مقروم الضبي:

---

(١) سورة الفاتحة: ٥

(٢) سورة الأنعام: ١٥٢

(٣) سورة المدثر: ٣- ٥

(٤) ديوانه: ١٠٧ وجمهرة أشعار العرب: ٥٠١

(٥) سورة الأنعام: ١٤

(٦) سورة آل عمران: ٩٦

(٧) سورة التوبة: ١٠٨

(٨) سورة الأنعام: ٩٤

فدعوا: نزالِ فكنتُ أوّلَ نازلٍ   وعلامَ أركبه إذا لم أنزلِ(١)

فلو أضيف إلى المعرفة كان المضاف إليه جمعا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾(٢).

هذا، واعلم أن في الاستعمالين فرقا لطيفا، فإن أول كافر مثلا يستعمل سواء وجد كافرغيره أم لم يوجد، وأول الكافرين معناه: إنه أول الذين كفروا.

قوله تعالى: ﴿وتكتموا الحق﴾. ذكر النحويون فيه وجهين: النصب بإضمار "أن" بعد واو مع، والجزم بالعطف. وقال ابن جرير رحمه الله في وجه النصب: "﴿وتكتموا الحق﴾ خبر وتسميه النحويون صرْفًا(٣). ونظير ذلك في المعنى والإعراب قول الشاعر:

لاتنهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مِثْلَه   عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ"(٤)

وقال رحمه الله: "وإنما معناه: لاتنه عن خلق وأنت تأتي مثله، فكان الأول نهيا، والثاني خبرا، فنصب الخبر إذ عطفه على غير شكله"(٥).

ثم ذكر فرق التأويل على الوجهين، وذكرأن ابن عباس ذهب إلى العطف - أي لاتكتموا الحق، وأن أبا العالية ذهب إلى كونه خبرا ـ أي أنهم كتموا الحق(٦).

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقي: ٦٢

(٢) سورة الزخرف: ٨١

(٣) واللفظ كذا في الطبعة الميمنية بمصر١: ١٩٦. وفي طبعة دارالمعارف: "فيكون ... ﴿وتكتموا الحق﴾ خبرا معطوفا عليه، غير جائز أن يعاد عليه ما عمل في قوله "تلبسوا" من الحرف الجازم. وذلك هو المعنى الذي يسميه النحويون صرْفًا" ١: ٥٦٩

(٤) تفسر الطبري١: ٥٦٩

(٥) المصدر السابق١: ٥٧٠

(٦) المصدر السابق

وهكذا ذكر الوجهين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾(١). فقال: "والآخر منهما (أي الوجه الآخر في الإعراب) النصب على الظرف فيكون معناه حينئذ: لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وأنتم تدلون بها إلى الحكام، كما قال الشاعر: لاتنه عن خلق..." وقال رحمه الله: الجزم أحسن، وأن أبي بن كعب قرأ: ولا تدلوا(٢)، أي قرأ ليفسره.

أقول: المآل واحد، فإن الله تعالى نهاهم عما فعلوه، فالنهي والخبر سواء. فإنهم كما لبسوا الحق بالباطل فكذلك كتموا الحق بعد العلم به، وكلاهما مما ينهى عنه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٣). فلا وجه إلى العدول عن العطف، وجعل الأول نهيا والثاني خبراً. وإنما لم يكرر حرف "لا" ليعلم أن الأمرين واحد، وأن الثاني من الأول بمنزلة البيان. فإنهم لبسوا الحق بالباطل لغرض الكتمان وقد نهوا في التوراة عن ذلك، ولكن ظاهر فعلهم كان لبس الحق بالباطل فنهاهم عنه أولا، ثم نهاهم عما هو حقيقة أمرهم.

وهكذا الوجه في قوله تعالى: ﴿وتدلوا بها﴾، فإن ذلك من الأكل بالباطل. وهكذا في قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ﴾(٤)، فإن الخيانة في الأمانة من الخيانة بالله.

فعلى هذا تكون الواو للتفسير، أي لبسكم الحق بالباطل هوعين كتمان الحق، فنهاهم عنهما ودل على كون الثاني من الأول.

---

(١) سورة البقرة: ١٨٨

(٢) انظر الطبري ٣: ٥٥٢

(٣) سورة آل عمران: ٧١

(٤) سورة الأنفال: ٢٧

قوله تعالى: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ حال عن الفاعل في ﴿تأمرون﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ حال عن الفاعل في ﴿تنسون﴾.

٥٠ ـ تأويل الآيات مع تنبيه على وجوه البلاغة

لا يخفى عليك أن هذا خطاب مجمل وبعده خطاب مفصل. وجعل الأول تمهيدا، فضمنه كلمات جامعة لما يتلوه من تفاصيل أحوالهم. ولهجتها لهجة الدعوة والاستمالة، فلم يصرح ههنا بما سيأتي من شنائعهم بل اكتفى بالتعريض بها. فإن الأمر والنهي ربما يخاطب بهما من هو مرتكب خلافهما. فكأنه أشير إلى أنكم كفرتم بنعمتي، ونسيتموها،ونقضتم عهدي، ولم ترهبوني، ولم تؤمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم، وصرتم أول كافر به، واشتريتم بآياتي ثمنا قليلا، ولم تتقوني، ولبستم الحق بالباطل، وكتمتم الحق بعد العلم به، وهدمتم الصلاة والزكاة، ولم تركعوا مع الراكعين إلى آخر ما ذكر. وجعل هذه الإشارات واضحة بما أتبعها قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، وبما ضمنها من قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾، وأيضا:﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

فهذا، كما ستعلم، يبين أنهم فعلوا ذلك. ولكن ههنا خفف التشنيع ـ

١ـ بما جعل معظم هذا الكلام تعريضا.

٢ـ وبما وعد فيه بتوبة الرب عليهم حيث قال: ﴿أَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾

٣ـ وبما دلهم على ما يستعينون به في إصلاح أمرهم ـ وهو الصبر والصلاة.

ويتضح لك بلاغة هذه الجملة بعد النظر التام في الخطاب الثاني؛ فإنها من أكبر جوامع الكلم. فكل ما ذكر بعدها من تفاصيل أحوال اليهود الدالة على عدم استحقاقهم بحمل أمانته وعهده، ذكر إجمالها في هذه الجملة. فهي خلاصة ما بعدها على سبيل تقديم الإجمال على التفصيل.

وقوله تعالى: ﴿اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ يشير إلى أنكم قد كفرتم بنعمتي، فاذكروها لعلكم تشكرون.

و﴿نِعْمَتِيَ﴾ من جوامع الكلم، تدل على جميع ما أعطاهم الله من الخلافة، والملك، والنبوة، والميثاق ونعم كثيرة، كما فصلها في الخطاب الثاني وعددها. وقد ذكرها إجمالا وتفصيلا في غير موضع من القرآن، فمنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾(١). وأيضا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾(٢).

قوله تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أيضا من جوامع الكلم، فإن لله تعالى عهودا على الناس عامة، وعلى اليهود خاصة. وهذا العهد من الله تعالى من أعظم النعم، ولذلك ذكر العهد بعد ذكر النعمة. وكأنه قيل لهم اذكروا النعم الكثيرة التي أنعمت يها عليكم، فإن أوفيتم بعهدي عدنا عليكم بنعم أتمها عليكم. وقد جاء في الخطاب الثاني ذكر عهود الرب ببني إسرائيل، فههنا قدم الإشارة إليه.

ومن أفضل هذه العهود أن الله تعالى عاهدهم أن يؤمنوا بنبي يبعثه الله من إخوتهم ويعطيه كلامه فيكمل به الشريعة، ويتوب على من آمن بذلك النبي. وذلك حين أبوا أن يتم لهم الشريعة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أي ارهبوني، أنا الذي أنعمت عليكم ووعدتكم وأعطيتكم عهدي. والأمر بالرهبة تذكير لما جعله الله رأس شريعتهم وملاك أمرهم، فإن شريعة يهود بنيت على الترهيب، وذلك لقساوة قلوبهم وقلة خضوعهم. فأعطاهم الله الشريعة حين أرهبهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ

(١) سورة المائدة: ٢٠

(٢) سورة إبراهيم: ٦

نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١). وهكذا جاء في التوراة، وسماهم فيها كثيرا صلب الرقاب. فدعاهم بذلك إلى إيفاء العهد، واستشعار الرهبة، والإجلال لربهم، وعهده. فإن النعم التي أنعم الله بها عليهم كانت مظاهر قدرته القاهرة ورأفته الباهرة، كما كثر ذكرها في كتبهم لاسيما الزبور.

وقوله: ﴿وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يبين ما أشار إليه فيما قبله من عهد الله بهم. فهذا الأمر تفريع على ما دعاهم إليه من إيفاء العهد.

وقوله تعالى: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ يشير إلى ما وعدهم الله من الرحمة إن آمنوا بذلك النبي وبما ينزل عليه. راجع سفر التثنية ١٨: ١٥- ١٩.

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ﴾ معناه: أن هذا القرآن قد صدَّق ذلك الوعد. فإن آمنتم به أوفى الله بعهده المذكور فى التوراة. وأما تصديق ذلك الوعد بالقرآن فكان من البين الواضح عندهم، فإنه صدق في محمد صلى الله عليه وسلم العلامات التي عرفها لهم في التوراة. وقد ذكر الله ذلك حيث حكى عن تضرع موسى عليه السلام حين أخذ سبعين رجلا لأخذ الميثاق وأخذتهم الرجفة، فقال تعالى مجيبا لدعوة موسى عليه السلام: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢). وبما عرفوا النبي عرفوا أن هذا القرآن هو الكتاب الموعود لهم.

(١) سورة الأعراف: ١٧١

(٢) سورة الأعراف: ١٥٦- ١٥٧

ثم نفس ما في القرآن صدقت التوراة لماجاء بالأمور التي جاء بها التوراة، ولكنها لما أدخلوا فيها صارت مما لايؤمن به عاقل. وجاء القرآن خالصا من تلك الأباطيل، فدل على أن أصل التوراة حق وأباطيلها مدخولة، وبذلك صدق أصل التوراة ونفى التكذيب عنها.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ نهى عن تكذيب ما هو مصدق لما معهم. وإذ عوهدوا بالإيمان به ووعدوا بالنعم إن أوفوا، فعرض عليهم بالقرآن نعمة وعرفوه أنه حق ومصدق لما معهم، فكفرهم به جحود بالحق وبما معهم وكفران بالنعمة. فصارت كلمة ﴿كافر﴾ ههنا جامعة لمعانى الكفر. وأما كلمة ﴿أول﴾ فليس المراد به أنه يباح لكم أن تكونوا كافرين به بعد قوم كفروا به أولا. وهكذا في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلاً﴾ ليس المراد به أنه يجوز لكم إن تشتروا بها ثمنا كثيرا، وهذا ظاهر.

والقاعدة أن النهي ربما يتضمن التشنيع لما عليه المخاطب، فيتعلق النهي بأصل الفعل، وذكر القيد يشير إلى أنكم بلغتم النهاية في ارتكاب الشناعة أفلا تشعرون ذلك القبح. ومنه قوله تعالى: ﴿لاَتَأْكُلُواْ الرِّبَواْ أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً﴾(١).

فالمعنى: أن القرآن لما جاء مصدقا لما معكم كان المرجو منكم أن تكونوا أول قوم آمن به، ولكن الأنصار قد سبقوكم بالإيمان وأنتم سبقتم بالكفر. فإن قيل لم تكن اليهود بأول من كفر، فقد كفرت قريش قبل ذلك. قلنا إن الخطاب ههنا إلى قوم اليهود، ألا ترى التصريح في خطابهم بقوله: ﴿يابَنِى إِسْرَائِيْلَ﴾ وهم أمة، والعرب كلها أمة واحدة، أو أمتان إن فرقت بين بني عدنان وبني قحطان، فقريش عدنانيون وأهل يثرب قحطانيون. فأما قريش فإن كفر بعضهم فقد آمن منهم آخرون، فلا يقال أن قريش أول من كفر بل هم أول من آمن، فلهم القدم الأولى والحظ الأوفى.

(١) سورة آل عمران: ١٣٠

وأما القحطانيون ـ أهل يثرب ـ فهم أيضا من حيث قومهم تبادروا إلى الإسلام وصاروا أنصاره، وجيرانهم اليهود من حيث القوم تبادروا إلى الخلاف والعداوة.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيْلاً﴾ قول جامع لكل ما نقضوا من عهود الله، وجاء بيانها في الخطاب الثاني. وأكبر هذه العهود ثلاثة: القيام بأحكام التوراة، والإيمان بالقرآن المصدق لما أنزل عليهم، والشهادة بما عندهم من الكتاب من غير كتمان، كما هو مبسوط في موضعه.

وتعبير نقض العهد بهذه العبارة كثير في القرآن وهو أوضح في نبذ كتاب الله، فإنه بنفسه عهد من الله وجامع للعهود كلها. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيْهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِيْنَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنْزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(١). فالمعنى أن لاتتركوا التوراة وما فيها لأجل نفع قليل مما ترغبون فيه. وهذا متوجه إلى اليهود عموما يشتمل عامتهم وخاصتهم. أما العامة فلكذبهم في إيمانهم ونبذ أحكام التوراة لشهواتهم. وأما الخاصة فلإنكارهم بما معهم من ذكر هذا النبي، فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم لما خافوا على رئاستهم ومخالفة أتباعهم، علاوة على حسدهم بني عمهم إسمعيل عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ﴾. أيضا قول جامع، كقوله تعالى قبل ذلك ﴿وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ﴾. وبحسب موقعه يدل على ما يفهم من السابق: أي اتقوني أنا الذي أنعمت عليكم وأوعدتكم على مخالفة التوراة والنبي الموعود. وأيضا: فإن عذابي لايرد عمن يكفر بنعمتي وينقض عهدي ويشترى بآياتي ثمنا قليلا. وأيضا: لاتخافوا إلا أياى، فدعوا خوف ذهاب رئاستكم أو مخالفة أتباعكم أو ذهاب ما

(١) سورة ا لمائدة: ٤٤

تكسبون منهم من الأموال. وأيضا: فإنّهم قد تركوا أحكام التوراة الأصلية بما أقبلوا على ما أدخلوا فيها، فلو اتقوا ربهم لم يشتروا بأياته ثمنا قليلا.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ الآية متوجه إلى ما أدخلت اليهود في التوراة من أهوائهم ورواياتهم، فاختلط الحق الذي أنزله الله بالباطل الذي أدخلوه، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِيْنَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيْهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾(١).

وهذا أيضا من جوامع الكلم. فإنهم بما أدخلوا وأخرجوا وبدلوا قد كتموا كثيرا من الأمور الحق الذي لم يرضوا به، كما فعلوا في أمر قربان إبراهيم ومذبحه وقبلته - وبيانه في الباب الثاني من هذه السورة؛ وبما أثاروا من الشبهات في إنكار هذا النبي الموعود والقرآن بعد ما عرفوه لبسوا الحق بالباطل، فكتموه. فقوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يشير إلى ما فعلوه من لبسهم الحق بالباطل، ولذلك لم يكرر كلمة "لا" لكون هذا النهى داخلا تحت النهي السابق، ولكونه بيانا للسابق، فإنهم لبسوا الحق ليكتموه. فكلمة ﴿الحق﴾ في هذه الآية جامعة لما أنزل الله في التوراة، ولما ظهر عليهم مما جاء به القرآن مصدقا لما معهم من الحق.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أمر متوجه إلى اليهود خاصتهم وعامتهم. وفيه ذكر معظم ما تركوا من الأحكام - وهي الصلاة، والزكاة، والركوع مع الراكعين. أما الصلاة فهداهم الله إليها من غير تصريح بأنهم أبطلوها، لكيلا يقولوا أنها لم تكتب عليهم، وذلك إعراضا عن اللجاج. قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾(٢).

(١) سورة البقرة: ٧٩

(٢) سورة المائدة: ١٥

ولنذكر ههنا كيف أبطلوا هذه الأحكام الثلاثة. فأما الصلاة، فإنها لاتوجد في الصحف الخمس المنسوبة إلى موسى عليه السلام حتى أن فريقا منهم قالوا أن موسى عليه السلام لم يجئ بها، وإنما ابتدعها الناس.

وأما الزكاة المفروضة، فوضعوا سفر اللاولين لأحكام الكهنوت والنذور والقرابين، ولم يذكروا فيه حق الفقراء والمساكين، بل جعلوا كل عشر من المحاصل وفدية كل بكر وكل نذر للكهنوت. ومن أكبر إنكارهم بالزكاة قولهم - كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾(١). والسبب الأقوى لذلك أن مشائخم صرفوا وجوه الصدقات كلها إلى أنفسهم، كما صرفوا إلى أنفسهم العبادات، فصاروا أربابا من دون الله كما بين القرآن. وكثير من أنبيائهم ونحوهم على ذلك، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ (أي يمنعون الناس عن الإنفاق في سبيل الله، ولا أنفسهم ينفقونها فيه) وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ (أى هذه الأحبار والرهبان) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَاكُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(٢)

(نذكر بعض ما جاء في الصحف والإنجيل في تشنيعهم) ولكن الله تعالى أزال هذه الشناعات عن ناموسه. فبين القرآن أن الصلوة كانت أول ما كتب على اليهود. قال تعالى في أول خطابه إلى موسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِى أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى﴾(٣). وأيضا: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا

(١) سورة المائدة: ٦٤

(٢) سورة التوبة: ٣٤- ٣٥

(٣) سورة طـه: ١٤

بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾(١). فهذا أول أساس لجمع شملهم بإقامة الصلاة بالجماعة.

وأما الركوع مع الراكعين، فيتضمن أمرين:

الأول: هو الأمر بالركوع وقد تركوه، وزعموا أنه لايجب عليهم إلا أن يسجدوا مرة واحدة في السنة، وأجازوا في ذلك أن يضع الرجل جبينه على جدار أو عمود قائما. وهذا يبين كيف سماهم الله تعالى صلب الرقاب.

والثاني: هو الأمر بالصلوة مع الجماعة، وذلك تنبيه أئمتهم على المساواة بالناس. فإن أول ما يهدم الصلاة ترك الجماعة. فالكبراء أولا يأنفون عن الاختلاط بعامة الناس فيصلون في بيوتهم وتسقط عزة الصلاة. فلا يجتمع في المسجد إلا الفقراء، وواحد من الكبراء للإمامة. ثم بعد ذلك تقل الجماعة وتنعدم. فالمراد بإقامة الصلاة هو الاجتماع في المساجد. ومن ههنا ترى كيف أمر الله مريم عليها السلام بلزوم الجماعة، حيث قال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾(٢). فمعنى ﴿ارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: صلوا مع الذين يصلون. والعبارة بالركوع عن الصلاة عامة لاخفاء بها، بل الصلوة في العبرانية تستعمل للركوع والانحناء أيضا.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، متوجه خاصة إلى أئمة اليهود، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾. وهكذا روي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما. وكلمة "البر"، كما مر في تفسير الكلم، تدل على إيفاء الحقوق. فأشارت الآية إلى أنكم تأمرون الناس بأن تبروكم وأنتم لاتبرون مطلقا، فتأكلون أموال الناس بالباطل، ولا توفون بما عليكم من حقوق الله والفقراء. وقد بينا آنفا أنهم أكدوا كل التأكيد على إعطاء الأموال إياهم

(١) سورة يونس: ٨٧

(٢) سورة آل عمران: ٤٣

وهم منعوها عن سبيل الله، وكذلك أوجبوا طاعتهم على الناس حتى صاروا أربابا لهم، ولم يطيعوا الرب تعالى. فأضاعوا الصلاة والزكاة كلتيهما فهدموا الدين كله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ حجة عليهم، فإن حقوق الفقراء وإن أخرجوها من سفر اللاوين ـ وهو كتاب النذور وحقوق الكهنة ـ فإنها باقية في سفر التثنية. (اذكر آيات من التثنية)(١) وقد كانوا يكتمون هذا السفر لما فيه أمور خلاف رضاهم، وقد جعلوا التوراة مجزءة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَآءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾(٢). وقد أنكر بعض متأخرى النصارى بهذا السفر. والسبب الخفي لذلك أن فيه البشارة بنبينا عليه الصلوات.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. أي استعينوا بالصبر والصلاة على الإتيان بما أمرناكم به، والانتهاء عما نهيناكم عنه، كما تقدم آنفا.

واعلم أن المراد بهذا الأمر هو التمسك بالصلاة، وأما ذكر الصبر قبلها فلكونه شرطا وذريعة إليها، فإن الصلاة لايمكن التمسك بها إلا بالصبر. فالصلاة كجسر عظيم لابد له من أساس شديد. قال تعالى مخاطبا لنبيه عليه السلام: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(٣). وبين ذلك في الجملة التالية، فاطلب البيان من تفسيرها.

واعلم أن المراد من الاستعانة بالصلاة هو الاستعانة بالرب تعالى، كما هو ظاهر. قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا﴾(٤). أى صلوا لربكم. وذلك بأن الصبر الذي جعله الله تعالى رأس الأمور وأساسها هو الاستقامة بطمأنينة

(١) لعله يشير إلى ١٤: ٢٩. ١٥: ٧-١١. ٢٤: ١٩-٢١. ٢٦: ١٢-١٣

(٢) سورة الأنعام: ٩١

(٣) سورة طـه: ١٣٢

(٤) سورة الأعراف: ١٢٨

من صبرهم. وذلك بأن الصبر ربما يكون فعلا وينشأ من شرافة النفس وإبائها، ورسوخ القدم في الطاعة، واحتمال عظائم الأمور. وربما يكون انفعالا واحتمالا للقهر والظلم، وهذا أدنى الصبر. وقد علمنا أن بني إسرائيل كانوا قليلي الصبر بالمعنى الأول، ولكنهم صبروا على ظلم آل فرعون، فرحم الله عليهم وبعث منهم رسولا عظيما. فكان يأمرهم بالصبر الذي كان رأس مالهم، كما حكى الله تعالى عن ذلك حيث جاء في القرآن: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(١). وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾(٢).

ذلك، وأما أنه تعالى أمرنا بصبر أعظم من صبرهم، فيأتيك بيانه في تفسير أوائل الباب الثاني من هذه السورة.

٥٢ - بيان النظم

قد تبين مما قدمنا أن هذه الجملة نبهت اليهود على أمور عظيمة غفلوا عنها وجعلوها نسيا منسيا، وقد كانت التوراة أمرتهم بها وأكدت عليها فكتموا منها بعضا ونسوا بعضا، فما دعاهم القرآن إلا إلى ما أنزل عليهم. فدعاهم ههنا إليها لدواء أمراضهم العائقة عن الإيمان بهذه البعثة الموعودة لهم لإتمام البركات عليهم. فدعاهم أولا إلى ثلاثة أمور:

- إلى ذكر نعمه التي أنعم عليهم بها

(١) سورة الأعراف: ١٢٨- ١٢٩

(٢) سورة الأعراف: ١٣٧

- وإلى الإيفاء بعهده
- وإلى الرهبة لربهم خاصة.

وهذه هي الأصول التي لايمكنهم الإنكار بها، فجعلها أصولا. ثم فرع على هذه الأصول الثلاثة بالترتيب أن يؤمنوا بالقرآن.

أما على الأصل الأول، فمن جهة كون القرآن إتماما لما أنعم عليهم باطنا وظاهرا، كما وعدهم به. وصدق ذلك الوعد بهذا القرآن، فنهاهم عن الكفر به لكون ذلك كفرانا عظيما وخسرانا مبينا.

وأما على الأصل الثاني، فمن جهة أن الإنكار به نقض لعهد الرب واشتراء للثمن القليل عوض آياته.

وأما على الأصل الثالث، فمن جهة أن إنكارهم بالقرآن خلو تام عن خشية الرب، لما فيه اجتراء على الله بنبذ ما معهم من النصوص البينة والعهود الصريحة. وخاطبهم بهاتين الآيتين خطابا عاما.

ثم خص علماءهم وقادتهم، فنهاهم عما ارتكبوه من لبس الحق بالباطل وكتمان الحق بعد العلم والمعرفة. وبعد ما ذكر على سبيل التعريض فسادا عاما، وفسادا يختص بعلمائهم ذكر دواءهما بالترتيب.

أما الفساد العام ، فهو الذي ظهر في صورة الكفران بالنعمة، والنقض لعهد الله، والخلو عن خشيته. فلإزالة هذه الثلاث أمرهم بالصلاة، والزكاة، والركوع مع الراكعين أمرا عاما.

أما الصلاة، فأمرهم بها لكونها جماع الذكر والشكر ورأس العهود كلها كما مر، فقدمها.

وأما الزكاة، فلكونها دواء لمرض الشح الذي حملهم على نقض العهود واشتراء الثمن القليل بها ـ وقد غلبهم هذا الداء العضال، كما قال تعالى في ذكر

القلب على وعد الله، والاستحقار لما يقاسيه العبد من البلاء والأذى، كما قال تعالى: ﴿فاصبِرْ إنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١). فهذه الصفة هي التي يلتصق بها العبد بربه ولا يزال قائما بين يدى مولاه توابا أوابا. قال تعالى: ﴿والَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿فاصبِرْ على مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾(٣). فالصبر من هذه الجهة من شرط الصلاة، ولذلك يعبر بالصابر عن المصلى. قال تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابرِينَ﴾(٤). فنبه على أن الصابرين هم المصلون، فجعل الصبر دليلا على الصلاة، فاكتفى بذكره عنها. وههنا جعل الصلاة دليلا على الصبر، لكونها مشتملة عليه. وسيأتيك ذكره في تأويل الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿وإنها لكبيرة﴾ لم يقل إنهما لكبيرتان ــ وذلك لوجوه:

الأول ـ أن كون الصبر شاقا كان ظاهرا، فتركه. كما ترى ذلك في قوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابرِينَ﴾ فترك إن الله مع المصلين، فإن ذلك ظاهر، لما أن الصلاة هي الحضور بين يدى الرب فهي عين المعية.

والوجه الثاني ـ أن الصبر من شرائط الصلاة، فلا يقيم على الصلاة إلا الصابرون كما مر. فكأن الحكاية عن كون الصلاة شاقة تنبيه على جهة المشقة فيها وهي كونها متضمنة للصبر، فأغنت عن صريح الحكاية عن الصبر بكونه شاقا.

والوجه الثالث ــ أن شدة الصبر ظاهرة، والأمر بما هو شديد فيه نوع من التنفير فتركه وأخذهم بما هو أهون بحسب الظاهر.

(١) سورة هود: ٤٩
(٢) سورة الرعد: ٢٢
(٣) سورة طـه: ١٣٠
(٤) سورة البقرة: ١٥٣

قوله تعالى: ﴿إلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الخ هذا ذكر ما بنى عليه الصلاة والصبر وما يستلزمها. وذلك لا يخفى على من تدبر في هذه الأمور. ثم قد نبهنا القرآن عليها. أما بناء الصلاة على الخشوع للرب تعالى فبينه في غيرما آية، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾(١). وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾(٢). وكون الخشوع من أكبر أصول الصلاة ظاهرة جدا. وأما بناء الصلاة على الإيمان بلقاء الرب تعالى فقد نبه عليه أيضا في غير ما آية. قال تعالى: ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى. وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾(٣). وقال تعالى في أول ماخاطب به موسى عليه السلام: ﴿إنَّنِي أنَا اللهُ لاَ إلَهَ إلاَّ أنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي. إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى. فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾(٤). تأمل في عجيب نظم هذه الآيات. وكون الإيمان بلقاء الرب أصلا عظيما في الصلاة مبسوط في مواضعه. ومنها ما مر في أوائل هذه السورة في عنوان النظم تحت قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾.

وأما كون ذلك أصلا للصبر أيضا....

وقد مر ذكره في الجلمة السابقة في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ﴾.

٥١ ـ التدبر فيما تعلمنا هذه الجملة من الحكمة

اعلم أن الأمر بالصبر والصلاة أمر بما بنى عليه الملة الإبراهيمة، وبه صار إماما للناس فدعاهم إلى تلك الجامعة وأمرنا أيضا بهما. ولكن صبرنا أعظم و أوسع

(١) سورة المؤمنون: ١- ٢
(٢) سورة الأنبياء: ٩٠
(٣) سورة القيامة: ٣١- ٣٢
(٤) سورة طـه: ١٤- ١٦

الذين كفروا من أهل الكتاب: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ. بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِيْنَ. إِنَّ الَّذِيْنَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيْلاً أُوْلَـئِكَ لاَخَلاَقَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَومَ الْقِيمَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

وأما الركوع مع الراكعين، فليزيل به صلابة رقابهم ويفتح لهم باب الخضوع والخشية للرب، فيؤمنوا بهذه البعثة.

ثم بعد ذلك توجه إلى علمائهم فذكر ما يخصهم، وهو أمرهم الناس بالبر وتركهم إياه. والبرّ كلمة جامعة لإيفاء الحقوق الواجبة، فلم يزد على ذلك غير دعوتهم إلى الفكر فيما يتلون من كتاب الله وعهده. فانظر كيف ذكر الله تعالى في هذا الخطاب المجمل أصول فسادهم ودواءها.

ثم لم يقتصر على ذلك، بل دعاهم خاصة إلى ما يسهل عليهم الامتثال لما أمرهم بها، ليدلهم على طريق السلوك. وبيان ذلك أن اليهود لما تعسر عليهم الإيمان بما أنزل الله تعالى مصدقا لما معهم هداهم إلى ما يستعينون به، وقد غفلوا عنه، وهو الصلاة. وقد دعاهم إليها أولاً من جهة كونها ذكراً وشكراً، وأول العهود بعد التوحيد. ثم كرر الأمر بها لكونها عونا على جميع الصالحات ومبدء للهدايات، وضمها بالصبر الذي كان رأس مالهم، كما مر آنفا.

ثم اعلم أن الله تعالى جمع لهم بهذا التكرار بابى الفلاح. وبيان ذلك أن رحمة الرب تعالى بعد الرحمة الأولى التي خلق بها الإنسان وسواه وهداه تتوجه إليه وتزداد لسببين:

الأول كونهم شاكرين لنعمه وذاكرين باسمه ـ وجماعه الصلاة والزكاة والخضوع للرب. فمن هذه الجهة دعاهم أولا، كما مر.

(١) سورة آل عمران: ٧٥- ٧٧

والثاني كونهم صابرين على بلائه مقاسين لأذى أعدائه. فدعاهم من هذه الجهة ثانيا، ودل على أن الصلاة مشتملة على الصبر أيضا ومقرونة به. وقد مر بيان هذه الجهة للصلاة في عنوان التأويل. والظاهر أن هذين هما أصلان للدعوة، وقد صرح القرآن بذلك واستعمل هذا الطريق كثيرا.

فتبين مما ذكرنا أن الله تعالى في هذه الجملة دعا اليهود إلى ما فيه الفلاح لهم، وجعل مفتاح ذلك الصلاة. وقد صرح القرآن في مواضع بأن أهل الكتاب إنما فسدوا بإضاعة الصلاة، وأن التمسك بالكتاب إنما يتأتى بالمحافظة عليها. ومنها قوله تعالى في ذكر اليهود: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾(١). فبين أن إضاعة الصلاة تجر إلى الغي. وأيضا: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾(٢). فبين أن التمسك بالكتاب رأسه إقامة الصلاة. وقد وعدهم الله تعالى أن تدوم عليهم نعمته بالصلاة والزكاة والإيمان برسله، وبذلك عاهدهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيْبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهارُ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾(٣). فههنا دعاهم إلى هذه الأمور وجعل الصلاة رأسها وأساسها.

ثم اعلم أن قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ ـ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(٤). يتضمن حجة بالغة ويلجئهم إما إلى الإيمان والهداية، وإما إلى الإقرار بصريح الكفر؛

(١) سورة مريم: ٥٩

(٢) سورة الأعراف: ١٧٠

(٣) سورة المائدة: ١٢

(٤) الآيات: ٤٥- ٤٦

فإن لم يكونوا راضين بذلك لابد لهم أن يؤمنوا. وبيان ذلك أن الله ذكر ههنا سلسلة مما يستلزم المتأخر منه المتقدم، فإن الصلاة يستلزمها الخشوع بل هي عين الخشوع، والخشوع يستلزمه محض الظن بلقاء الرب والرجوع إليه. فإما أن يقولوا أنهم لاظن لهم بلقاء الرب والرجوع إليه فيقروا بصريح الكفر، وإما أن يقروا بذلك. فإن فعلوا فلابد لهم أن يصلوا، فإذا صلوا جاءهم التوفيق من الرب للإيمان بما أنزل مصدقا لما معهم. فبهذا الخطاب حملهم على النظر في قلوبهم هل فيها ذرة من الإيمان بلقاء الرب أم هي قد خلت منه بالكلية. وقد خلت ولكنهم لم يشعروا به، كما بين الله ذلك في الخطاب الثاني المفصل.

ذلك، ثم بعد هذا الخطاب المجمل أخذ في التفصيل، فذكر كيف نسوا نعمه (أولاً)، ونقضوا عهوده(ثانياً)، وصلبوا رقابهم(ثالثاً)، وجادلوا بالحق الذي عرفوه(رابعاً)، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وأقبلوا على السحر والعزائم وغفلوا بالكلية عن بركات ما أنزل لصلاحهم(خامساً). وهذا ذكر طويل مشتمل على جمل مستقلة متصلة بعضها ببعض، كما ستعرف، فقال عز من قائل حكيم:

يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(٤٧) وَاتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَهُمْ يُنْصَرُونَ(٤٨) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ذكر النعمة والفضل.

﴿وَاتَّقُوا يَوْماً...﴾الآية. أي اشكروني واخشوني، كما قال تعالى: ﴿يَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾، فصرح بالنعم وأشار إلى النقم.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ... وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تفصيل النعم والنقم =

ذَلِكُمْ بَلآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ(٤٩). وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا

= وإظهار الآيات عليهما.

جمع الوجوه، ففيه:

١ـ إظهار الآيات، فكذبوها من فساد الفهم.

٢ـ وإظهار النعم، فكفروها من فساد القلب.

٣ـ وإعطاء الهدى، فأبوا من فساد العقل.

٤ـ وإظهار النقم، فلم يخافوا من فساد القلب. فهذا إجمال.

٥ـ وظهور صفاتهم ـ (من :(١)الكفران بالنعمة، (٢)والنسيان، (٣)وسرعة الفساد، (٤)والشرك، (٥)وعدم التقوى، (٦)وقلة المبالاة بالآيات والنعم، (٧)وصلابة الرقاب (٨)والشح، (٩)وسقوط الهمة، (١٠)وقلة الصبر.

٦ـ وظهور صفات الرب ـ (من :(١)الرحمة، (٢)والقوة، (٣)والهداية، (٤)والعفو، (٥)والتوبة، (٦)والغضب، (٧)والمنة، (٨)والرزق، (٩)والزيادة، (١٠)وحب العدل.

٧ـ وغلبة الحق.

٨ـ ولزوم العدل.

أما الآيات: (١)فعجز فرعون، (٢)وفلق البحر، (٣)ثم غرق آل فرعون، (٤)وإعطاء التوراة من بين الدخان والظلمة، (٥)والصاعقة، (٦)والغمام، (٧)والمن، (٨)والسلوى، (٩)والرجز (١٠) وانفجار العيون.

****

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ ...﴾ الآية. أي أزال النقمة عنكم وهي أول النعمة ـ فبلاهم بالنقمة ثم بالنعمة اللتين جرتا عليهم ـ فأحياهم.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ(نقمة) وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (نعمة)﴾. أنعم عليكم فأنجاكم، وانتقم من أعدائكم فأغرقهم ـ فأراهم آية بينة على النعمة والنقمة.

آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ(٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ(٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُم مِن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ(٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى(موقع الشكر) أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ(كفرهم)... ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُم مِن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. نعمة الدعوة إلى إنجاز الموعود لإبراهيم عليه السلام، فعفا عنكم فأعطاكم أكبر النعم مع عدم الاستحقاق، وكما صرحت به الصحف. وكان عبادة العجل نتيجة لعملهم، فكان نقمة الضلال. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ...﴾ وهذا العفو أنه تعالى لم يحرمهم إعطاء الكتاب والنبوة.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فأنجز ما وعد مع عصيانهم. وذلك غاية الكرم ، ليشكروا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ... فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ نعمة التوبة والمغفرة، فلم يهلككم مع استحقاقكم به. فأراهم النعمة والنقمة ليعرفوهما، ويفزعوا إلى التوبة قبل الفوت.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً... ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. طغيانهم فعاملهم بالنقمة ، وأحياهم فأراهم آية حسب طلبهم. وجمع لهم النقمة والنعمة ليشكروا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ نعمة الحياة.

مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٥٧) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ(٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(٥٩) وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ(نعمة الراحة) وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (نعمة الرزق)﴾. أراهم ثلاث آيات ـ (أي الغمام، والمن، والسلوى) ـ تدل على كون الرب معهم برأفته، ورزقه. وأعطى هذه النعم بعد ما ذاقوا التكاليف، ليعرفوا قدر النعم بعد أن تذمروا وكذبوا بآيات الرب وظلموها.

﴿ظَلَمُونَا﴾: ضرّونا.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً(نعمة الرغد والزيادة)... فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً(نقمة)...﴾ إعطاء الرب إياهم مسكنا، ووعد بالمزيد لمحض إقرار العبودية، ففسقوا، فأراهم النقمة وأظهر لهم آية أخرى. ثم عفا عنهم، كما جاء في صحفهم.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ...﴾ أغاثهم وأظهر آية، وبين أن رزق الله واسع، فلا حاجة إلى الجدال والفساد.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ﴾ قلة الصبر وسقوط الهمة. فاستحقوا ما طلبوا، فضربت عليهم الذلة.وذلك بعد تكرار كفرهم بآيات الله، واجترائهم وسخطهم بالمصلحين المنذرين الآمرين بالقسط.

اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّاسَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُواْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ذَالِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَالِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ(٦١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِيْنَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢).

﴿اهْبِطُوْا مِصْراً﴾ كان قد اشتد خوفهم من الإقامة في مصر، فلا يكادون يدخلون أرضا ممصرة. ويدل على ذلك إباؤهم عن دخول الأرض المقدسة جبناً وتقبيحهم إياه.

﴿يَكْفُرُوْنَ...﴾ الآية. الكفر بالآيات بتكذيب الأنبياء، وانتهاؤه قتلهم. وبناء ذلك أمران: تفريط، وإفراط. أما التفريط، فعدم امتثالهم بما أمروا. وأما إفراطهم، فعملهم خلافا لما أمروا به. فكذبوا الأنبياء من جهة العصيان، وقتلوهم من جهة العدوان.

وكذلك الذلة والمسكنة أهون من غضب الله . فضربت عليهم الذلة والمسكنة لعصيانهم وتكذيبهم، وباءوا بغضب من الله لقتلهم الأنبياء واعتدائهم. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَّفْعَلُ ذلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْىٌ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّوْنَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾. (سورة البقرة: ٨٥).

﴿آمَنَ بِاللهِ﴾ بما عرف نعمه، ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ فخاف نقمه. فعاد إلى ما بدأ به من الأصلين. ثم ذكر نتيجتهما: وهي إصلاح العمل. ونتيجة كل ذلك: الأجر من الرب. وتمامه وكماله: إعدام الخوف (أولا) والحزن (ثانيا). الأول من الإيمان بالله، فإنه الرحمن. والثاني من كون يوم الآخر منهلا لما جرى عليهم في الدنيا.

* * * * * * * * *

٥٣- تفسير الكلم التي في هذه الجملة

﴿لاَ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ﴾ أي لا تقضي عنها ما كان عليها أن تقضيه. قال تعالى: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَمَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْأً﴾(١). وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(٢).

قال الجوهري: "جزى عني هذا الأمر: أي قضى. ومنه قوله تعالى: ﴿لاَ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْأً﴾. ويقال: جزت عنك شاة. وفي حديث أبي بردة بن نيار: "تَجْزِى عنك ولا تَجْزِي عن أحد بعدك" أى تقضى. وبنو تميم يقولون: أجزأت عنك شاة بالهمز. وتجازيتَ دَيني على فلان، إذا تقاضيته. والمتجازي: المتقاضى"(٣).

﴿شفاعة﴾...(٤).

﴿عدل﴾

- العدل: الإنصاف. قال تعالى: ﴿أَنْ تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾(٥). وأيضا: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾(٦)، وهذا كثير.

- وَالعَدْل: المساوي. قال تعالى: ﴿أَوْعَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾(٧).

- والعدل: الفدية، لما أنها عدت مساوية للمفدى عنه.

---

(١) سورة لقمان: ٣٣

(٢) سورة الأنعام: ١٦٤، سورة الإسراء: ١٥، سورة فاطر: ١٨، سورة الزمر: ٧

(٣) الصحاح (جزى)

(٤) بياض فى الأصل

(٥) سورة النساء: ٥٨

(٦) سورة النحل: ٩٠

(٧) سورة المائدة: ٩٥

﴿آل فرعون﴾ أي قوم فرعون، أو أتباعه. قال النابغة:

مِنْ آل مَيَّةَ رَائِحٌ أَوْ مُغْتَــدِ   عَجْلانَ ذا زَادٍ وَغيرَ مُزَوَّدِ(١)

وقال أيضا:

وَقفت فيها سَراةَ القوم أسألها   عن آل نُعْمٍ أَمُونًا عبرَ أسفار(٢)

وهذا كثير في كلام العرب. وأما الآل بمعنى الأولاد خاصة، فمعنى مولد. غير أن الأولاد والعيال داخلة في الآل، وربما يراد به الأولاد حسب القرينة(٣).

﴿يَسُوْمُوْنَكُمْ﴾ أي يحملونكم. يقال: سامه ظلما وسامه خسفا. قال عمروبن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفا   أبينا أن نقر الخسف فينا(٤)

﴿بَلاَءٌ﴾ أي اختبار، من بلاه يبلوه: اختبره وجربه. قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّآتِ﴾(٥). وكذلك ابتلاه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾(٦). وإذ يختبر أوصاف المرء بالخير كما يختبر بالشر، صار البلاء عاما لهما.

﴿مُوسَى﴾ في سفر الخروج (٢: ١٠): "ولما كبر الولد جاءت به (أي أم موسى) إلى ابنة فرعون فصار لها ابنا. ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشلته من

---

(١) ديوانه: ٨٩

(٢) ديوانه: ٢٠٢ وجمهرة أشعار العرب: ٣٠٥

رواية الديوان: سراة اليوم

(٣) انظر أيضاً كلمة "آل" فى مفردات القرآن للمؤلف.

(٤) انظر شروح المعلقات.

(٥) سورة الأعراف: ١٦٨

(٦) سورة البقرة: ٢٤٩

الماء". فأشار إلى وجه التسمية.

وفي الكلدانية: "مو": هو الماء. وأما سى...؟(١)

﴿فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي فرقنا ماء البحر بعضه عن بعض، ولم يغشكم فيتصل فوقكم. قال زهير بن أبي سلمى:

رَعَوا ظمْأَهُم حَتَّى إذا تمَّ أَوْرَدُوا   غِمَارًا تَفَرَّى بِالسّلاحِ وَبِالدَّمِ(٢)

و "تَفَرَّى" أصله: تَتَفَرَّى، وهو بمعنى تتفرق.

﴿الفُرقَان﴾ مصدر استعمل اسما مثل القرآن. والتوراة والقرآن كلاهما سمى بالفرقان ـ

١ـ لاشتمالهما على تفاصيل الأحكام

٢ـ ولفرقه بين الحق والباطل، والحلال والحرام

٣ـ لكونهما واضحا بينا.

وسمي يوم بدر فرقانا لما ظهر فيه الحق.

﴿بَارِئِكُمْ﴾ "البرء" يشبه الخلق من برأ يبرؤه. ومنه: البرية، وترك همزها.

واعلم أن البرء ليس مرادف الخلق إلا على التجوز، فإن الخلق أصله: التقدير، كما مر. والبرء إصلاحه، والتصوير إتمامه. ولذلك قال تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾(٣)، كما قال: ﴿الَّذِى خلَقَ فَسوَّى﴾(٤).

وزعموا أن "البرا" بغير الهمز كلمة أخرى، ومعناها التراب. قال الجوهري:

"البرا: التراب. قال الراجز:

---

(١) بياض فى الأصل

(٢) انظر شروح المعلقات.

(٣) سورة الحشر: ٢٣

(٤) سورة الأعلى: ٢

بفيك من سارٍ إلى القومِ البرا".

والبريّة: الخلق، وأصله الهمز. والجمع: البَرَايا والبَرِيَّاتُ. قال الفراء: إن أخذت البَرِيَّةَ من "البرا" وهو التراب فأصلها غير الهمز، تقول منه: بَرَاهُ اللهُ يَبْرُوهُ بَرْوًا، أي خلقه"(١).

وهذا قول مضطرب، فإن "البرا" حينئذ يكون فعلا من التراب، وجعله بمعنى الخلق تكلف ظاهر مبنى على أن الخلق إنما يكون من التراب ـ وهذا كما ترى. ثم الفعل من التراب يكون بمعنى جعله ترابا لا خلقه من التراب. ثم لا دليل في قول الراجز على أن "البرا" هو التراب.

والأولى بالصواب أن المادة الواحدة اتخذت صورتين: "برأ" مهموزا، و "برى" ناقصا يائيا، فإنا نجد معناهما في غاية التشابه. تقول: بريت القلم وبريت السهم بريا: لنحتهما، والمبراة: الحديدة التي يبرى بها السهام. فهذا هوأشبه بمعنى الخلق. وهذه المادة موجودة في العبرانية. ففي أول التوراة: "بارا الوهيم هاشَّمَيِّم" أي خلق الله السماوات.

﴿جَهْرَةً﴾ علانية وعيانا، من جهر الركية: نقاها، وكذلك الصوت. وأصله: التحريك بالشدة، كالنفض للثوب. وأظنها من الألفاظ العتيقة، فإنها نجد في لغة غير السامية ما يشبهها لفظا ومعنى.

﴿الْمَنّ﴾ هذه كلمة مأخوذة من أهل الكتاب، وعرفتها العرب. قال أعشى ميمون:

لَوْ أُطْعِمُوا الْمَنَّ وَالسَّلْوَى مَكَانَهُمُ   مَا أَبْصَرَ النَّاسُ طُعمًا فِيهِمُ نَجَعَا(٢)

وأهل الكتاب لم يهتدوا لاشتقاقها. ففي سفر الخروج (١٦: ١٣ـ ١٥، ٢١): "فكان في المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة. وفي الصباح كان سقيط الندى حوالي

(١) الصحاح (برا)

(٢) ديوانه: ١٤٥ يصف بني تميم بالكفر لنعمة هوذة بن علي الحنفي.

المحلة. ١٤ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شئ دقيق مثل قشور دقيقٌ كالجليد على الأرض. ١٥فلما رأى بنو إسرائيل قال بعضهم لبعض من هو؟ لأنهم لم يعرفوا ما هو. فقال لهم موسى: هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا...٢١وكانوا يلتقطونه صباحاً فصباحاً كل واحد على حسب أكله. وإذا حميت الشمس كان يذوب".

وهذا الاشتقاق كما ترى. والأشبه أنه سمي "منًّا"، لما كان من ربهم. ويؤيده ما جاء فى هذا الإصحاح ف ٤١: "ودعا بيت إسرائيل اسمه منًّا، وهو كَبْزَرِ الكُزْبرة، وطعمه كرُقاق العسل".

ويؤيده ما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الكَمأةُ مِنَ المَنّ"(١) أي كلمة "المنّ" يشتمل كل ما مَنَّ الله به مما تخرجه الأرض القفر للناس.

ويؤيده تسمية الطير التي أتتهم "السلوى". ولسان العبرانية أقرب من العربية. والروايات التي عندنا مأخوذة مما قدمنا من سفر الخروج. فعن مجاهد: "المنّ صمغة"(٢) وعن السدى: "المنّ كان يسقط على شجر الزنجبيل"(٣) وعن وهب: خبز الرُقاق مثل الذُرة ومثل النقى"(٤).

وهذا لما سبق من قول موسى عليه السلام: "هو الخبز الذي أعطاكم". وقد كثر في الصحف إطلاق الخبز على الطعام، ولعله أيضا مأخوذ من قول أهل الكتاب مما فسروا به المنّ. ففى سفرالعدد (١١: ٧ـ ٨) "وأما المن فكان كبزر الكزبرة، ومنظره

(١) رواه ابن ماجه فى كتاب الطب، باب الكمأة والعجوة. رقم الحديث: ٣٤٥٣ ورواه أيضا أحمد والشيخان والترمذي.

(٢) الطبري٢: ٩١ رقم ٩٦٦

(٣) الطبري٢: ٩٣. رقم ٩٧٣. في الأصل: "الترنجبين" وكذا في الطبعة القديمة للطبري. وتصحيحه من طبعة شاكر، وابن كثير ا: ٩١. وانظر لسان العرب (منن)

(٤) الطبري٢: ٩٢، ٩٩- ١٠٠ رقم ٩٧٢، ٩٩٥

كمنظر المقل. ٨كان الشعب يطوفون ليلتقطوه، ثم يطحنونه بالرحى، أو يدقونه في الهاون، ويطبخونه في القدور، ويعملونه مَلاّتٍ. وكان طعمه كطعم قطائف بزيت."

والظاهر أن هذا التفسير مما أدخله المتأخرون منهم إذ لم يفهموا معنى الخبز.

وعن قتادة: "كان المن ينزل عليهم مثل الثلج"(١) وهذا لما سبق:" دقيق كالجليد على الأرض". وعن ابن زيد: "المن عسل كان ينزل لهم من السماء"(٢). فهذه الأقوال كلها مأخوذة من أهل الكتاب.

﴿السَّلْوَى﴾ اسم طائر يشبه السُّمانَى. الواحد والجمع سواء. عن ابن عباس، وابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: "السلوى طير يشبه السُّمَانَى" (ابن جرير)(٣).

وهذا الاسم أيضا مأخوذ من أهل الكتاب وعرفته العرب، كما مر شاهده في تفسير المن. وهو اسم للطير التى أرسلها الله لبنى إسرائيل في البرية حين تذمروا. ففي سفر الخروج (١٦: ١- ٣ و ١١- ١٣):

"ثم ارتحلوا من ايليم وأتى كل جماعة بني إسرائيل إلى برية سين التي بين أيليم وسيناء في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني بعد خروجهم من أرض مصر. ٢فتذمر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون في البرية. ٣وقال لهما بنو إسرئيل ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع. فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع......

١١فكلم الرب موسى قائلا. ١٢سمعتُ تذمر بني إسرائيل. كلمهم قائلا في العشية تأكلون لحما وفي الصباح تشبعون خبزا. وتعلمون إني أنا الرب إلهكم. ١٣فكان في

---

(١) الطبري٢: ٩٢ رقم ٩٦٨

(٢) الطبري٢: ٩٢ رقم ٩٧٠

(٣) الطبري٢: ٩٦ رقم ٩٧٩

المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة".

﴿الْقَرْيَةَ﴾ لعلها من قريت الماء في الحوض: أي جمعت. والبعير يَقْرِي العَلَف في شدقه: يجمعه. والقرية لا تختص بالصغيرة، وقد كثر في القرآن إطلاق القرى على المدن الكبار.

﴿سُجَّدًا﴾ أي خافضين رؤسكم. وأما وضع الجبهة على الأرض، فهو تمام السجود، وهو المراد في الأكثر. قال عمرو بن كلثوم:

إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ   تخرُّ له الجَبَابِرُ سَاجدينَا(١)

﴿بَدَّلَ﴾ بَدَّلَ الشيءَ شَيْئا:

١- أي جعل الثاني عوضا للأول، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾(٢) أى جعلوا الكفر بدلا لنعمة الله. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّآتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾(٣).

٢- وأيضا: غَيَّرَهُ، كما حكى الله تعالى عن قول المنكرين: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾(٤).

٣- وأيضا: أتى بشيء آخر في مكانه، كما قال تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(٥). وربما يبين هذا المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾(٦). وأيضا: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾(٧). وربما يحذف المبدل

---

(١) انظر شروح المعلقات.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٨

(٣) سورة الفرقان: ٧٠

(٤) سورة يونس: ١٥

(٥) سورة النور: ٥٥

(٦) سورة سبإ: ١٦

(٧) سورة الأعراف: ٩٥

منه، كما قال تعالى: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾(١): أي بجلودهم جلودا غيرها.

﴿رِجْزًا﴾ لغة في الرجس. وأصل المعنى: الاضطراب، والحركة العنيفة، والارتعاش. ولذلك يطلقان على القذر لما تشمئز منه النفس وتضطرب، وعلى العذاب لإزعاجه الناس.

وقال الجوهري: "الرَّجْسُ، بالفتح: الصوت الشديد من الرعد ومن هدير البعير. وَرَجَسَتِ السماء تَرْجُسُ إذا رعدت وتمخضت. وارتَجَسَتْ مثله. وسحابٌ رجاس وبَعيرٌ رَجَّاس. قال ابن الأعرابي: يقال هذا راجسٌ حَسَنٌ، أي راعد حسن. ويقال: هم في مَرْجُوسَةٍ من أمرهم، أي في اختلاط. والمِرْجاس: حجر يشدُّ في طرف الحبل ثم يُدْلَى في البئر فَيَمْخَضُ الحَمْأَةَ حتى تثور، ثم يُسْتَقَى ذلك الماء فتَنْقَى البئر"(٢).

قال تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾(٣). أي قذره، وأذاه. وأيضا: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٤). وأيضا: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾(٥). وهكذا جاء الرجز والرجس للعذاب. ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾(٦)، وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ. وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ

---

(١) سورة النساء: ٥٦

(٢) الصحاح (رجس)

(٣) سورة الأنفال: ١١

(٤) سورة الأحزاب: ٣٣

(٥) سورة المائدة: ٩٠

(٦) سورة الأعراف: ٧١

بَنِي إِسْرَآئِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾(١).

﴿بَقْلِهَا﴾ البقل: كل ما تخرجه الأرض من ناعم النبات. أبقلت الأرض: أنبتت.(٢)

﴿قِثَّائِهَا﴾ القثاء فِعّال، وهو الخيار.

﴿فُومِهَا﴾ الفوم: هو الثُّوم. والعرب تبدل الثاء بالفاء وبالعكس، فيقولون: "وقعوا في عَاثُور شَرّ" وعافور شر" ويقولون: "للأثافي، أثاثِيّ". وهكذا فسره عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.(٣) وهكذا جاء في التوراة، كما سنذكره في عنوان التأويل. وهذا ظاهر جدا. فلا ثقة بما روى من أقوال كثيرة فيه من الخبز، والحنطة، والسنبلة، والحب الذى يختبز الناس منه.

سفر العدد (١١: ٤- ٦): "واللفيف الذي في وسطهم اشتهى شهوة. فعاد بنو إسرائيل أيضا وبكوا وقالوا من يطعمنا لحما. ٥ قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجانًا والقثّاء والبطيخ والكرّات والبصل والثوم. ٦ والآن قد يبست أنفسنا. ليس شئ غير أن أعيننا إلى هذا المن".

ثم فيه: "١٨ وللشعب تقول تقدسوا للغد فتأكلوا لحماً. لأنكم قد بكيتم في اذني الرب قائلين من يطعمنا لحماً. إنه كان لنا خير في مصر. فيعطيكم الرب لحما فتأكلون. ١٩ تأكلون لا يوما واحداً ولا يومين ولا خمسة أيامٍ ولا عشرة أيام ولا عشرين يوما. ٢٠ بل شهرًا من الزمان حتى يخرج من مناخركم...".

وفيه: "٣١ فخرجت ريح من قِبَل الرب وساقت سلوى من البحر وألقتها على المحلة نحو مسيرة يوم من هنا ومسيرة يوم من هناك حوالي المحلة ونحو ذراعين فوق وجه الأرض".

وفيه: "٣٣ وإذ كان اللحم بعد بين اسنانهم قبل أن ينقطع حمى غضب الرب على الشعب وضرب الرب الشعب ضربة عظيمة جدا".

---

(١) سورة الأعراف: ١٣٣- ١٣٥

(٢) انظر الطبري ٢: ١٣٠

(٣) انظر الطبري٢: ١٣٠

﴿أَدْنَى﴾ من الدناءة، وترك الهمز تخفيفا، أي ما هو أردء وأخس. وليس من "الدنو" بمعنى القرب.

﴿اهْبِطُواْ﴾ هبط: سقط. ويطلق على النزول في موضع إقامة، يقال: هبطنا الوادي: أي دخلنا فيه. وكانوا يسكنون في أرض سهل يجري فيه الأنهار، وإذا حفروا بئراً كان الماء قريبا. ومن ههنا قالوا: هبطنا مصرا، فصار الهبوط مرادفا للنزول. ولعل ذلك لأن المسافر عند الإقامة ينزل عن مركبه.

وأيضا لما كانت هذه الأشياء من نبات أرض دميث مطمئنة، حسن ههنا موقع "اهبطوا".

﴿مِصْرًا﴾ المصر: المدينة. وأما "مصر" من غير انصراف مع جوازه، فملك مصر فرعون. وبهذا المعنى لم يجئ في القرآن إلا غير منصرف: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾(١). أيضا: ﴿وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ﴾(٢). أيضا: ﴿أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾(٣). أيضا: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ﴾(٤). ولم يجئ منصرفا إلا في هذه الآية، فالظاهر أنه بمعنى المدينة. ومصر فرعون سمى "مصر"، لكونها مسكن مصرايم. في التكوين (١٠: ٦): "وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان".

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ أي ألصقت بهم، من ضرب الطين اللازب على الجدار. قال نابغة ذبيان:

ولا يَحْسِبُونَ الخيرَ لا شرَّ بعده ولا يَحْسِبُونَ الشرَّ ضربةَ لازبِ(٥)

(١) سورة الزخرف: ٥١

(٢) سورة يوسف: ٩٩

(٣) سورة يونس: ٨٧

(٤) سورة يوسف: ٢١

(٥) ديوانه: ٤٨

﴿الذِّلَّةُ﴾ ضده: العزة، وهي المنعة. أي يقهرهم أعداؤهم. قال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾(١). أي خاضعة موطوءة. يقال: دابة ذلول، أي غير صعبة. قال تعالى: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾(٢). أي طائعات.

﴿الْمَسْكَنَةُ﴾ مفعلة من السكون. وتستعمل للعجز وسقوط الهمة وبؤس العيش. ومنها: المسكين، أي الذي سد عنه طرق الكسب. ودل على هذا المعنى ما جاء في الحديث: "ليس المسكين الذى تَرُدُّه اللقمةُ واللقمتان، وإنما المسكين الذي لا يسأل ولا يُفْطَنُ له فَيُعْطَى"(٣). فالمسكنة: شدة العجز، وسوء العيش.

﴿هادوا﴾ هَادَ يَهُود هُوْدًا: تاب ورجع. قال تعالى حكاية عن دعاء موسى عليه السلام: ﴿وَالكتاب لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾(٤). وأيضا هاد: صار يهوديا. قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾(٥). وهكذا تهود - وذلك على طريق العربية، كما يقال: تنصر، من النصرانية.

وزعم الطاعنون في القرآن أن هذه الكلمة خطأ، فإن اسم اليهود ليس مأخوذا من مادة "هود"، بل هو للنسبة إلى يهوذا. فنبين اشتقاق هذا الاسم لتعلم أن طعنهم من سوء فهمهم القرآن، وصحفهم. أما القرآن فاستعماله هذه الكلمة ليس إيجاد لفظ من قِبَله بل هو حسب لسان العرب. فإنهم جعلوا فعل "هاد يهود" لمن كان يهوديا. وقوله: ﴿هُدْنَا﴾ ليس لبيان اشتقاق اسم اليهود، بل جاء في معناه الأصلي.

(١) سورة الملك: ١٥

(٢) سورة النحل: ٦٩

(٣) لسان العرب (سكن). وانظر الحديث بتمامه في البخاري (رقم: ١٤٧٩) ومسلم (رقم: ١٠٣٩) ببعض الاختلاف في اللفظ في كتاب الزكاة.

(٤) سورة الأعراف: ١٥٦

(٥) سورة البقرة: ١٣٥

ومع ذلك أشار إلى أصل ذهلت اليهود عنه، كما سيأتيكَ ذكره. وأما سوء فهمهم بصحفهم، فستطلع عليه مما نذكره:

فاعلم أن "يهوذا" كان ابنا رابعا ليعقوب عليه السلام من الاثنى عشر ابنا الذين خرج منهم الأسباط الاثنا عشر. وأعطى كلهم نصيبا من الأرض في عهد يشوع، فوقع في نصيب بني يهوذا من أرشليم إلى أقصى الجنوب. وكان داؤد عليه السلام من هذا السبط. وانحازت مملكة بني إسرائيل كلها إليه، فعظم أمر سبط يهوذا. ثم ورث الملك بعده ابنه سليمان عليه السلام، وبنى الهيكل في دار ملكه، فزاد ذلك عظمة أخرى لسبط يهوذا وملكهم. ثم بعد ذلك وقع بينهم اختلاف، فصارت هذه الأمة فرقتين: يهوذا على جانب، وبقية بني إسرائيل على آخر. وخمل ذكر باقي الأسباط، فكثر في صحف اليهود ذكر يهوذا،وإسرائيل. ثم بعد ما سباهم الكلدانيون صار "اليهود" اسما عاما لبني إسرائيل. وذلك يدل على عدم فرقهم بين "يهوذا" بالذال المعجمة، و"يهود" بالدال المهملة.

وقد التبس اشتقاق هذا الاسم على اليهود، فإنهم ظنوا أنه من "يهو": أي الرب تعالى، و"ذا": أى هذا. وسبب هذا الظن أنهم وجدوا أسماء مركبة من "يهو" وكلمة أخرى موصولة به، مثل "يهوياقيم". و لم يفهموا العبارة التي وجدوها في سفر التكوين في سبب التسمية، وهى (٢٩: ٣٥):

"وحبلت أيضا (أي ليئة ـ زوجة يعقوب عليه السلام) و ولدت ابنا وقالت هذه المرة أحمد الرب. لذلك دعت اسمه يهوذا".

فظنوا أن "يهوذا" يشير إلى "هذه المرة" و"يهو". وهذا خطأ، فإن الإسم يشير إلى "أحمد الرب". والعبارة محتملة لهذا التأويل أيضا. والدليل على صحته أمور:

الأول ـ أن الإشارة إلى معاني أسماء أبناء يعقوب عليه السلام، كما جاءت في ذكر ولادتهم، فهكذا جاءت في دعاء يعقوب عليه السلام حين باركهم. مثلا

جاء عند ذكر الولادة في سفر التكوين (٣٠: ١٩- ٢٠):

"وحبلت أيضا ليئة وولدت ابنا سادسا ليعقوب. ٢٠ فقالت ليئة قد وهبني الله هبة حسنة. الآن يساكنني رجلي لأني ولدت له ستة بنين فدعت اسمه زبولون."

وجاء في هذا السفر عند ذكر البركة (٤٩: ١٣): "زبولون عند ساحل البحر يسكن". فأشار في كلا الموضعين إلى معنى السكونة. فهكذا جاء في دعائه ليهوذا في هذا السفر (٤٩: ٨): "يهوذا إياك يحمد إخوتك. يدك على قفا أعدائك. يسجد لك بنو أبيك".

فتبين أن وجه التسمية هو الحمد والطاعة، وأن اسم "يهوذا" ليس مركبا من "يهو" و"ذا"، بل هو كلمة واحدة من مادة "هود".

والثاني ـ أن بعد السبى نجد اسم اليهود يطلق عليهم واسم اليهودي على لسانهم، كما جاء في سفرعزرا، ونحميا، واستير، واشعيا، وارميا، ودانيال، والانجيل حتى اشتهر هذا الاسم. فلو كان الأصل "يهوذا" لسموا باليهوذي بالذال المعجمة.

والثالث ـ أن الأسماء المركبة من "يهو" لابد أن تتضمن كلمة أخرى تدل على وصف يليق وصله بـ"يهو". وكلمة "ذا" ليست مما يليق بأن يضم بـ"يهو" في تسمية مخلوق، فإن المعنى يكون: هذا الله. وشناعة هذه التسمية ظاهرة.

والقرآن ربما ينبه على خطئهم، كما هو مبسوط في موضعه. فنبه على أن اسم "يهوذا" الذي انتسبوا إليه أصله من مادة "هود". ومن حسن إشارة القرآن أنه نبه اليهود على معنى اسمهم، ليعلموا أنهم يلزمهم أن يتوبوا إلى ربهم. وما أحسن موقع هذه الكلمة ههنا، فإنه في ذكر الصلحاء منهم. فلم يذكرهم باسم اليهود، لما اشتهروا بالعصيان ونقض العهود من حيث قومهم، بل ذكرهم بوصف الهود.

﴿النَّصَارَى﴾ جمع نَصْران، مثل نَدَامَى جمع ندمان. وهذا الاسم كان لهم في الأول، وقدماؤهم لم ينكروه، ولكن المتأخرين منهم ظنوه شتما وأنكروا هذا الاسم

عنادًا بأوائلهم.

وبيان ذلك أن أتباع المسيح عليه السلام صاروا فرقتين: فرقة اتبعوا الخليفة بالحق شمعون[١] وتسموا باسم النصارى، وكلهم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهم الذين مدحهم القرآن حيث قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى﴾[٢]. فصرح بأن المراد هم الذين تسموا بهذا الاسم. وفرقة اتبعوا بولوس المبتدع، وهم الباقون الآن. وهؤلاء قد زعموا أن النصارى كلمة التحقير، لأنها نسبة إلى "ناصرة" وهي قرية حقيرة عندهم، كما جاء في يوحنا (١: ٤٥ـ ٤٦): "فيلبس وجد نثنائيل وقال له وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة. ٤٦ فقال له نثنائيل أ من الناصرة يمكن أن يكون شيءٌ صالح". وهذا من تكبر هذه الفرقة، فإن "الناصرة" إن كانت مولد عيسى عليه السلام فأي حقارة في النسبة إليها؟ وقد زعموا أن "الناصرة" كانت مولده، كما جاء في أناجيلهم بل إنه يدعى "ناصريا" كما جاء في متى (٢: ٢٣): "وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة. لكي يتم ما قيل بالأنبياء أنه سيُدعى ناصريا".

وزعم الطاعنون أن القرآن لم يعرف هذه التسمية وجعلها من النصرة، لما جاء فيه: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾[٣]. وهذا الظن منشوه الجهل بمعنى الآية، فإنها إنما ذكرت أمرا حقا و لم تذكر وجه التسمية.نعم فيها إشارة إلى أن المسمين بالنصارى يجب عليهم نصر الحق، لما في اسمهم تذكار لذلك. وأمثال هذه الإشارات توجد في كلام الأنبياء. قال عيسى عليه السلام لشمعون ـ وكان يدعى "صفا"ـ متى (١٦: ١٨): "وأنا أقول لك أيضا

(١) وهو الملقب "بطرس"

(٢) سورة المائدة: ٨٢

(٣) سورة الصف: ١٤

أنت صفا وعلى هذا الصفا أبني كنيستي".

﴿الصَّابِئِينَ﴾ ذكر ابن جرير رحمه الله فيه أقوالا. فعن مجاهد والحسن أنهم قوم لا دين لهم، وهم بين المجوس واليهود، ولا تؤكل ذبيحتهم[١]. وعن ابن زيد أنهم على دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل، يقولون لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي[٢]. وعن قتادة أنهم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرؤن الزبور[٣]. وعن أبي العالية وسفيان أنهم قوم من أهل الكتاب[٤].

أقول لا مناقضة بين هذه الأقوال، فإنهم أولا كانوا على دين الحق ثم نسوه، فعبدوا الملائكة وعظموا النجوم؛ كما أن أولاد إسمعيل عليه السلام كانوا على ملة إبراهيم، ثم وقعوا في الشرك. وهذه الآية تدل على ذلك كما هو ظاهر. وكانوا مولعين بالصلاة، ولذلك كان المشركون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم ولأصحابه هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم[٥].

وأما وجه التسمية، فلعله من صبأ على القوم: طلع عليهم. وَصَبَأ ناب البعير: طلع حده. وَأَصبأ النجم: أي طلع الثريا[٦]. وكان الصابئون أصحاب الرصد والنظر في النجوم، فسموا بذلك. والله اعلم.

٥٤ ـ بيان تأليف الكلم

(١) قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ عطف على ﴿نعمتي﴾ اعتناء بذكر

(١) انظر الطبري ٢: ١٤٦ رقم ١١٠٠- ١١٠٦

(٢) المرجع السابق٢: ١٤٧ رقم ١١٠٧

(٣) المرجع السابق٢: ١٤٧ رقم ١١٠٩

(٤) المرجع السابق٢: ١٤٧ رقم ١١١٠و ١١١١

(٥) انظر تفسير ابن كثير١: ١٠٠

(٦) انظر الصحاح، واللسان (صبأ)

الخاص بعد العام، كما في قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾(١).

(٢) وقوله تعالى: ﴿يَومًا لاَّتَجْزِى﴾ حذف الظرف لظهوره، أي لا تجزى فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾(٢).

(٣) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾ أي واذكروا إذ نجينكم. والعطف للتفصيل بعد الإجمال.

(٤) قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ حال عن المفعول في ﴿نجيناكم﴾.

(٥) قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بيان سوء العذاب بذكر أكبره. فإنهم كانوا يعذبونهم بأنواع المحن.

(٦) قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ الواو للاستيناف. و "ذلكم" أي ما ذكر من النجاة والعذاب.

(٧) قوله تعالى: ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ الواو للبيان.

(٨) قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ﴾ فيه حذف، أي قلنا لهم.

(٩) قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ حطة قائمة مقام جملة ـ حسبما نذكره في التأويل ـ فارتفعت، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُون طَاعَةٌ﴾(٣).

(١٠) قوله تعالى: ﴿قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾. بحذف المبدل منه، كما مر في عنوان الكلم. أي لم يقولوا حطة بل بدلوها قولا غيرها.

٥٥ ـ نظرة من جهة البلاغة

اعلم أن هذه الجملة مشتملة من أساليب البيان على: ١ـ التأسيس والتفريع ٢ـ ثم الرجوع إلى الأساس. ٣ـ واللف والنشر. ٤ـ والتفصيل. ٥ـ والإيجاز. ٦ـ وحسن اختيار

(١) سورة البقرة: ٩٨

(٢) سورة لقمان: ٣٣

(٣) سورة النساء: ٨١

النسبة. ٧ـ والعدد. ٨ـ والتقابل.

١ـ واعلم أنه تعالى ذكر الأصل ثم فصل الفروع. وبيان ذلك أنه أمرهم أولا بذكر النعمة وباتقاء لزوم الجزاء، فكأنه قيل لهم: اشكروني واتقوني. وهذان أصلان لتعليمهم، كما سنذكره في عنوان التأويل. ثم فصل النعم المتتابعة والنقم اللازمة وتوبة الرب عليهم مرة بعد مرة. وذلك ليعرفهم أن الرب منعم تواب فيشكروه؛ وأنهم غلوا في المعصية وعدم الشكر، وقد أصابهم تبعات الظلم والفسق، ليتقوه.

٢ـ واعلم أنه تعالى كما بدأ بذكر الأصل فكذلك ختم به. وذلك ليعلموا أن المطلوب هو الإيمان والعمل الصالح، وبعبارة أخرى الشكر والتقوى لا محض التسمية بدين خاص، والجمود على الظاهر؛ وأن الله تعالى لا يعبأ بظواهر الدين. هذا غير ما تظهر لك من وجوه البلاغة في الفصول الآتية لا سيما النظم.

٣ـ واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّتَجْزِى﴾ إلى قوله: ﴿يُنصَرُونَ﴾(١). جاء على أسلوب اللف والنشر، كما نذكره في عنوان النظم.

٤ ـ وهذه الأمور التي ذكرها الله تعالى مبسوطة في سفر الخروج وسفر العدد ببسط وتفصيل مع أمور أخر. فلم يذكر لهم إلا ما عرفوه واعترفوا به.

٥ـ ولا يخفى أن المراد بإيراد القصص ليس إلا النصح. فدل بغاية الإيجاز على أحوال اليهود من كفرهم بنعم الله مرة بعد مرة حتى يتبين أنهم لم يكونوا من أول أمرهم جديرون بحمل الشريعة الكاملة، وأن الله تعالى لم يبخل عليهم بل هم أنفسهم تقهقروا.

٦ـ واعلم أنه تعالى كل ما ذكر من النعم نسبها إلى ذاته، وكل ما ذكر من النقم لم ينسب منها إلى ذاته إلا واحدة. وهي التي ذكرها في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾(٢). وجعل هذه الواحدة بين ذكر ظلمهم

(١) الآية: ٤٨

(٢) الآية: ٥٩

وفسقهم، وقيدها بالتخصيص. وذلك ليعلموا أن الإنعام هو المراد، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾(١). ولنفي الشرك في الملك بين مرة واحدة أن العذاب ليس إلا بإذنه، كما بين مع قوله الـذي أوردنا وقال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللهِ﴾(٢). فانظر كيف راعى في كل ما ذكر حسن نسب الأمور.

٧ـ واعلم أنه يرى في إيراد هـذه الأمور مراعاة مناسبة العدد. فإنا نرى حسب عدد الأسباط اثنى عشر أمرا. وذلك ـ

١. إنقاذهم من عذاب فرعون.

٢. إهلاك أعدائهم.

٣. عفوه عنهم بعد ظلمهم.

٤. إعطاؤهم الكتاب.

٥. التوبة بعد التمحيص.

٦. طغيانهم وصلابة رقابهم وتبعة ذلك، والتوبة

٧. نعمة التظليل بالغمام.

٨. إنعام المن.

٩. إنعام السلوى. وجمع هذه الثلاث، لكونها من باب رأفته، ولما ظهر عند كل ذلك ظلمهم وتذمرهم.

١٠. نعمة السكنى، وعدم شكرهم وفعلهم خلاف ما أمروا.

١١. توفير النعمة، لكيلا يحاربوا من الشح ويتوكلوا على الرب وفضله.

١٢. قلة صبرهم وغلبة البهيمية عليهم وتبعات ذلك.

٨ـ واعلم أنه جمع النعم بالنقم رعاية للشكر والتقوى، و جعلها متتابعة.

---

(١) سورة النساء: ٧٩

(٢) سورة النساء: ٧٨

فجاء الكلام كسلك الجمان المفصل.

في تـأويـل الجمـل

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يُنصَرُونَ﴾. أي اذكروا نعمتي المتوالية فاشكروني، واتقوا يوم الجزاء فلا تكفرون. فكأنه قيل: اشكروني واتقوني.

تذكـرة للتـأويل

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ الآية. أي ذلك يوم العدل والفزع الأكبر، فليس أحد يفدي أحدا بنفسه فإنهم كلهم في شغل، ولا يقبل ذلك أيضا لأنه يوم العدل، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ. وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾(١).

تذكـرة للنظـم

آية: (٤٧) النعم وإعطاء الفضيلة على العالمين من باب واحد. ولكن وضع العام قبل الخاص رعاية الزيادة.

آية: (٤٨) ذكر أربعة أمور وجعل الاثنين الأولين بإزاء الاثنين الآخرين على ترتيب اللف والنشر. فإن جزاء نفس عن نفس من نوع الفدية، والشفاعة من نوع النصر، كما مر بيانه في عنوان التأويل. وقدم الخاص على العام، وذلك في موقع النفي يدل على الزيادة، أي ليس له هذا ولا ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ (أي قريب وصديق يفديه بنفسه) وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾(٢) أي ولا من

---

(١) سورة غافر: ١٧- ١٨

(٢) سورة غافر: ١٨

الأجانب أحد يشفع له. فهكذا ههنا. ثم رجع، فكأنه قيل: وليس له أن يفدى بمال من عند نفسه فإنه في غاية الفقر، وأيضا ليس له من الأغيار من ينصره فإنهم أيضا مثله عاجزون عند الرب ويشفقون من خشيته. فقدم الخاص القريب في كلا الجزئين. كما قال تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُئْوِيهِ (فهذا ما عنده. وقدم في ذلك الأقرب فالأقرب والأكرم فالأكرم، لاقتضاء الموقع كما هو ظاهر) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾(١). وهكذا في قوله تعالى: ﴿يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾(٢). أي لا مال عنده فيفتدى به، ولا خليل فيفديه بنفسه، ولا مولى فيشفع له. فذكر الأقرب فالأقرب.

واعلم أن القرآن يصرف في نظمه ليحثنا على التأمل، فنعلم وجوها مختلفة من مناسبات الأمور. فذكر هذه الأمور الأربع في موضع آخر على ترتيب متسق من غير اللف والنشر، وذلك قوله تعالى في هذه السورة ــ آية ١٢٣: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾. فجمع قسمي الفدية، وقسمي النصر.

* * * * * * * *

---

(١) سورة المعارج: ١١- ١٤

(٢) سورة البقرة: ٢٥٤

ترتيب مضامين هذه السورة يطابق بقوله تعالي: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(١)فأتى أولاً بالآيات والدلائل. ثم ألقى عليهم الكتاب أي الأحكام. ثم علمهم طريق الحكمة، وزكاهم بالحث على الزكاة. فنزولها يطابق بما دعا به إبراهيم عليه السلام . فهذه السورة أتم ظهوراً لإجابة دعائه.

واعلم أن تلاوة الآيات ابتداء الأمر، وروحها الذكر. و انتهاء الأمر التزكية، وروحها كمال التعبدلله، وهو الرضا به والانخلاع عن هوى النفس. والذكر يفضى إلى إصلاح العمل وطهارة الصفات والأحوال، وهي الحكمة.

فتلاوة الآيات تمهيد وخطوة أولى للتزكية. والعمل بالأحكام خطوة ثانية لها. والحكمة هي الخطوة الثالثة، وهي روح الأحكام . وبعد ذلك تمام التزكية فضلا من الله تعالى . وهذا قريب من العقل، ولكن دلنى عليه القرآن لما وصل التزكية بالآيات، حيث جاء: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

فتلاوة الآيات مستمرة، وكذلك التزكية حتى تتما معاً، وبذلك يتم الدين والنعمة. فبما قدم التزكية على الكتاب والحكمة علمنا أنها الغاية، ويؤيده آيات أخر، كقوله تعالى :﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾(٣) وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ (أي إن لا يزكى فلا أقل من أن يبدؤها بالتذكر) فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾(٤) أى تأتيه التزكية بمايذكر.

---

(١) سورة البقرة : ١٢٩

(٢) سورة آل عمران : ١٦٤

(٣) سورة الشمس : ٩

(٤) سورة عبس : ٣-٤

المقدمة في بيان العهود الإلهية

لما كثر في هذه السورة ذكر الميثاق وناقضيه رأينا أن نذكر منه بقدر الحاجة.

اعلم أن الله تعالى لما كرم الإنسان بالحرية والاختيار فضلامنه لم يجعل عليه حكومة جبرية حتى حكومته، لكيلا يناقض فطرة الإنسان. فبناها على العهد والإقرار. ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون لم يصيروا أمراء إلا بعد البيعة وأخذ الميثاق. والعهد لا يتم إلا باحتمال المتعاقدين ما يكون كالعوض من جانبين، فتكون لهما وعليهما، كما قال تعالى:﴿أَوْفُواْ بِعَهْدِيْ أُوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[1].وتمام البحث عنه وإيضاح كنهه في كتاب ملكوت الله.وههنا إنما نذكر عهودنا.

فاعلم أن أصل عهودنا تحقيق العبودية الكاملة، وهي الإيمان بكونه ربنا لا شريك له. ويلزمه أن نسلم به أنفسنا. فتفرع منها عهدان: عهد التوحيد وعهد الطاعة، ومنهما الإذعان لما أرسل إلينا، ولذلك قال: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُوْلَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[2]. فإن الرسول هو المبلغ، ولهذا لانفرق بين أحد من رسله . والطاعة إنما لله تعالى، فهو الرب وحده، كما صرح به القرآن كثيراً وبدأ السورة(الآية :٤) وختمها به (٢٥٥-٢٨٥) . ونعبر عن العهدين إجمالاً بقولنا :" لا إله إلا الله ومحمد رسول الله" وإليهما الإشارة في قوله تعالى: ﴿ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ﴾ وإليه يلمع قوله عليه السلام، كما رواه البخاري في صحيحه ...[3]

وقد أخذ الله هذين العهدين أولاً على سبيل الإجمال في بدء خلقتنا، ثم

---

(١) سورة البقرة :٤٠

(٢) سورة النساء : ٨٠

(٣) لعله يقصد الحديث الذي أخرجه البخاري في كتاب العلم، وهو : "ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار" باب من خص بالعلم قوما دون قوم... رقم الحديث : ١٢٨

أخذهما ثانيا على أيدي رسله .

١- فأول ما أخذ من عهد التوحيد ما ذكر الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُوْرِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوْا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُوْلُوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـذَا غَافِلِيْنَ . أَوْ تَقُوْلُوْا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُوْنَ﴾(١) وما ذكر في سورة يس: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِيْ آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوْا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِيْنٌ . وَأَنِ اعْبُدُوْنِي هَـذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيْمٌ﴾(٢).وهـذا ينطوي على الطاعة إجمالاً، فإن التعبد لا يتم إلا بالإذعان لرسله. ولذلك أخبر عن الرسل في سورة الشعراء أنهم قالوا :﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيْعُوْنِ﴾(٣). أي لا بد للتقوى من عمل ينجي عن مغبة الظلم. والعمل المنجي يأتي من الرب تعالى على أيدي رسله .

٢- وأول ما أخذ من عهد الطاعة ما ذكر في سورة البقرة :﴿قُلْنَا اهْبِطُوْا مِنْهَا جَمِيْعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُوْنَ﴾(٤)، وما ذكر أوضح من هذا في سورة الأعراف بعد ذكر هبوط آدم عليه السلام:﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّوْنَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُوْنَ﴾(٥)، وما ذكر أوضح من هذا دالاً على أن الطاعة لله تعالى وحده. فليس لهم أن يتعصبوا لنبي خاصة بل يؤمنوا بكل من

---

(١) الآيتان : ١٧٢-١٧٣

(٢) الآيتان : ٦٠-٦١

(٣) الآيات: ١٠٨، ١١٠، ١٢٦، ١٣١، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٣، ١٧٩

(٤) الآية :٣٨

(٥) الآية : ٣٥

رسله. فقال في سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُوْلَ لِلنَّاسِ كُوْنُوْا عِبَاداً لِي مِنْ دُوْنِ اللهِ وَلَكِنْ كُوْنُوْا رَبَّانِيِّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُوْنَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُوْنَ. وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوْا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُم مُّسْلِمُوْنَ. وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيْثَاقَ النَّبِيِّيْنَ (أي ميثاقكم في أمر النبيين كما قال: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيْثَاقُ الْكِتَابِ﴾(١) أي الميثاق في أمر الكتاب) لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُوْلٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوْا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوْا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِيْنَ﴾(٢) فبين أن الإطاعة للأنبياء من الطاعة لله وتوحيده.

وإذ عاهد عامة بنى آدم بطاعة الرسل عاهد الرسل بالتبليغ، كما قال فى سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّيْنَ مِيْثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُوْحٍ وَإِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَى وَعِيْسَى بْنَ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيْثَاقاً غَلِيْظاً. لِيَسْئَلَ الصَّادِقِيْنَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِيْنَ عَذَاباً أَلِيْماً ﴾(٣) وأشار إلى هذين العهدين في سورة النور، حيث قال: ﴿قُلْ أَطِيْعُوْا اللهَ وَأَطِيْعُوْا الرَّسُوْلَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيْعُوْهُ تَهْتَدُوْا﴾(٤) فجعل طاعة الله في طاعة الرسول، وبين أن على النبي والأمة كليهما عهداً وأمانة حملوها.

وهذه العهود الثلاثة فروع لعهد قبل هذه كلها، وهو عهد جامع للتوحيد والطاعة، فإنهما يتحدان في كمالها. وعن هذا العهد الجامع عبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا

---

(١) سورة الأعراف : ١٦٩

(٢) الآيات: ٧٩-٨١

(٣) الآية : ٨

(٤) الآية : ٥٤

وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾(١) وهذه الأمانة هو كبح النفس وردها إلى طاعة ربها حتى يكون الإنسان حراً كاملاً مختاراً ما يرتضيه روحه الذي نفخ فيه قاهراً مركبه الجموح. فحينئذ تطمئن نفسه حتى يبصر ويسمع ويبطش بالله، وتحقق عبوديته فيدخل في عباد الله، كما قال تعالى:﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(٢) فلا يدخلون جنته قبل دخولهم في عباده باتباعهم، كما قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٣). وإلى هذا عهد العبودية أشار في قوله :﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾(٤) .وكشف هذا البحث في كتاب ملكوت الله.

فهذه هي العهود في بدء فطرتنا. ثم عاهدنا الله مرة أخرى على أيدي رسله عهوداً بالتوحيد، والطاعة لرسله، وشرائعه إجمالاً وتفصيلاً. وذكر هذا في التوراة والقرآن كثيراً لا سيما في هذه السورة في إثبات نبوة هذا النبي، كما يأتيك في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى.

الباب الأول في إثبات هذه البعثة وذكر براهينها

آيات (١-١٥٢)

(نظر إجمالي)

اعلم أن هذا الباب في إثبات النبوات عموماً وإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم خصوصاً، وهذا بخمسة وجوه:

١ـ الأول من نفس ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم . فإن من

---

(١) سورة الأحزاب : ٧٢

(٢) سورة الفجر: ٢٧-٣٠

(٣) سورة النور : ٥٦

(٤) سورة طه : ١١٥

سمعها بقلب سليم لايشك في كونه من الله تعالى .

٢ـ والثاني من جهة الربوبية . فإنها تثبت الهداية من جانب الله وتلزمنا الطاعة. فأثبت أولا النبوة والطاعة عموماً، فمهد تمهيداً للدعوى الخاصة. ثم أثبت كون محمد صلى الله عليه وسلم نبياً بشهادة القرآن المعجز، فألزم إطاعته .

٣ـ والثالث من جهة عهد الله بآدم وذريته، كما مر في الفصل السابق. فأثبت النبوات عموماً .

٤ـ والرابع من جهة عهده بموسى عليه السلام وأمته، كما ذكر في سفر التثنية (١٨:١٨) فأشار إليه حين بدأ الخطاب إلى بني إسرائيل، حيث قال: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾(١) أي بما وعدتكم به من النصر والبركة والرحمة، كما قال في سورة الأعراف :﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

٥ـ والخامس من جهة عهد الله بإبراهيم عليه السلام بأن يبعث في ذرية إسماعيل عليه السلام رسولاً لإقامة الدين. وختم هذا الباب بآية: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾(٣) فهذه هي آية الميثاق بنا. وهذا الخطاب

---

(١) سورة البقرة : ٤٠

(٢) الآيتان : ١٥٦-١٥٧

(٣) الآية : ١٥٢

مشابه لما خاطب به بني إسرائيل من قوله: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾(١).

و لم يذكر الله في هذه السورة من عهده بنوح عليه السلام، فإن عهده لم يكن له خصوص بهذه البعثة الأخيرة كعهدى إبراهيم وموسى عليهما السلام. وهذان العهدان يلزمان النصارى. فلم يذكر ما في الإنجيل من عهده بأن يؤمنوا بهذا النبي، فإن الإنجيل كله بشارة هذا النبي، ولا حاجة إلى إيضاح ماهو بين. إنما سدهم عن قبول الحق شركهم بالله، ولذلك معظم الخصام بالنصارى في مسألة التوحيد، فادخر المقالة لهم في السورة التالية.

وجلمة الكلام في (١-١٥١):

١- أنه تعالى أعطانا عهداً وكتاباً، فيه هدىً وفلاح. وجعله عاماًلجميع الناس حسب سنته، واقتضاء رحمته، وإنجاز وعده.

٢- وأن بني إسرائيل نقضوا عهده، فسلبوا هذا العهد.

٣- وأنه تعالى الآن أنجز ما وعد إبراهيم عليه السلام، كما جاء في التوراة من أنه يبارك جميع الأمم بنسل إسماعيل، وكما جاء في هذه السورة. فبعث الله نبياً، به يبارك الأمم كافة. وكذلك اجتبى أمة جديدة لاتباع هذا النبى أمة وسطاً شهداء لله على الناس أجمعين، وجعلهم أولياء أول بيته وورثة إبراهيم عليه السلام. فألزم الحجة على الناس عموماً، وعلى أهل الكتاب خصوصا.

فهذا خلاصة هذا الباب. وأما شرح جمله فنذكره الآن بغاية الإيجاز لكيلا يملوا، ولعلهم يتأملوا. والله تعالى هو الهادى.

القسط الأول في نظام السورة

(١) آية:(١) اسم الكتاب من الله تعالى.

آيات(٢-٢٠) إجمال القول في الإيمان بكتاب الله من جهة التقوى، وهي

(١) الآية : ٤٠

أصل الإيمان وحسن الأعمال. ووجه الكلام إلى النبي تسليةً له على عدم إيمان الكافرين مع ظهور الحق. وتعريض الكلام إلى أهل الكتاب ولاسيما اليهود، فإن عليهم حجة هذه السورة ومعظم النفاق فيهم.

فآيات: (٢-٥) في المؤمنين الذين ينتفعون بهذا الهدى.

و(٦-٧) في الكافرين الذين استحقوا الضلال لكفرهم .

و(٨-٢٠) في المنافقين. ذكرها تبعاً للكافرين على سبيل التفصيل، وذكر الخاص بعد العام.

(٢) آيات: (٢١-٢٩) خطاب بالناس جميعاً بأن يؤمنوا بالقرآن لأجل الإيمان بالتوحيد، وبحكمة الله. فجعل الإيمان بالنبوة جزءا من الإيمان بالله.

آيات: (٣٠-٣٩) خطاب بالناس جميعاً في إثبات عموم النبوة من خلافة آدم، وأخذ عهدها من الملائكة بناء على صفة الخلق التي تلزم التدبير. ثم في إثبات جميع النبوات لأخذ عهد ثان من ذرية آدم. وهذان الدليلان ليسا من الخبر المحض، بل فى فطرتنا آيات عليهما.

(٣) آيات : (٤٠-٤٦) خطاب ببني إسرائيل إجمالاً بأن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن لعهد أخذ منهم موسى عليه السلام (تثنية باب ١٨:آية١٨)، وبيان دائهم وشفائهم. وآيات :(٤٧-١٠٣) خطاب ببني إسرائيل في تفصيل نقض عهودهم وكفرهم وفساد قلوبهم تمهيداً لضرورة عهد جديد بأمة جديدة، وتسلية للمؤمنين على إنكار اليهود، كما قال ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ...﴾(١).

(٤)آيات: (١٠٤- ١٢٣) خطاب بالمؤمنين في رفع شبهة النسخ وغير ذلك، وذكر فسادهم. وختم الكلام ببنى إسرائيل وتحذيرهم كما بدأ.

وآيات:(١٢٤-١٥١) خطاب بالمؤمنين مع تعريض ببنى إسرائيل في إثبات

(١) الآية :٧٥

هذا العهد الجديد بناء على العهد القديم بإبراهيم عليه السلام، وعلى البيت العتيق. وأن أصل هذا العهد الصلاة، وذكر الله، ونفى الأنداد، وتطهير البيت. وفي ذلك تمهيد للجهاد، وذلك أصل الإسلام وسماه صبغة الله. فحجتهم أن لا دين إلا دين اليهود والنصارى داحضة. وأن أمة قد خلت بما كسبت، وبعثتم خلائف فلكم ما تكسبون، و ليس عليكم من ذنوبهم شيء. وأنكم أمة وسط، وكذلك قبلتكم. وأنكم على صراط مستقيم. ورفع شبهتهم على نسخ قبلة اليهود. وأن قد حق دعاء إبراهيم عليه السلام ببعثة نبي يزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة.

آية :(١٥٢) في بيان عهد هذه الأمة، وهو الذكر والشكر، وجميع الأحكام تتفرع منهما، كما ستعلم . فهذه الآية خاتمة وديباجة، كواسطة العقد بين قسمى الاعتقاد والأحكام من هذه السورة . والذكر و الشكر وجهان لأمر واحد.

الباب الثاني في أصل التزكية وهي بالذكر والشكر والتقوى

(١)آيات :(١٥٢-١٧٧) جزء جامع كلى في ذكر الأحكام العالية. ففصل العهد أي الذكر والشكر ببيان ما يلزمهما أولاً من الصبر والصلاة. والصبر يكون عند الشدائد، وهي مجلبة للذكر ومبتلية للصدق، وأن الصلاة من الذكر، كما جاء كثيراً، وحاملة للشكر. وبذل المال من الشكر، ومنه القرابين . ثم الحج جامع للذكر والقربان والصبر والصلاة. والتوحيد ينطوى جميع ذلك . فمن أشرك في شيئ من الذكر والقربان أبطل كله. فهذه الآيات جمعت أصول الإسلام، وختمت بآية جامعة ذات تفصيل. وفيها بيان أن الكعبة ليست إلا كالمركز بهذه الأصول كما جعلت مغرساً لشجرة الإسلام أولا. وبيان ذلك في سورة إبراهيم والحج .

وكما أن في هذه السورة قدم أصول الدين على الشرائع هكذا في التوراة جعل الباب العشرين للأصول، ثم من الباب الحادي والعشرين ذكر الشرائع.

وكما أن الذكر والشكر أصل العبادات فكذلك التقوى أصل الشرائع،

كما بينا في سورة آل عمران والنساء. ولذلك أكثر كلمة التقوى في بيان الأحكام الظاهرة كما أكثر كلمة الذكر مع الصلاة والحج، وكلمة الصبرمع الجهاد، وكلمة الحكمة مع مكارم الأخلاق لكي تهتدي إلى غور الإسلام. فهذه جملة ما في الباب،فأما تفصيله فانظر الصفحة التالية(١).

...(٢) أي الصلاة والقربان. وتفرع من القربان المواساة بخلق الله، والإنفاق، وإطعام البائس الفقير لوجه الله، كما بينا في تفسير سورة الحج والبلد وغيرهما. فذكر الله تعالى في هذه الجملة من الآيات ما خلطوا من الشرك في القربان للأنداد. ثم بين كيف تنشعب البدعات من الشرك وتنطوي على كفران نعمة الله. فإن الله تعالى هو الحاكم والشارع، فالتشريع من سواه طرف من الشرك، وعمت بلواه حتى أن النصارى اعتقدوا أن الباب الأعظم هو يحل ويحرم ماشاء ويغفر الذنوب، فجعلوه إلها. و القرآن صرح بذلك، حيث قال: ﴿اتَّخَذُوْا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّنْ دُوْنِ اللهِ وَالْمَسِيْحَ بْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوْا إِلاَّ لِيَعْبُدُوْا إِلهاً وَاحِداً﴾(٣) وتفصيل هذا البحث في تفسير سورة الأنعام. وأحلت النصارى ما حرم الله وكتمت حكم الله، فبين الله تعالي ما به الاستقامة على أصل التوحيد، وجعل الآية الأخيرة (١٧٧) جامعة لأصول الدين، وجعل أول باب الأصول كآخره، حيث بدأ وختم بالصبر. وعلمنا أن التقوى من الصبر وأنها هي الأصل ، لما ذكر من الأحكام التي هي المراد من قوله تعالى في صفة النبي في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿يَتْلُوْا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ﴾(٤) أي يتلوا

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) لعل بعض الكلام سقط من العبارة.

(٣) سورة التوبة : ٣١

(٤) سورة البقرة: ١٢٩

عليهم القرآن ويعلمهم الشرائع والأصول، وبذلك يطهرهم. والنفس تزكى بصلاحها حتى يتم إسلامها لربها، وليست الشرائع إلا لهذا الأمر الواحد. فبعد ذكر الأصول فصل الشرائع المطهرة.

الباب الثالث في الشرائع المطهرة

آيات (١٧٨-٢٤٢)

(١) من آية :(١٧٨) يبتدأ تفصيل الكتاب أي الشرائع بعد بيان أصول الديانة والحكمة، حسب دعاء إبراهيم عليه السلام : (١٢٩)، وإجابته : (١٥١). ولذلك عبر عن الشرائع بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ في القصاص، والوصية، والصيام، والقتال. وكل ذلك يؤل إلى التزكية. والفرق بين الحكمة والشرائع أن الثانية مطهرة ومصدقة للأولى. وبيان أن الشرائع كلها للتطهير يستدعي تفصيلاً، وستقف على أصل هذا الأمر فيما يأتي، والقرآن صرح بذلك في غير موضع . قال الله تعالى بعد ذكر الوضوء والمسح في سورة المائدة:﴿مَا يُرِيْدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّن حَرَجٍ وَلٰكِن يُّرِيْدُ لِيُطَهِّرَكُم وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ﴾[١] وكذلك بعد ما أمر أزواج النبي بالقنوت لله ورسوله وعمل الصالحات قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيْدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطْهِيْراً ﴾[٢].

فمن هذه الآية إلى (٢٨٣) جملة واحدة في التزكية عن الرجسين. فإنه كما أن للطهارة شعبتان: الصلاة والصدقة، فكذلك للرجس شعبتان: الغفلة عن ذكر الله والخصام بالعباد. فإن الطهارة ليست إلا فطام النفس عن الشهوات وحملها على محبة الله والخلق، ولذلك فرض الصلاة والزكاة. وهذا تعليم عتيق يوجد في التوراة والإنجيل وبقيت في العرب كما بيناه في أول سورة النساء.

(١) الآية : ٦

(٢) سورة الأحزاب :٣٣

وأصل الخصام والغفلة عن الله واحد، وهو تخييل النفس إياها منفردة منقطعة فتذهل عن أصلها، أي إنها قطرة من بحر الأرواح وذرية نفس واحدة، وكذلك تذهل عن ربها. فإذا عرفت ربها وأصلها أحبت الله والخلق، وذلك طهارتها. وبعض البسط في تفسير أول سورة النساء. ألا ترى أن الله تعالى سمى الخمر الميسر رجسا وعمل الشيطان لأجل صفتي الخصام والغفلة عن الله فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوْهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ. إِنَّمَا يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَن يُّوْقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلٰوةِ فَهَلْ أَنْتُم مُّنْتَهُوْنَ﴾[١].

هذا، وأما تفصيل أبواب التزكية فيأتيك بعد ذلك.

(٢) آيات : (١٧٨-١٧٩) سد باب أكبر خصامهم، وذلك ثارات العرب. ولذلك سماه الله حياة، وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذكر حرمة الدم والمال والعرض:" اسمعوا مني تعيشوا "[٢] وهكذا في القرآن :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اسْتَجِيْبُوْا لِلهِ وَلِلرَّسُوْلِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيْكُم﴾[٣] وقد أحيا الله العرب حين ألف بين قلوبهم، ولم تزل بقية منه من لدن إبراهيم عليه السلام في تحريم الشهور والبيت. وترى خطب النبي صلى الله عليه وسلم بنيت على هذا التأويل، لا سيما خطبته المشهورة في أيام التشريق، فإن نظامها ونظام الأحكام في هذه السورة واحد. فذكر حرمة الدم، ثم المال، وسمى الخصام كفرا، ثم تقوى الله في أمر النساء. فقدم السياسة المدنية على تدبير المنزل.

(١) سورة المائدة: ٩٠-٩١

(٢) المسند لأحمد بن حنبل ٥ : ٧٢

(٣) سورة الأنفال : ٢٤

ولا يخفى عليك أن أول السياسة أن يكفوا عن سل السيوف بينهم، ويذعنوا لسلطان الحكم والعدل والسلم، وحينئذ يرجعون عن السبعية إلى المدنية. ولم يسلب المسلمون عزهم إلا بنقض هذا العهد. ولذلك كف عثمان رضى الله عنه عن سل السيف على المسلمين، وصبر صبر أولى العزم من الرسل. وأما علي رضى الله عنه فاضطروه عليه. ثم ماجت الدماء وصار الإسلام مثل الكفر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الخطبة وهي آخر وصيته : "لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض"(١) فجعل سل السيف بينهم من الكفر.

وقد بيّن الله تعالى لنا السبيل في سورة الحجرات كيف نفعل إذا بغت من المؤمنين طائفة على الأخرى حتى تفئ إلى أمر الله، فصار فرضاً على المؤمنين أن لا يدعوا بعضهم يبغى على بعض. ولذلك جعل قتل المؤمن أشد الكبائر. (النساء :٩٣).

(٣) آيات : (١٨٠-١٨٢) سد باب خصام ينشأ في ميراث بين ذوى القربى، فهذا بعد خصام الدماء، وحث الجماعة على الإصلاح إن خافوا جنفاً من الموصى. وبقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ و﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ١٨٠﴾ بين لنا أنهما من التقوى. وفي القصاص حفظ النفوس والأمن، فسماه حياة. وفي الوصية حفظ المال عن التغشم وصرفه إلى أهل الحقوق، فسماه قياماً. (أول النساء) . واتصل هذا بذاك أيضاً من جهة أن الدية مال يدفع إلى ذوى القربى الذين أصيبوا بموت من ينفعهم، فصار أمر القصاص من باب أحكام الأموال.

(٤) آيات :(١٨٣-١٨٨) بعد إثبات السلم وسد بابى الخصام النفسى بين الأجانب والخصام المالى بين ذوى القربى، رجع إلى قمع خصام النفس اللجوج ورفع سلطان الشهوة التي تلقى الشح والشحناء. فالصوم ترويض للصبر، وهو رأس التزكية. وبذل النفس في ذات الله تطهيرها. ولذلك سمى الله تعالى الكسل والفشل رجز

(١) متفق عليه

الشيطان (الأنفال) (١). والصوم تهيّؤ للجهاد عند العرب، وهكذا نزل. فإن الله لم يفرض الصوم إلا حين فرض القتال. والصوم أيضاً جالب للنصر والولاء، كما صرح به. وغايته التقوى، كما مر في القصاص والوصية. وآية (١٨٥)، وآية (١٨٦)، وآية (١٨٧) زدن من بعد لأجل البيان لبعض الأمور المتعلقة بالصوم. وآية(١٨٨) تتميم طهارة مطلوبة من الصوم في عامة أحوالنا، وهي في كسب الأموال. وذلك بعد الموروث . فانظر كيف راعى الترتيب في هذه الأحكام من وجوه شتى. فذكر القصاص والدية، ثم الوصية في المال المتروك، ثم ذكر الصوم وقمع الهوى، ثم منع عن كسب كل حرام. فسد أبواب البغى، والخصام، والهوى، والحرص.

(٥) آيات: (١٨٩-٢١٨) جعلهم أمة واحدة بل نفساً واحدة بالحج وذلك تمام التزكية، كما فصلناه في سور التطهير من الحديد إلى التحريم، وهناك التفصيل. والحج فيه الذكر والشكر، وفيه ائتلافهم بالتقوى وبحب الله فوق حب الآباء والنسل. فحصلت لهم جامعة إلهية خالصة واسعة دائمة إلى أن يجعلهم الله إخواناً على سرر متقابلين ـ كالمرايا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :" المؤمن مرآة المؤمن "(٢) وظهر لنا رفيع منزلة الهجرة والفرار إلى الله، كما وقع قدماً، اذكر حج موسى وهجرة إبراهيم عليهما السلام . وفرض القتال للدفع عن البيت، والفتنة.

(٦) آيات: (٢١٩-٢٢١) إبطال حبائل الاتحاد الفاسدة وأبواب السماحة الكاذبة من المعاقرة والمقامرة، وإصلاح علائق المودة من تربية اليتامى والمناكحة، فيزكيهم عن أرجاس مخلوطة لا يليق بالمتطهرين . وذكر هذه بعد الحج لما أن كل ذلك من الجوامع وأسباب المؤالفة، فبيّن الحق من الباطل والشفاء من الداء. وفي هذه

(١) لعله يشير إلى الآيات : ٥-١١

(٢) رواه أبوداؤد فى الأدب،باب النصيحة والحياطة، رقم الحديث : ٤٩١٨، والبخارى في الأدب المفرد رقم الحديث : ٢٣٩

الجملة أيضاً قدّم الخمر والميسر لما فيهما فساد السياسة، ثم ذكر أمر المال، ثم أمر النساء، حسبما مر بك في القصاص والوصية وتطهير المكاسب.

(٧) آيتان: (٢٢٢-٢٢٣) تفريع على الطهارة في النكاح. فإن الشرك رجس الباطن كما صرح به القرآن وكثر في التوراة، والمحيض رجس ظاهر. و دل على هذين الأمرين في آخر الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِيْنَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِيْنَ﴾. فالتوبة طهارة الباطن، ونبذ الشركاء، وتخليص القلب لله. ثم في ترك المرأة عند رجسها الظاهر مثال لترك العبد إذا تلطخ بالشرك، كما كثر التصريح به في التوراة. وذكر الإيلاء والطلاق تنبيه عليه.

(٨) آيات: (٢٢٤-٢٣٧) رفع خصام بين المرء وزوجه، الذي يجر إلى الفساد المدني والسياسي. الإيلاء والطلاق تفريع على ترك المرأة. ذكر من النساء أولا من لا تصلح للمؤمن لرجسها الباطن، ثم من لا تصلح له لرجسها الظاهر العارض، ثم من لا تصلح له لنشوزها الراسخ ـ وهو فرع من رجس البغضاء. وذلك ربما يكون من جهة المرء، أو لأمر فطري، فحثهم على إصلاح ذات البين، والحلم، والأناة . فأكثر في هذه الجملة من ذكر البر، والتقوى، والإصلاح، والمعروف، والإحسان، والطهارة، والتراضي، والتشاور، والعفو والفضل بينهم. و لم يحرم الطلاق ولا ينبغي، ولكن سد أبواب الفساد.

(٩) آيتان : (٢٣٨-٢٣٩) هذه خاتمة الباب بالصلاة والذكر، كما بدأ بها القسم العملي. ولهذا الأسلوب أمثلة في القرآن، وسميته العود ـ سورة البقرة (٤٠و١٢٢)، والمؤمنون (٢و٩)، وبني إسرائيل (٢٢و٣٩)، والحشر(١و٢٤) والممتحنة (١و١٣)، والمعارج (٢٢-٢٣و٣٤) واتصال هذه الآية بالتي قبل الأسئلة، وهي آية (٢١٤): ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوْا الْجَنَّةَ﴾ الآية. والمقصود منه تنبيه على أصل الأمر وأهمه. ولما كان عهدنا الصلاة والذكر أكد عليها، وهكذا

فعل في التوراة. والباب العشرون من كتاب خروج يبتدأ بالأحكام العشرة، فبدأ بالتوحيد وختم به. ثم كان القربان صورة عهدهم، كما أن الصلاة لنا، فختم به كليات أحكامهم. هذا حسب ظاهر التوراة. وأما القرآن فظاهره يدل على أن الصلاة كانت لهم كما هي لنا أصل العهد ـ مائدة ١٢، ويونس ٨٧. والتوفيق بأن صلاتهم في عهد موسى عليه السلام كانت في شكل القربان والنذور، كما لا يخفى على الناظر المتأمل في التوراة. وبسط القول في تفسير سورة المائدة.

وفي ذكر الصلاة ههنا أيضاً تنبيه على كونها أهم مقاصد الجهاد. فإن أصل الدين كما علمت ذكر الله والإحسان بالخلق، وأصله السلم. فالقتال لا يجوز إلا لهذين الأمرين، ولذلك وجبت المحافظة على الصلاة للنصرة. والشاهد على هذه الأمور الثلاث قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيْهَا اسْمُ اللهِ كَثِيْراً، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَّنْصُرُهُ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيْزٌ. اَلَّذِيْنَ إِنْ مَكَّنّٰهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوْا الصَّلَاةَ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوْفِ وَنَهَوا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلِلّٰهِ عَاقِبَةُ الْأُمُوْرِ﴾[1] وآي أخر، كما مر في القسط الأول.

وكذلك ترى أبا بكر رضى الله عنه أعلم هذه الأمة بالقرآن لما أرسل أول سرية أوصاهم بالرحمة، والتجنب عن الفساد وإهلاك الحرث والنسل، ليعلموا أن الله تعالى ينصر المصلح ويخذل المفسد، وأن الجهاد ليس إلا لرفع الفساد، وبالصلاح يستحقون الخلافة والوراثة. فهي واسطة بين ما قبلها وما بعدها. وكذلك وصى عمر رضى الله عنه بالصلاة، فقال: "من ضيعها فلغيرها أضيع"(٢). فإن الصلاة هي

(١) سورة الحج: ٤٠-٤١

(٢) انظر الموطأ، باب وقوت الصلاة. ولفظه: "أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمّاله: إن أهم أمركم عندى الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيّعها فهو لماسواها أضيع".

الأصل، ولها استخلفوا واستحقوا وراثة الأرض.

١٠)آيات : (٢٤٠-٢٤٢) نزلت من بعد فضمت بالباب، مثل آخر سورة النساء وسورة المزمل. وهذا من البيان الذي وعد في سورة القيامة بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(١) فضُمت آيات البيان إما بالآية التي اقتضت البيان والتأخير، فأخر الله البيان لمصلحة. وإما بآخر الباب، كما بينا في كتاب تاريخ القرآن(٢)، وتفسير سورة القيامة(٣)، وكتاب دلائل النظام(٤).

فههنا ضم الآيات المبينة بعد تمام باب الشرائع الشخصية . وبعدها تبتدأ الشرائع المتعلقة بالأمة كالشخص الواحد، كما ستعلم.

الباب الرابع في إحياء أمة وأسباب بقائها وارتقائها

آيات : (٢٤٣-٢٨٣)

اعلم أن رأس الحياة التوحيد . تأمل آيات :(٢٤-٢٨) من سورة إبراهيم.

(١) وذلك هو قربان النفس والمال، والاعتصام بالعروة الوثقى من التوحيد والتوكل، كما علّمنا في أول كتابه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.(٥) فجمع التوحيد والتوكل والارتقاء ترتيبا سببيا، فإن الصراط المستقيم يلزمه الارتقاء إلى مدارج القرب. والصراط المستقيم هو التوحيد في العبودية والانسلاخ عن عبودية الهوى ، فإذا ارتفع حجاب الهوى انبعث في النفس إحساس المواساة بالخلق، فبذل النفس للخلق مبنى على اتحادهم. وهذا الإحساس

(١) الآيات : ١٧-١٩

(٢) وهو مخطوط

(٣) نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٤٠٣هـ

(٤) نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٨٨هـ

(٥) سورة الفاتحة : ٥-٦

هو معنى الصلاح، وبه تصير الجماعة شخصاً واحداً يتعاون بعضهم ببعض كأعضاء جسم واحد، ويتحقق كمال نفس آدم راجعة من التبدد إلى التوحد. وبذلك حياتهم حياة واحدة مدنية وروحانية. فالصلاح صفة، بها يصلح واحد لآخر، فيصيران شخصاً واحداً. والفساد خلاف ذلك .

فإن تدبرت في هذا الأمر علمت وجه ربط الجهاد ورفع الفساد مع حرمة الربوا وفرض الصدقة والعفو، وبعد ذلك وعد النصر. انظر سورة آل عمران (١٠٠-١٥٠) .

فجمع الله في هذا الباب أمور بذل النفس والمال، كما يأتيك. وهكذا قال المسيح عليه السلام :" ابذل الحياة فتأخذ الحياة" كأنّ هذه الحياة بذر لتلك الحياة .

(٢)آيات: (٢٤٣-٢٥٣) في بيان إحياء الأمم ببذل نفوسهم، وبيان وجوب القتال لرد مركز الحياة ورفع الفساد وإثبات السلم. ولم تجمع أمة إلى الآن بغير رابطة دينية، ولذلك كثر عدد الأوثان عند الأمم المشركة إذا اتسع نطاق ملكهم كما لا يخفى على الناظر في تاريخ الهند والروم، كما بينا في تفسير سورة الكافرون. فكان لبني إسرائيل مركزا لاجتماع تابوتهم حتى بنوا البيت المقدس. وفي ذلك مثال لوجوب الجهاد لاستخلاص الكعبة والقبلة. وبين أن الله يعطى الملك والحكمة جزاء لبذل النفس، كما أنه يعطى الحكمة لمن بذل ماله (٢٦٩). ثم أجاب عن شبهة اقتتال أمة واحدة وجعل ذلك سبباً لذكر دواء الخصام، ومنشؤه في الآيات الأتية.

آيات: (٢٥٤-٢٦٠) في بيان الطرف الثاني من البذل، وهو بذل المال. فعلمنا أن النفس بعملها تخلصها وتزكيها، فلزمها بذلها ومالها، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾١ فعليها أن تقرب بالمال كما تقرب بذاتها. فأزاح ظن الشفاعة وأخذ الناس أرباباً ظانا بأنهم شفعاؤهم عند الله. فبين لاختلاف أمة واحدة

(١) سورة النجم : ٣٩

أمرين: بغيهم لفقدان السماحة، وتركهمّ الاعتصام بـالله. وعلّمنا كيف يؤيد الله الموحدين بالنور، ويخذل المشركين في الظلمات، فمثل لنا ذلك بثلاث قصص:

الأولى في خروج الملحد المغرور بالدنيا من نور الحجة إلى الظلمة.

والثانية في خروج الموحد من شك إلى يقين.

والثالثة في خروج الموقن إلى إطمئنان القلب.

في هذه الأمثال راعى مبنى الكلام، وهوحياة الأمة. وبدأ القصة بذكر إبراهيم وختم به لشهرته بالسخاء والتوحيد. والقصة الأولى جمع إبراهيم عليه السلام والذي كان خلافه، فإنه اغتر بالدنيا وترك الاعتصام بالعروة الوثقى وهو التوحيد. وأما كيف ربط القصتين بإحياء الأمة، فبيانه في القسط الثالث وهو مهم، فأخرناه لتفرغ له تأملك .

(٣)آيات:(٢٦١-٢٦٦) بيان بركات الله على بذل المال، وضرب أربعة أمثال:

الأول: مثل الزرع في سهول الأرض وخصبها مثلاً للذي ينفق في سبيل الله، وجعل قولاً معروفاً من الصدقة، لنعلم أن المراد هو صلاح القلب.

والثاني: مثل حزونها لا تنتفع بالمطر مثلاً للقاسية قلوبهم.

والثالث : مثل جنة بربوة في نجد يصيبها المطر، وبين مقصد الإنفاق وهو ابتغاء مرضات الله وتثبيت النفس. فعلمنا أن بذل المال سبب لبذل النفس، فإن كليهما من الصبر والتسليم لله تعالى.

والرابع: مثل جنة في تهامة تسقى بالأنهار، فعلمنا أن الإنفاق لا يجدى نفعاً إذا كان للرياء وبغير إيمان بالله ولقائه. فالنور والنصر والفضل يأتي من الله تعالى، فليكن الإنفاق لمرضاته.

وفي هذه الأمثال ترى أن البركة، أو الخسران ما جاء إلا من عند الله،

وهكذا صرح في الجملة السابقة بأن لاشفاعة ولا خلة إلا بإذنه، وهو الذي يخرج من الظلمات ويهدى إلى الحياة. فجعل الإخلاص في الإنفاق كالإخلاص في العبادة من أهم الأمور، وهكذا يجب عند العقل. فالمن، والأذى، والرياء. يبطل الصدقات. وسيأتيك مثل ذلك في الجلمة التالية.

(٤)آيات:(٢٦٧-٢٧٤) بين أمورا عظاما لا تجد أكثرها في التوراة، ولا فى الإنجيل، ولا في سائر كتب الأديان والأخلاق -

١ـ ليكن الإنفاق من التجارة والحرفة والأرض.

٢ـ وليكن طيبا وعزيزا. وهذا مما جاء في التوراة. فألزمهم أن يأتوا إلى الله بكل بكر عزيز، وهكذا في القرآن :﴿ لَنْ تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(١)

٣ـ الشيطان يمنعكم عن الإنفاق في سبيل الله بتصوير الفقر ويحثكم على الإنفاق في المآثم، والله تعالى يعدكم مغفرة وبركة. ههنا مقابلة بين الفقر والفضل، والفحشاء والمغفرة.

٤ـ أحسن بركاته أن يؤتيكم حكمة وفهما سليماً، وبها حياة الأمم وعروجهم.

٥ـ كل نفقة جالبة لنصر من الله تعالى، لكون المؤاساة أصل شرط الخلافة

٦ـ إظهار الصدقات أحسن لتعليم الجمهور وحثهم على الخيرات.

٧ـ إخفاؤها مكفّر لسيآتكم. وعلى هذا الأصل أكثر الأعمال الصالحة. فالصلاة والذكر فيها ما يكون علانية وما يكون سراً.

٨ـ النبي يعظهم، وقبول العظة لا يأتي من المتدنسين. فإذا أنفقوا اطهروا وأفاض عليهم الله هداه، فوجب ابتغاء مرضاته. وطهارة القلب بالإنفاق أمر عقلى، ولذلك سمى الله الزكاة زكوة، وصرح بذلك في مواضع كثيرة.

---

(١) سورة آل عمران :٩٢

٩- الإنفاق ليس إلا لأنفسكم ويُرد عليكم بأضعافه

١٠- ينبغي أن تعرفوا المستحق بسيماه وتعطوه قبل السؤال، فندب التعفف.

(٥)آيات:(٢٧٥-٢٨١) وضع حرمة الربوا بين الصدقة والتداين، لتعلم علة حرمته وهي كونه ضداً للصدقة، ولتعلم أن التداين تعاون ومخالف للربوا. ثم صرح بكونه خلاف الصدقة والبيع، وأنه كفر وإثم، وضد للتقوى، وظلم. وفي سورة آل عمران وضعها بحيث تعلم من النظام أن الغفران والنصر لا يتوجه إلى أهل الربوا. وبيان وجه الحرمة تفصيلاً يأتيك في القسط الثالث، وهناك ترفع بعض الشبهات لما يرون من رغد الآكلين الربوا.

وقوله تعالى:﴿ فَأْذَنُوْا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُوْلِهِ﴾(١) يعلمنا أنه من الكبائر الهادمة لصلاح الملك. وذكر الله جزاء هذه المعصية التي سميت حرباً بالله ورسوله في سورة المائدة، حيث قال:﴿ إِنَّمَا جَزَاؤُ الَّذِيْنَ يُحَارِبُوْنَ اللهَ وَرَسُوْلَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوْا أَو يُصَلَّبُوْا أَو تُقَطَّعَ أَيدِيْهِمْ وَ أَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾(٢) وإنما جعل الفساد حربا به لأنه تعالى أنزل الشريعة إصلاحاً، فالمفسد محاربه والربوا من الفساد في الأرض. ولذلك نفى عمر رضي الله عنه أهل نجران عنها (صفحة ٧٢ فتوح البلدان بلاذري)(٣) لأكلهم الربوا، فأجرى عليهم أخف العقوبات لهم. ثم بذلك كان قد عاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى كتب : "ومن أكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه برية"(٤) مع أنه عليه السلام لم يغير دينهم ولامراتبهم. فاتضح أنه جرم سياسي، و لذلك ذكره في خطبته في

---

(١) الآية : ٢٧٩

(٢) الآية : ٣٣

(٣) انظر ص: ٧٢و ٧٢

(٤) المرجع السابق: ٧٢

حجة الوداع، والبلاغ بعد حرمة الدماء. وأمر الله تعالى بالمهلة لذوى العسرة بل العفو ذخر الغد فلا حيف.

(٦) آيات : (٢٨٢-٢٨٣) فيما يتعلق بالتعاون دون الصدقة، وهو القرض. و أوجب فيه الكتابة أو الرهن حين تتعذر الكتابة، فلا رهن فيما عدا ذلك، كما ذهب إليه مجاهد والضحاك رحمهما الله تعالى ، فقالا : لا يجوز الرهن إلا في السفر (ابن جرير الطبري رحمه الله)(١) وتفصيل هذا البحث في القسط الثالث.

فأوجب أداء الرهن عند ارتفاع الضرورة تكميلاً لما جاء في التوراة من كراهية الرهن. وأعلن به النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع، فذكر الرهن مع الربا والدم (طبرى صفحة ١٧٥٣)(٢). وترى اليوم كيف اختلط الربا بالرهن، وإنما خفى هذا الأمر لأن الرهن عبّر عنه بالأمانة. راعى من التفصيل أمرين عظيمين: إملاء الكتابة لمن عليه الحق، وفرض الشهادة. ولاترى هذين الأمرين في التوراة ولا غيرها من كتب الأديان. وفرض في التداين عشرة أحكام، ثم زاد عليها إثنين من الرهن ، ورده إذا حصل الأمن. تأمل ههنا تجد ترتيباً عقليا: ذكر الصدقة (أولا) ثم ذكر الربوا(ثانيا) ثم التداين (ثالثا) ثم الرهن (رابعا). وأبطل الثاني والرابع، وذكر التجارة الحاضرة ضمناً لخلوها من الخصام. والأحكام العشرة هذه:

(١) الكتابة

(٢) عدل الكاتب

(٣) لا يأب كاتب

(٤) يملى الضعيف

---

(١) انظر تفسيره٦: ٩٥ رقم ٦٤٣٧ و ٦٤٤١. وقال ابن كثير "واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعا إلا في السفر، قاله مجاهد وغيره" ١: ٣١٨.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٣: ١٥٠

(٥) عدله

(٦) وليه يملي بالعدل

(٧) استشهاد شهيدين

(٨) أو رجل وامرأتين

(٩) لا يأب الشهداء إذا ما دعوا

(١٠) لاتسئموا الكتابة لصغر الدين

ثم هذه الآية الواحدة تضمنت بيان حِكَم هذه الأحكام. ثم ذكر سبعة أحكام مما يتعلق بالتجارة والرهن، ولا يخفى ذلك على الناظر فيها.

ثم لا يخفى عليك أن كل ذلك من المعاملات ذكرت تحت الإنفاق، فهو ينبوع هذه كلها. والإنفاق جاء ذكره كالدواء والحصن من الفساد والاقتتال، وكالصنو أو العضد للتوحيد. وأطنب في ذكر الإنفاق، وأدرج فيه أمثالاً وقصصاً للحياة والنور والهلاك والظلمات، واهتم بالإخلاص فيه كالإخلاص في التوحيد.

وإن نظرت فيما أوحى الله من أوائل هذه البعثة إلى أواخرها وجدت الإنفاق مدار أمرها، وكذلك الصلاة ؛ فإن بسط هذا الدين باعه كانت الصلاة يمينه والزكاة يساره.

الباب الخامس في الخاتمة

قوله تعالى : ﴿لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ الآية خاتمة لآيات الأحكام، وفيها تأكيد شديد لما ذكر محاسبتهم بما يبدون، ولا بد منه.

وقوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ﴾ الآية إقرار لما كتب عليهم، كماجاء في آخر كتاب استثناء:" فأخذ موسى عليه السلام العهد عن أمته "

وقوله تعالى : ﴿ لاَيُكَلِّفُ اللهُ ﴾ الآية تطييب من الله لقلوب المؤمنين. ولا نسخ فيها، لما مر من المحاسبة.

وقوله: ﴿ فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِيْنَ﴾ فيه بلاغة عجيبة، بما دل على كونهم حزب الله وأنه مولاهم . فهذه الكلمة الواحدة دلت على ربط هذه الآيات بما قبلها من حكم بذل النفوس في سبيل الرب، ومن بعثه تعالى إياهم أمة جديدة.

* * * * * * * *

المراجع المذكورة في الحواشي

- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي. المكتبة الثقافية، بيروت ـ لبنان.
- الأدب المفرد، للبخاري. القاهرة ١٣٧٨هـ.
- الأصمعيات، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون. دار المعارف، القاهرة. ١٩٦٤هـ.
- البيان والتبيين، للجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. الخانجي، القاهرة ١٤٠٥هـ.
- تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار التراث، بيروت.
- تفسير ابن كثير. دار الحديث، القاهرة ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
- جامع البيان في تفسير القرآن، للطبري المطبعة الميمنية، مصر.
- جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي. تحقيق الدكتور محمد علي الهاشمي. دار القلم، دمشق، بيروت ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
- الحيوان، للجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون. دار الجيل، بيروت ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
- ديوان الأعشى الكبير. شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين. المكتب الشرقي، بيروت ـ لبنان.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف، مصر ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.
- ديوان رؤبة بن العجاج ـ مجموع أشعار العرب ٣، تصحيح وليم بن الورد، دار الآفاق الجديدة بيروت. ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، بشرح الأعلم. المكتبة التجارية لمصطفى محمد، مصر.
- ديوان طرفة بن العبد، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال. مجمع دمشق ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.
- ديوان طفيل الغنوي، تحقيق محمد عبد القادر عطا. دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٨م.
- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح حسين نصار. مصر ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م.
- ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق محمد جبار المعيبد. بغداد ١٩٦٥م.
- ديوان الفرزدق، شرح مجيد طراد. دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
- ديوان لبيد بن ربيعة بشرح الطوسي، تقديم الدكتور حنا نصر الحتي. دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر.

- سنن ابن ماجه. المكتبة العلمية، بيروت.
- سنن أبي داؤد. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- سنن الترمذي، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر. المكتبة الإسلامية.
- السيرة النبوية، لابن هشام. تحقيق مصطفى السقا، والأبياري، وشلبي، دار الخير، بيروت ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- شرح ديوانه الحماسة للمرزوقي. دار الجيل، بيروت ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- شرح القصائد السبع الطوال، لابن الأنباري. تحقيق عبد السلام هارن. دار المعارف ١٤٠٢هـ.
- شعراء النصرانية، لويس شيخو. بيروت ١٨٩٠م.
- الصحاح، للجوهري. تحقيق أحمد عبد الغفور عطار. القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٥٦م.
- صحيح مسلم. دار عالم الكتب، الرياض ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر. المكتبة السلفية.
- كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون. بيروت.
- الكشاف، للزمخشري. مصر ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- لسان العرب، لابن منظور. دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- مجاز القرآن، لأبي عبيدة، تعليق محمد فواد سزكين. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- المفضليات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون. دار المعارف، القاهرة.
- الموطأ للإمام مالك. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الفهـــــرس